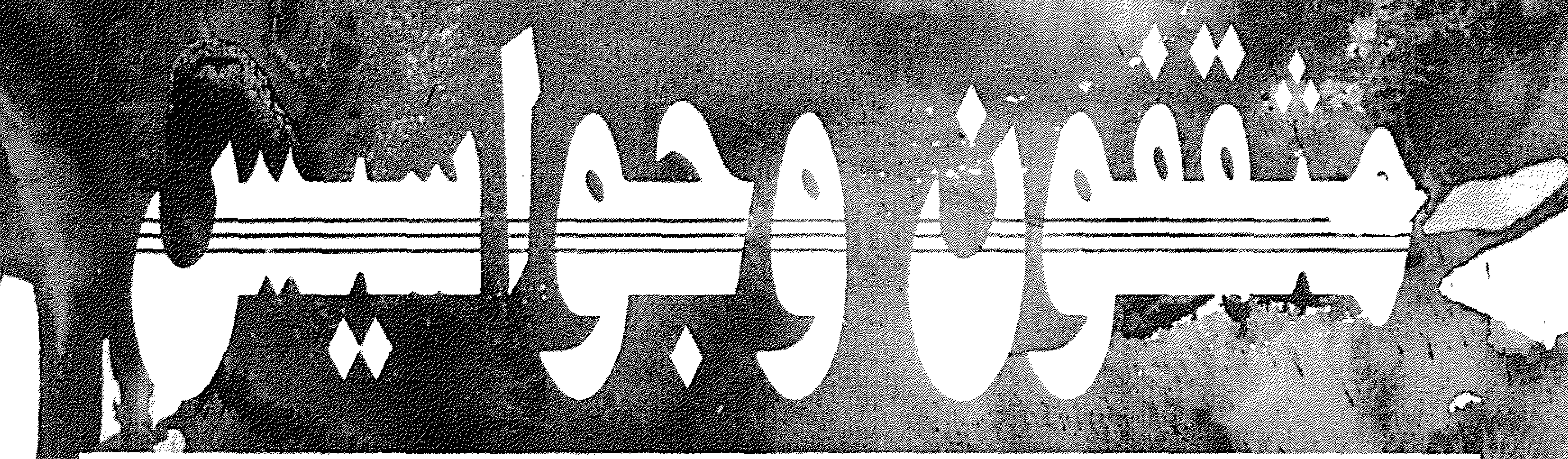
د. مصطفى عبد الغنى



مثقفون وجواسيس

والسياسيين فى مصر

مثقفون وجواسيس

حروب العسكر والسياسيين في مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ

صدق الله العظيم

دار الأمين

طبع * نشر * توزيع

الجيزة : ٨ شارع أبو المعالى

(خلف المعهد البريطانى) العجوزة

تليفون و فاكس : ٣٤٧٣٦٩١

١ شارع سوهاج من شارع الزقازيق

(خلف قاعة سيد درويش) الهرم

تليفون و فاكس : ٥٦٣٤٦٩٩

ص . ب : ١٧٠٢ العتبة ١١٥١١

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

رقم الإيداع ٨٥٠٢/ ١٩٩٧

ISBN
977-279-148-X

إخراج فنى : جمال فتحى أحمد

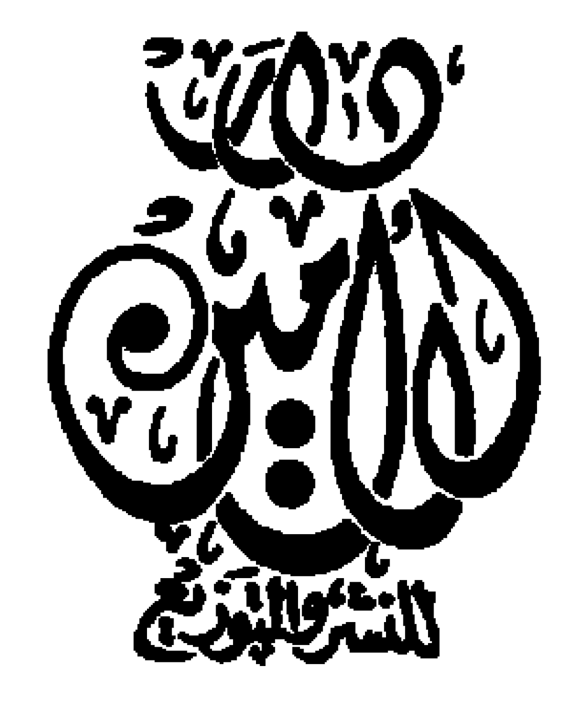
الغلاف بريشة الفنان :

ناجى كامل

مثقفون وجواسيس

حروب العسكر والسياسيين في مصر

د. مصطفى عبد الغنى



الفهرست

* * *

سأل الجنرال الجاسوس الجديد :

- ماهو العميل النموذجي ؟

أجاب :

- الذى لا ينسى أنه عميل .

فرد الجنرال :

- كلا .. أفضل العملاء هو ،

الذى لايعرف أنه عميل .

(عن فيلم أمريكى)

تقديم

بقلم : **د. محمد نور فرحات**

كبير مستشارى الأمم المتحدة

بين يدى القارئ كتاب هو من أكثر الكتب التى أخرجتها المطابع العربية فى السنوات الأخيرة تميزاً عن «المثقفون وأزمة الخليج» .

والمؤلف هو «الدكتور مصطفى عبدالغنى» ، وهو شخصية ثقافية معروفة على الساحة العربية ، له إسهاماته من كتابات أسبوعية فى عموده بصفحة الثقافة والأدب بجريدة «الأهرام» ، ويعادل ذلك أهمية ما قدمه للمكتبة العربية من دراسات رائدة تركز على التحليل الاجتماعى والسياسى للإنتاج الفكرى للمثقفين العرب ، كان من أهمها رسالته التى حصل بها على درجة الدكتوراه عن المثقفين وعبد الناصر .

ومما لاشك فيه أن التحليل الاجتماعى والسياسى للخطاب الثقافى ، وهى المهمة التى نذر المؤلف إنتاجه لها ، يعد من أكثر الفروع دقة ومشقة فى العلوم الإنسانية قاطبة ، سواء من حيث المنهج أو من حيث الإشكاليات النظرية والمعرفية محل المعالجة .

إنها نوع من الدراسات يفترض أن الخطاب الثقافى ليس ظاهرة معلقة فى فراغ ، وإنما تجد تفسيرها أو بعض تفسيرها فى مجموعة من العوامل الموضوعية ، اجتماعية واقتصادية وسياسية بل ونفسية ، تحكم الخطاب ذاته كعنصر موضوعى وصاحب الخطاب ومتلقى هذا الخطاب ، باعتبارهم يمثلون العناصر الذاتية لها .

وتجتمع دراسات سوسيولوجيا الثقافة والمثقفين بين مضامين ومناهج أكثر من فرع من فروع العلوم الاجتماعية . فهى أصلا تنتمى إلى علم اجتماع المعرفة الذى يتوفر على الدراسات السوسيولوجية للأنساق الأيديولوجية والفكرية ، كما أن لها من مباحث علوم السياسة والاقتصاد بل وعلم النفس نصيب .

ومن هنا فإن من يتعرض من الباحثين لهذا النوع من الدراسات ، لابد وأن يكون على إحاطة كافية وعلم واف بأساسيات هذه المعارف ، ولايحسب إلا أن مؤلفنا من هذا الفريق من الباحثين .

وفى هذا المقام فإن الفضل يجب أن يذكر لأساتذة وباحثين مصريين رواد ، شقوا الطريق لجيل «مصطفى عبدالغنى» فى البحث فى سوسيولوجيا وسيكولوجيا المعرفة والإبداع ، وفى هذا الصدد تأتى دراسات «د. مصطفى سويف» ومدرسته فى سيكولوجيا الإبداع الفنى علامة بارزة على الطريق . كما تأتى الدراسات الرائدة « للسيد يس » فى علم اجتماع الأدب، كإسهامات كان لها الفضل فى صقل المناهج وإيضاح الإشكاليات الجديرة بالدراسة أمام الجيل المعاصر من الباحثين .

تتعرض الدراسة الماثلة التى نقدمها للقارئ للتحليل الإجتماعى المعرفى لموقف المثقفين المصريين من أزمة الخليج .

وتستمد هذه الدراسة قيمتها من كونها شهادة حية معاصرة ورصد أمنى لمختلف الإتجاهات والتيارات الفكرية التى تمحورت حول أزمة الخليج ، فمثلما بددت حرب الخليج ثروات العرب وقدرات العرب وطموحات العرب فى المستقبل المنظور ، فقد أخرجت هذه الحرب خلايا العقل العربى بكل ثناياها ، وعرضتها لإشعاعات الضوء المبهر والعواصف الخارقة . لقد بعثرت هذه الحرب – وتلك أخطر آثارها قاطبة – الضمير العربى إلى أشلاء متناثرة فى شكل شظايا عقلية صغيرة ما يفرقها أكثر مما يجمعها ، وما يفصل فيها أكثر مما يربط . وليس بغير ذى دلالة أن الشعوب المقهورة والمطحونة هى التى أيدت تلقائية وعفوية وسذاجة «صدام حسين» فى مغامرته الطائشة بغزو الكويت ، فهذه الشعوب لم تتوقف كثيراً أمام التزامات العراق بمقتضى ميثاق الجامعة العربية والأمم المتحدة أو أمام عدم مشروعية العدوان ، ولم تتوقف كثيراً أمام قضية غيبة الديموقراطية ومسؤوليتها عن الكوارث العربية ، وإنما عبرت بعفوية شديدة عن احتجاجها على الظلم والقهر بضيقها من مظاهر البذخ والثراء الذى لايوجه لخدمة المصالح المشروعة للشعوب العربية فى التنمية والنهضة والاستقلال .

هذا عن رد الفعل العفوى لجماهير فقراء العرب ، أما عقلاء العرب فقد تفرقت بهم الطرق والسبل كل مذهب ، وكشفت أزمة الخليج ، كما أوضح مؤلفنا بجلاء ، عن أمرين بالغى الخطورة فى البنية العقلية العربية المعاصرة ، أولهما عدم إتفاق العقل العربى ، أو لنقُل عدم إتفاق المثقفين العرب على مبادئ حد أدنى لتصور العرب عن أنفسهم وعن علاقاتهم مع الآخرين ، فقد استشرى الخلاف بين المفكرين والمثقفين العرب حتى جذور الجذور ،

وغابت أية مبادئ حاكمة تجمع العقل العربى ثم يتفرع بعدها الخلاف ، ويصدق ذلك على كافة القضايا التى أثارتها أزمة الخليج : قضية الوحدة العربية ، قضية حق الشعوب فى تقرير مصيرها ، قضية الديموقراطية فى صناعة القرار السياسى العربى ، قضية العدل الاجتماعى العربى ، قضية كفاءة المؤسسات الرسمية العربية وفى مقدمتها الجامعة العربية والاتحادات الإقليمية فى حل الخلافات العربية ، كل هذه القضايا وغيرها أبانت أزمة الخليج أنه لا يوجد حد أدنى من الإتفاق العربى حولها .

أما الأمر الثانى الذى كشفت عنه أزمة الخيج فى بنية العقل العربى المعاصر ، فهو عدم وجود اتساق داخلى بين الأطر النظرية التى ترفعها الكتل الثقافية والسياسية العربية الكبرى وبين مواقفها الفعلية ، لقد كانت حرب الخليج بشطريها : الغزو العراقى للكويت ، والاحتياج الغربى لكل من العراق والكويت ، كانت هذه الحرب موقفاً فعلياً يمثل اختياراً للأطروحات النظرية التى تطرحها الفصائل السياسية والثقافية العربية ، ونظن أن كافة هذه الفصائل قد رسبت رسوباً مدوياً فى ذلك الامتحان الذى عقد لها فى مقدماتها النظرية ، فلا العروبيون والقوميون ، ولا اليسارون ولا الديموقراطيون ولا الإسلاميون كانوا أوفياء على طول الخط لأطروحاتهم النظرية التى يقدمون أنفسهم بها للجماهير العربية ، هل لأن هذه الأطروحات جميعها أصبحت سلفية حتى النخاع بحيث عجزت عن استيعاب مستجدات الواقع العربى ، والعالمى ، أم هل لأن أصحاب هذه الأطروحات غير أوفياء لها ؟ لا نعلم ، وإنما الظاهر أنه فى داخل كل فريق حدثت إنشقاقات فكرية ملحوظة تمثل خروجاً على المولف المعلن من حرب الخليج ، حتى أنه فى داخل فريق الإسلاميين يرصد المؤلف ما أسماه بحرب الفتاوى – أى الفتاوى الإسلامية التى تقف مع هذا الفريق ، والفتاوى الأخرى الإسلامية أيضاً التى تعارضه وتقف مع الفريق الآخر – وللحق نقول إن حرب الفتاوى هذه لم تكن قصراً على فريق الإسلاميين وحدهم ، بل وجدت فى داخل فريق القوميين الفتاوى القومية والفتاوى القومية المضادة ، وفى داخل فريق اليساريين الفتاوى اليسارية والفتاوى اليسارية المضادة ... وهكذا .

ولكن الظاهر للعيان أن فريقا ثقافياً هاما قد غاب عن الشهادة على أزمة الخليج أو قد كتم شهادته ، وبالتالى يحق لنا القول إنه لم يولد بعد أو أنه قد ولد ومات دون أن يلحظه أحد : ونقصد به فريق المؤمنين لحقوق الإنسان ودعاتها ، إن أزمة الخليج يمكن اعتبارها بحق

مستمرة تمثل اعتداءً على كل أنواع وفصائل حقوق الإنسان التى تضمنها المواثيق الدولية : اعتداء على الحقوق الجماعية والحقوق الفردية ، على الحقوق المدنية والسياسية والحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، اعتداء على حق الشعوب فى تقرير مصيرها ، وعلى حق السيادة الوطنية على الإقليم ، وعلى حريات الرأى والتعبير والتنظيم ، وعلى الحق فى الحياه وسلامة الجسم ، وعلى الحق فى الأمن والسلم، والحق فى مسكن وغذاء وصحة وبيئة نظيفة . وما زالت هذه الجريمة مستمرة حتى الآن فى حق شعب العراق الذى يتعرض لحصار لا إنسانى خدمة لمصالح الولايات المتحدة ، وفى حق الأسرى الكويتيين الذين لا يعرف أحد مصيرهم حتى الآن ، فأين موقف حركة حقوق الإنسان ودعاة حقوق الإنسان والمؤمنين بها من كل هذه الاعتداءات والجرائم المستمرة ؟

* * *

والمؤَلَّف الذى بين أيدينا إذن هو شهادة موثقه يقدمها باحث يملك ناصية البحث ، على العقل العربى فى واحدة من أبرز الأزمات المعاصرة التى ألمت به ، وقيمة العمل الذى هو بين أيدينا هو فى طابعه الراصد الذى يرصد لنا جوانب الثقافة العربية المتعلقة بأزمة الخليج ، ومع ذلك فإن ملاحظات عدة نرى ضرورة إثباتها ووضعها تحت نظر القارئ ونحن فى معرض تقديمنا لهذا العمل ، وهى كما يلى :

أولاً : إن الجانب الراصد فى هذا المؤلف قد غلب على الجانب التحليلى ، حقيقية أن المؤلف قد عرض بوضوح لخريطة مختلف التوجهات الفكرية والسياسية المتعلقة بأزمة الخليج ، ولكن سؤالاً أساسياً وجوهرياً ما زال بلا إجابة وهو : ولماذا كانت هذه الاختلافات والتمايزات فى المواقف الفكرية العربية ؟ وهل ترجع أسبابها إلى صميم الموقف الأيديولوچى أو الموقف الاجتماعى الاقتصادى ؟ أم الانحياز الحزبى السياسى ؟ ، أم أن الأمر كله ضرب من اللامعقول ؟ .

ثانياً : ولعل الملاحظة السابقة ترجع إلى ملاحظة أخرى وهى أن المؤلف دخل إلى بحثه من مدخل الذات لا من مدخل الموضوع ، فقد جعل من تصنيفه للمثقف وفكرته المسبقة عنه مدخلاً لبحث توجهات هذا المثقف إزاء القضايا التى أثارتها حرب الخليج ، فهو يحدثنا عن مثقف السلطة ، ومثقف النفط وحزب الوفد ، والمثقف المستقل ثم يتعرض

للخطاب اليسارى والخطاب الإسلامى ، وخطاب جماعات المصالح المثقفة ، أى أن المؤلف يضع اللافتة فوق رأس المثقف أولا ثم يبدأ فى تحليل آرائه ثانياً . ورأينا أن المنهج الأقرب إلى الموضوعية والصواب أن نحدد الموضوع أولا ثم نرصد موقف الذات منه ، فنتعرض أولاً لفكرة القومية ثم نعرض لموقف مختلف الخطابات منها ، ثم لفكرة الديموقراطية ثم لفكرة العدل الاجتماعى ... وهكذا .

ثالثاً : إنه رغم أن المؤلف قد وضع لنفسه هدفاً ، وهو تحليل الخطاب الثقافى العربى – أى موقف المثقفين العرب من حرب الخليج – فقد استدرجته مادته البحثية الغزيرة – وهذه ظاهرة معروفة جيداً للباحثين – إلى البحث فى موقف التجمعات السياسية المختلفة ، موقف الوفد ، والحزب الناصرى ، والإخوان المسلمون ، والتجمع. وبديهى أن الواقع السياسى – أو الخطاب السياسى – لايمثل المثقفين فقط وإنما يمثل مختلف الشرائح الاجتماعية التى تشملها الحركة السياسية .

* * *

ومع ذلك فنحن أمام عمل علمى جاد وجدير نقدمه للقارئ نرجو أن يثير اهتمامه اتفاقاً أو اختلافاً معه .

* * *

مقدمة

أياً كان الاختلاف حول تعريف ما حدث فى الخليج فى أغسطس ١٩٩٠ : أزمة أم كارثة أم زلزال أم تجربة.. فمن المؤكد أن أهم آثاره كانت الصدمة التى تصنعها الأزمات فى لحظتها الأولى.

وإذ أصابت الأزمة الجسد المُمدد فى تيه العالم المعاصر، فقد كان أول ماتأثر هو العقل ، فى حالة أشبه بتشنجات توزعت استجابات المثقفين لها بين مواقف عديدة ، فتوالت ردود الأفعال فى شتى الاتجاهات.

كان الجسد الممزق ، الموثق بحبال قوية فى مشهد أشبه بمشهد «جاليڤر» فى بلاد الأقزام، غير أن «جاليڤر» هذه المرة كان واقعاً تحت قوى لا طاقة له بها ، إذ استيقظ فجأة على عالم ينهار فيه كل شىء : التاريخ العربى ، الحدود العربية، الحلم القومي، التجمعات العربية، العالم السوفيتى . وفى المواجهة كان يتغير دور الأمم المتحدة ، وتتحدد قوى الإعلام الضخم، وتنشط ذاكرة اليمين الأوروبى، وتسود العالم قوى جديدة هى قوى الولايات المتحدة (الأمريكية) ، التى قررت منذ الساعات الأولى لغزو العراق للكويت استخدام القوة المسلحة لإعادة رسم ملامح عالم جديد يستحق وصفه بعصر السلام الأمريكى paxa Americana .

لقد استيقظ الإنسان العربى فجأة فى عالم معادٍ له ، فى حين رفض أن يصدق مايحدث حوله، ومن ثم ، فإنه كلما مرت أيام فى الأزمة منحت الصدمة مايشبه الحيرة، التى توالت على شكل أسئلة غامضة غاضبة :

– لم تعد الأزمة هى السؤال، وإنما، كيف بدأت ؟

– لم يعد السؤال كيف حدث ماحدث، وإنما، لماذا ؟

– لم تعد الحيرة لماذا انهزمنا، وإنما، لماذا تتكرر الهزيمة ؟

وكان على العقل العربى فى مصر أن يسأل :

– أين المثقف ؟

ولمّا طال انتظار الإجابة استبدله بسؤال آخر :

– هل سيأتى المثقف حقا ؟

وفى انتظار المثقف العربى لإجابات بدت على شكل (جودو) فى مسرحية بيكيت الشهيرة ؛ حاولت أن أفهم مايجرى حولى .

كان قُصارى ماأريد هو البحث عن هذا المثقف المصرى - وإن يكن بمصباح (ديوچين) فى عالم يتغير وقيم تتبدل، ومثقفين يتحولون - وإن يكن بالمجان وبالغفلة - إلى عملاء، وإعلاميين وكتّاب يزعمون - بالحق وبالباطل - لعب أدوار رسولية.

هكذا حاولت أن أفهم مايجرى .

* * *

وفى محاولة لفهم مايجرى حاولت أن أرصد الخطاب العربى فى مصر، وقد سلكت إلى ذلك طريقين : تعريف الخطاب وتبسيط المنهج .

أما الخطاب Discours فلا يهمنا منه هنا معناه الألسنى الضيّق، وإنما معناه التحليلى العام، أى مانستمد منه أداة للتحليل، تحليل المفاهيم والتصورات المتباينة فى الخطابات الفكرية المتصارعة، وهو ما يمنحنا عدة معان نجد أقرب تفسير لها عند الناقد الفرنسى المعروف إميل بنفست(*)، وعلى ذلك يكون الخطاب - كما نعتمده هنا- هو كل كتابة أو نطق يحمل وجهة نظر محددة، ويفترض فى صاحبها التأثير فى القارئ أو السامع، مع الأخذ بعين الاعتبار جملة الظروف والملابسات التى يتم فيها .

وأحب أن أسجل هنا أننا نتعامل مع أزمة الخليج عبر الاتجاه الإبستمولوچي لا الأيديولوچى كأداة تعبير، وعبر عناصر تحليلية لما حدث بما يصبح هدفنا منه - كما أشرنا - هو المعرفة المحددة لموقف فى حركته المباشرة ، أو ملاحظة تطور هذا الموقف ، أو عبر إعادة إنتاجه دون إغفال البنّية الاجتماعية أو السياسية .

ولن نجاوز فى ذلك الخطابات المتصارعة فى مصر، على اعتبار أن مصر، فضلاً عن كونها القطر الأكثر سكاناً والأكثر تأثيراً فى الوطن العربى، والأكثر رسوخا فى المجتمع المدنى ومؤسساته المعاصرة ، ولخاصية وجود السلطة المركزية فيها، فقد لعبت دوراً حيوياً فى هذه الأزمة، خاصة فى الاتجاه الذى رضيت به لنفسها .

* * *

(*) Problems de Linguisique genérable, Gallimard, Paris 1974.

أما المنهج الذى تلمسته هنا، فهو، يخرج عن القراءة التأملية النقدية، التى لاتلتزم بمنهج خاص أو بأسلوب معين، اللهم إلا الاستجابة لهذا الواقع والتعامل معه من الداخل ، أيضاً الإفادة من كل أدوات المعرفة فى هذا الاتجاه، فحاولت الإفادة من المنهج التاريخى ومنهج دراسة الحالة والمنهج المقارن ، وأفدت أكثر من علم اجتماع المعرفة .

وفى هذا الإطار الأخير – علم اجتماع المعرفة – بدأت المدخل النظرى لهذه الدراسة من حيث ملاحظة العلاقة بين الأبنية والمؤسسات السياسية ، ونسق القيم والتطور السائد فى المجتمع المصرى حينئذ، وخصصت بعد ذلك الفصول التالية للخطابات الثلاثة : الرسمى والإسلامى واليسارى ، فى الترتيب الأيديولوجى قبل أن نُخصص الفصل الأخير حول جماعات المصالح المثقفة .

* * *

بقيت ملاحظة أخرى فى هذا السياق ..

لقد عرفت هذه الأزمة منذ اليوم الأول لها – الثانى من أغسطس ١٩٩٠ – وانكببت طويلا على مصادر الأحداث العربية أو الغربية، وهذا يعنى أننى كنت أقرب إلى شاهد العيان أكثر من المؤرخ المدوِّن للأحداث أو – حتى – المحلل لها فى إطار زمنى لم يعرفه، ومع هذا، لم أعدم هنا تأثراً بالذات الكاتبة التى احترقت طويلاً بالصعود بين قمة الأمل والهبوط – فجأة– إلى قاع اليأس، والتى شهدت احتراق الحلم القومى وتبعثر المشروع الإسلامى الغائم .

ومع ذلك، فقد جهدت طويلاً أن أكون محايداً (وهل توجد الحيدة فى هذا العالم ؟) كى أفهم مايجري، وطيلة أشهر الأزمة كنت أسمع دائما صوت بيير بورديو يصيح فى أذنى : (مهما كانت ادعاءات الموضوعية، العلمية، فإنها ستظل جزئية فرعية، وبالتالى لحظة خاطئة، إن هى بقيت جاهلة أو متجاهلة وجهة النظر التى تنطلق منها، أى إن لم تأخذ المجموع كله بعين الاعتبار) .

ولذلك، فقد حاولت ماوسعنى الجهد أن أتحرر من ربقة نقص المعلومات وسيطرة الإعلام الغربي، وغياب الرؤية الواضحة ، ففى حين راجعت (كل) ماصدر عن الأزمة لأكثر من عام بعد نشوبها ، سعيت للالتقاء بكثير من المصادر الحية (المثقفين أنفسهم)، كما استطعت الحصول على عديد من المنشورات والبيانات السرية وغير السرية التى كانت تصدر إبان الأزمة، وأرفقت أهمها فى (ملاحق) فى نهاية الدراسة .

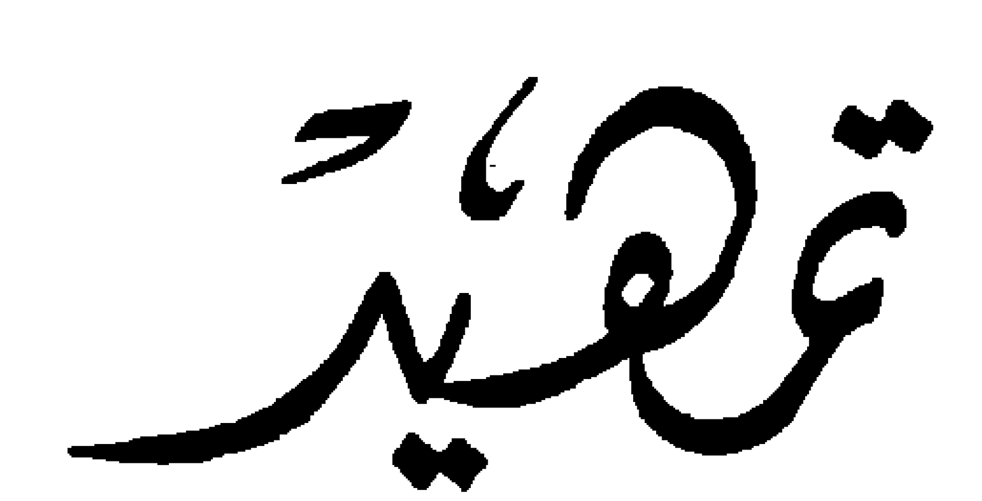
بقى أمر لا يجب إغفاله ، بل ربما كان من الأجدى البدء به ، وهو أن هذه الدراسة – التى بين أيدينا – كانت قد اكتملت بعد أزمة الخليج بعام ، ومع هذا ، فقد جهدت كثيراً لنشرها دون جدوى ، فالتحليل الذى يدمى ، والحقيقة التى كانت تسيل دماً حالا دون النشر أو أسهما فى هذه (المصادرة) غير المعلنة .. وقد تصادف أن التقيت بصاحب دار (فكر) الراحل طاهر عبدالحكيم – المثقف والمناضل الكبير – فى شتاء ١٩٩٤ وبعد طلب النص وقراءاته أبدى رغبة شديدة فى نشره ، وقد استفدت كثيراً من أفكاره ومحاوراته معى أثناء إقدامه على البدء فى كتابة النص على (الماكنتوش) توطأة لنشره ، غير أننى ما كنت أراجع البروفة الأولى حتى كان «طاهر» قد رحل مع رحيل الشتاء ، واعتذرت أرملته بأسى عن نشر الكتاب لتعثر الدار ، وقد أسدت معروفاً بدفع (الديسكات) إلىّ ، لأعاود ، من جديد ، دورة البحث عن ناشر يمتلك من الوعى والجسارة .

ومع عثورى على الناشر – بعد كل هذه السنوات – كان لدى يقين مطلق فى أن أزمة النشر كانت جزء من أزمة المناخ العام الذى لم يستفد بأزمة الخليج وتداعياتها حتى كدت أوقن ، وأنا أراجع المخطوطة للمرة الأخيرة ، أن خيبة أزمة الخليج قابلة للتكرار فى حياتنا كثيراً .

وبقى لدى أمل ، مع النشر ، أن أحاول – مع غيرى – أن أحول بيننا وبين الواقع الدامى مع مجىء القرن الحادى والعشرين .

وهو ما قصدته – وما تجشمته وأصررت عليه – من وراء نشر هذه الدراسة .

د . مصطفى عبدالغنى



١ - الإطار العام للدراسة :

يفترض علم اجتماع المعرفة وجود علاقة بين طرفين : الواقع الاجتماعى الاقتصادى، والواقع الثقافى الفكرى؛ فدراسة العلاقة بين الاثنين يقترب بنا أكثر من الواقع التاريخى الذى جرت فيه الأزمة .

وإذا كان الواقع الاقتصادى لامفر منه، فإن الواقع السياسى يتحول بفعل (الهيمنة) إلى أداة للسيطرة على الأمور، خاصة، إذا فهمنا (الهيمنة)، بمفهومها المعاصر، على أنها السياسة مضافاً إليها الثقافة، ومن هنا، لابد من الإشارة إلى الإطارات الثلاثة : الاقتصاد، السياسة، الثقافة، قبل أن نفرغ إلى ماتقدم لنا من أرضية مميزة وملامح دالة فى هذا الصدد.

- الإطار الاجتماعى والاقتصادى :

قبل أزمة الخليج الثانية بسنوات، عانى الاقتصاد العربى، والمصرى بالتبعية ، تراجعات كثيرة، فعلى المستوى العربى كانت مساهمة الصناعة التحويلية فى الإنتاج المحلى الإجمالى متدنية وراكدة، والقطاع الخارجى يتعرض لتقلبات حادة، ونسبة تغطية المستوردات بالصادرات غير صحية وفى تناقض، وشروط التبادل التجارى تميل إلى غير صالح العرب، والاحتياجات النقدية تذوب تدريجياً، والمديونية الخارجية تتضخم لدرجة تجاوزت الاقتصاديات العربية على خدمة أعبائها .

وإلى جانب ذلك كله، كانت ثمة تغييرات عالمية تسعى إلى تحديد الإطار الاقتصادى من قبل، وقد بدا أن توحيد أوروبا فى عام ١٩٩٢ فى سوق واحدة قد يؤثر فى الصادرات العربية إلى غرب أوروبا، خاصة، إذا عرفنا أن الجماعة الأوروبية كانت هى الشريك التجارى الأول للوطن العربى، كما أن حركة الاضطراب الحادة فى المعسكر الشرقى كان لابد أن تؤثر فى بعض الدول المشرقية ذات العلاقة الوثيقة بالاتحاد السوفيتى(١) .

---

(١) للمزيد انظر : مناقشات ودراسات المؤتمر السنوى الثانى الذى انعقد فى عمان - الاردن، بين ٢٧ - ٢٩ أيار / مايو ١٩٩١ ، أيضا : التقرير الاستراتيجى العربى ١٩٩٠ ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، جريدة الأهرام ، القاهرة .

لقد كان تراجع الأداء الاقتصادى والاجتماعى هو امتداد لسنوات سابقة، ويشير التقرير الاستراتيجى العربى إلى تباطؤ النمو الاقتصادى وتراجع الإنتاج السلعى ، وزادت الفجوة بين الإنتاج والاستهلاك مع نمو الناتج المحلى بمعدل يقل عن نمو الاستهلاك النهائى.. فإذا بنا نجد أنفسنا أمام تدهور اقتصادى واجتماعى مطّرد من تراكم نتاجات سداد الديون الخارجية وتفاقم عجز الميزان التجارى بسبب قصور الإنتاج السلعى، بل وتدهوره كما فى حالة القطن على سبيل المثال.

وقد انعكس التدهور الاقتصادى على التطور الاجتماعى.

فبينما زادت الضغوط التضخمية زادت معدلات البطالة فى مصر، وتؤكد لنا العديد من المصادر الرسمية أن نسبة البطالة وصلت فى الثمانينيات إلى أكثر من عشرة فى المائة من قوة العمل، وفى مرة أخرى إلى أربع عشرة فى المائة، وهذه البطالة ظلت فى اطّراد مستمر عقب أزمة الخليج نظراً للعودة الجماعية الإجبارية إلى مصر، إذ وصلت العمالة العائدة قبل الأزمة إلى ٥٥,٠ فى المائة من إجمالى الهجرة العائدة من العراق فقط، كما تم طرد المدرسين المصريين بأعداد كبيرة من اليمن والكويت والأردن مما زاد من سيل البطالة وآثارها السلبية، ويمكن تصور خطورة هذه الظاهرة– البطالة– إذا علمنا أن أعداداً كبيرة منها كانت من بين المتعلمين والمثقفين ، حتى إن دراسة عينة من العمالة العائدة عقب الأزمة مباشرة كانت تشير إلى أن نسبة تصل إلى٣٤,٠ فى المائة منها كانت من بين الحاصلين على مؤهل متوسط وجامعى، فضلاً عما يتمتع به المهاجر من أفراد هذه الفئة المثقفة من سمات عالية من الوعى والخبرة اكثر من الفئة التى ترفض – فى الأصل – الهجرة، فمن المعروف أنه يقبل على الهجرة أعداد ليست قليلة من الفنيين والعلميين ممّن يحملون خبرة عالية، ووعياً ذاتياً وقومياً قلّما يتوفر فى غيرهم.

ومن الملاحظ أن العامل الاقتصادى كان من أهم العوامل التى دفعت بالعائد إلى الرجوع إلى موطنه، وهى ظاهرة، تكتسب أهمية كبيرة حين هدد المهجرون المصريون فى العراق قبل الأزمة فى أرزاقهم وأرواحهم بعد انتهاء الحرب العراقية الإيرانية ، مما دفع بأعداد كبيرة للعودة إلى مصر، وهو ماينطبق على إجمال المهاجرين المصريين قبل أزمة الخليج الاخيرة إلى بقية الدول العربية.

وهذا الرجوع الاضطرارى لعدد كبير من المصريين، وقد عاينت بواعثه الحقيقية فى بغداد خريف ١٩٨٨(١)، أثّر كثيراً فى وعى هؤلاء، وخاصة، أنه كان يصحب الاعتداء على الأرواح اعتداء آخر على الممتلكات والأموال، ومن عاد منهم لم يعد إلاّ بفتات مما اكتسبوه هنـــاك.

لقد تجمعت أسباب كثيرة لتُحرك الغضب فى دخيلة المثقفين المصريين، كانت تتمثل فى سوء معاملة العمالة المصرية فى العراق، وقد انعكس ذلك فى ازدياد الحالة السيئة التى أُصيب بها الميزان التجارى بعد تلاشى تحويلات العمالة المصرية فى العراق والكويت، وخاصة، وأنه سبق ذلك كله – بدءاً من عام ١٩٨٦ – قرار الحكومة العراقية بخفض الحد الأقصى المسموح تحويله إلى مصر من أجور ومدخرات المصريين العاملين بالعراق، فضلاً عن خفض مستويات الأجور مع انتهاء الحرب العراقية الإيرانية، كذلك فإن العودة المفاجئة لعدد كبير من أولئك عقب الغزو سببت خسارة فادحة للاقتصاد المصرى (قدرت خسائر المصريين فى الكويت بنحو٤ مليارات دولار، والمصارف الكويتية ١٢ مليار دولار).

وإذا كان الأثر السلبى للعامل الاجتماعى والاقتصادى قد ظهر جلياً على عدد كبير من المتعلمين والمثقفين المصريين، فإن للصورة جانباً إيجابياً آخر أسهم فى تشكيل مواقف المثقفين وردود أفعالهم، فإذا كان المهاجر – مثقفاً أو متعلماً– قد عانى الضيق الاجتماعى والاقتصادى منذ نهاية الثمانينيات، فإن مثقفاً آخر، مهاجراً أيضا، إلى دول النفط، كان يعانى صنوفا من الكسب المالى وتعدد المناصب مما أثر– على الجانب الآخر – بشكل إيجابى، فإن الثراء الفاحش الذى عرفه البعض هناك لم يتأثر بالأزمة قبل أن تبدأ وبعد أن بدأت بالفعل.

وكما كان على هؤلاء المثقفين الذين استخدموا أقلامهم وحقائبهم المنتفخةلتكريس أنظمة دول البترول، كذلك، رهنوا هذه الأقلام وتلك الحقائب من أجل الدفاع عن العربى فى الكويت أو العراق ظالماً أو مظلوماً..

وكما شكل المظهر الأول تأثيراً ضاغطاً على الجماهير، وعدداً كبيراً من المتعلمين، شكل المظهر الآخر، تأثيراً ضاغطاً على مدى الولاء لهذه الأنظمة، فتكونت أنماط جديدة من المثقف (النفطى) أو المثقف (الموظف) كما سنصل إلى ذلك.

غير أن الهيمنة الخارجية لم تسهم وحدها فى التأثير فى المثقف، وإنما، أسهمت هيمنة داخلية أخرى فى هذا التأثير.

---

(١) فى محاولة لاسترضاء الكتاب والمثقفين حينئذ، دعانا السيد نقيب الصحفيين العراقيين بمبنى النقابة، وحاول الرد على أسئلة كثيرة حائرة، ممتصاً الكثير من الغضب البادى فى العيون والتعبير (مؤتمر المربد ١٩٨٨).

- الإطـار السياسى :

لقد اتخذت الهيمنة الرسمية داخل مصر شكل (الهيمنة) المباشرة.

ورغم أن التأثير الاقتصادى تم فى مرحلة معينة، فإن التأثير السياسى الداخلى، كان السمة العامة لطبيعة المجتمع المدنى، المركزى، فى مصر، إذ استطاع هذا النظام التحكم فى كثير من المؤثرات التى يسميها جرامشى (بالكتلة التاريخية)، إذ استطاعت الدولة الإفادة من مؤثرات عضوية كثيرة لتحكم (الهيمنة) hégemonio على المثقف، وفى هذا المجتمع السياسى الذى يلعب فيه هذا المثقف دوراً حيوياً لصالح النظام.

وعلى هذا النحو، سيكون علينا تناول (الهيمنة) فى إطارها السياسى، قبل أن نصل اليها فى إطارها الثقافى.

منذ بداية الغزو العراقى راح عدد من المثقفين الرسميين يكتبون تقريراً[1] ، ويرفعونه إلى من يهمه الأمر حول تحليل الغزو، ومؤداه أن القوة العراقية أدت إلى إخلال خطير فى منطقة الخليج، واقترح التقرير أن ذلك يتم بالميزان العسكرى عبر عدة طرق تكشف عن ضعف الأداء المصرى من الأزمة ، وفى الوقت نفسه من فرض سياسة الهيمنة الرسمية على المثقفين لاتخاذ موقف يتسق مع النظام الرسمى، ودعا التقرير إلى الاهتمام بدفع عدد كبير تحت مظلة النظام.

كان هذا هو موقف الخطاب الرسمى من المثقفين .

ومن المحقق أن موقف الخطاب الرسمى كان متوافقاً مع الغرب (الأمريكى) بما لايدع مجالاً لشك، وهو موقف ليس من الضرورة أن يكون تابعاً بشكل صريح للمخطط الأمريكى طيلة الأزمة، وإنما نابعاً من رغبة النظام الرسمى لتبنى وجهة النظر الغربية التى تسعى، فى الظاهر، الى التخوف من (توازن) القوى فى المنطقة، بينما، فى الباطن، تعمل لأهداف استراتيجية تمتد إلى الوراء كثيراً، وتعمل لهذا منذ زمن بعيد ببطء وإمهال ، والتقرير هنا يشير إلى سعى النظام المصرى حثيثاً إلى الاتجاهات التى تتنبأ مؤثرات كثيرة أنه آت، وهو مانستطيع معه أن نقرأ الفقرة الأخيرة فيه بمالايخلو من مغزى، تقول هذه الفقرة : تشجيع جميع الهيئات الحزبية والشعبية بما فيها المعارضة لإدانة الغزو بشكل أكثر حزماً مما تظهره القيادة المصرية.

---

(١) التقرير بعنوان (تقدير موقف حول الغزو العراقى للكويت)، بدون تاريخ (انظر الملحق رقم١) .

هذا كان فى بداية الأزمة .

وقد تحددت أساليب هذه (الهيمنة) أكثر فى الأشهر التالية، وهو مانجد له إشارة أكثر إيحاءاً فى الملحق الآخر الذى صدر عن مركز علمى رسمى (ملحق٢)[١]، وحضر لإعداده عـدد كبيـر من المثقفين والأكاديميين ، ومن شتى فروع الاقتصاد والعلوم الاقتصادية والسياسية فضلاً عن عدد كبير من المؤسسة العسكرية وخبراء المركز .

لقد بدت اللهجة الرسمية فى هذا التقرير أكثر تشدداً من سابقتها فى التقرير السابق، إلى درجة أن البعض تحدث عن مصلحة مصر فى التوافق (أو ركوب الموجة على حد تعبير البعض) صراحة مع النظام العالمى الجديد (كذا) .

وقد تأكدت فى هذا الاجتماع أساليب السلطة الرسمية من التكريس لإرسال قوات عسكرية مصرية للخليج واللحاق بالنظام الدولى بعد الأزمة، وبينما تحدث البعض عن التطور الديموقراطى جهد البعض الآخر لتأكيد أن البيئة الاقتصادية المصرية بصورتها الراهنة البيوقراطية غير قادرة تماماً على (انتهاز الفرص)، وقد انتهى هذا كله إلى نقطتين هامتين إحداهما : اقتصادى، دعم مصر اقتصاديا (هذا يعنى حرص الطبقة الحاكمة على مصالحها)، والأخرى: استغلال كل الوسائل للنفاذ إلى النخبة السياسية (تأكيد الخطاب السياسى) .

ولئن بدا أكثر من نمط للمثقف فى ذلك النقاش : الانتهازى، المتردد، المحافظ.. فقد كان النمط الرسمى (=موظف الدولة) أكثر مايميز هذا المثقف المنتمى للخطاب السائد تماماً .

أما وقد نجح الخطاب الرسمى فى استقطاب عدد كبير من المثقفين أيّا كانت قناعاتهم والمؤثرات الفاعلة فيها، فإن عدداً صغيراً آخر من هؤلاء بدأ فترة تأمل لما يجرى حوله وخاصة عقب الغزو الأمريكى للكويت والعراق، والدمار الذى حاق بالاثنين معاً، ومن ثم، فإن التأمل تحول مع تطور الحرب العاصفة إلى خط التراجع، وقد كان أغلبهم من الطلبة – بوجه خاص – مما تنبه إليه النظام خلال أحد مثقفيه – سعد الدين ابراهيم – فبدأ فى تكثيف الجرعة وتغيير ألوانها، وراح مثقفو النظام –ويعد سعد الدين ابراهيم مثالاً صادقاً لهم – يدعون إلى تعديل سريع للإعلام المصرى الرسمى المرئى والمقروء لاحتواء هذه المشاعر[٢] .

---

(١) أيضا : بعنوان (تقرير خاص – المصالح المصرية فى الخليج، ويبدو أن الغزو الامريكى بدأ بعد ذلك بيوم واحد، انظر (الملحق رقم ٢) .

(٢) انظر : تقرير مركز ابن خلدون من اعداد د. سعد الدين ابراهيم فى ١٩٩١/٢/٢٨ بعنوان (أفكار سريعة حول المسائل العاجلة مع نهاية المرحلة الساخنة فى أزمة الخليج)، وهو تقرير قصد به تدارك الفترة الأخيرة من الحرب وانعكاساتها السلبية على المثقفين .

وعلى هذا النحو، بادرت الدولة بنصيحة من مثقفيها أنفسهم إلى تشديد قبضتها على مؤسساتها الإعلامية والثقافية، خاصة، لئلا يحول الدمار الذى حاق بالعراق دون خسارة معركة الرأى العام المثقف ، فى الداخل، وهو ماأسهب حوله هذا التقرير الذى أعده وتقدم به للنظام أحد المثقفين .

وهو ما نجده تفصيلاً أكثر له فى الإطار الثقافى .

- الإطار الثقافى :

كان الإطار الثقافى يشى بعديد من الوسائط التى أسهمت كثيراً فى هذا التناقض الذى صيغت به الخطابات السياسية.

ولم يكن هذا الواقع منبت الصلة بما كان من طبيعة المجتمع البطريركى الذى كانت تتداخل فيه خيوط الأبوة والقسوة فى آن معا، وتسود فيه تماما سلطة الأب (البطريرك)[١]، وتبعاً لذلك، فإن العلاقات القائمة بين الحاكم والمحكوم وبين الأب والابن هى علاقة عمودية ، ففى كلتا الحالتين تقف إرادة الأب على أنها الإرادة المطلقة، وتتجسد فى المجتمع والعائلة إجماعاً مفروضاً يرتكز إلى العادة والإكراه[٢].

وعلى ذلك، تظل الهيمنة أحد مظاهر السلطة البطريركية.

وقد كانت هذه الهيمنة، الثقافية، تصيغ المواقف السياسية وتتأثر بها، فأغلب المثقفين المصريين كانوا إبان الحرب العراقية – الإيرانية، ينتمون إلى النظام السائد، حيث تؤيد العراق تأييداً خالصاً، وقد كان أهم مظاهر هذا الموقف هو ماتردد فيما بعد من شبهة اختراق للمثقف والصحفى المصرى وصلت إلى حد اليقين[٣]، وهو اختراق ماكان ليتم لو لم تكن السلطة المركزية فى مصر عارفة به.

Bossuet, Politique Tireé des propres paroles de l'ecriturs Sainte, le pouroir. Science et philosophie politiques (Paris : Editions Mas hard) . (١)

(٢) *هشام شرابى، النظام الأبوى وأشكالية تخالف المجتمع العربى، مركز دراسات الوحدة العربية، نقلة للعربية محمود شريح ط/١يناير ١٩٩٢ ص٢٤ ، ٢٥ .*

(٣) *ظلت قضية اختراق المؤسسات الصحفية حديث عدد كبير من الصحفيين أنفسهم عقب الغزو الأمريكى مباشرة، وقد خصصت لها أبواب رئيسية فى بعض المجلات (كمجلة الصحفيين، عدد يناير ١٩٩١)، كما شاركت فيه العديد من الصحف القومية والمعارضة أيضا .*

وقد ظل هذا هو موقف العديد من المثقفين المصريين من تأييد العراق، وتدبيج القصائد، والحديث عن (قادسية صدام)، والزيارات المتوالية والتصريحات المستمرة .. ومإلى ذلك، حتى إذا ما انتهت أزمة الخليج الأولى ضد إيران وبدأت الثانية ضد الكويت، واستبان الموقف الرسمي، حتى تحول المثقفون بمقدار ١٨٠ درجة من النظام العراقى، وتحول المثقف المؤيد إلى معارض .

أما فى الداخل، فإن حدة الهيمنة لم تهدأ منذ تولى الرئيس حسنى مبارك فى أكتوبر ١٩٨١، إذ كان هناك من الأسباب مايجعل الرئيس الجديد لا يخالف سياسة سلفه بالنسبة للمثقفين بوجه خاص، الإفادة من أسلوب معالجة العلاقة بين المثقف والسلطة التى كان الرئيس السابق ضحية عدم الفهم لها بالقدر الكافى[1]، إذا استمرت السياسة التى كانت تسعى (للهيمنة) وتستفيد بها مع تغييرات تتلائم مع العهد الجديد لقد استمر الدستور الذى سبق . وأن عدله السادات من قبل، كما استمر الرئيس الجديد زعيما للحزب الوطنى – كسلفه –، كما استمر برلمان عام ١٩٧٩ حتى آخر مدة له بالإضافة إلى استمرار العمل بقانون الطوارىء وتشجيع سياسة وزير الداخلية حينئذ لاستخدام العنف بحساب .

ومظاهر سياسة الهيمنة فى الواقع الثقافى أكثر من أن تحصى.

تقوم الدولة بالدور المركزى فى الثقافة، بإعادة إنتاجها بما لايفصل بين السياسة الثقافية والسياسة الإعلامية، فتشكلت بذلك العديد من المؤسسات الثقافية وكافة الأنشطة الثقافية، وهو ما انعكس فى عشرات بل مئات الندوات والمؤتمرات التى عقدت لتبرز – أساسا – وجهة نظر الدولة، ولابأس من ترك السيطرة على ندوات لوجهات النظر المعارضة فيما يشبه (حرب الندوات) لتأكيد وجهة النظام السائد.

وقد تمكنت البيروقراطية (الموظفة) من أن تجعل الانتماء إلى ندوات وزارة الثقافة– على سبيل المثال – هدفا فى حد ذاته .

– وبهذا المنطق امتد تأثير النظام إلى الجمعيات الأدبية التى تتبع – أساساً – لوزارة الشئون الاجتماعية فى حين توضع تحت تصرف الأجهزة الأمنية، ويمكن أن نتصور خطورة هذه الجمعيات حين نذكر أنها وصلت فى آخر إحصاء لها – الى (١٤٦٥٤) جمعية

(١) يمكن رصد إرهاصات هذا التغير عشية رحيل السادات ، إذ صرح أكثر من شخص سياسى (وفى مقدمتهم وليم كوانت) بضرورة إعادة النظر فى سياسة الدولة إزاء المثقفين (انظر : اذاعة صوت أميركا، بالإنجليزية، ٦أكتوبر ١٩٨١) أيضا : تفصيل سياسة مبارك فى تقارير استراتيجية بالاهرام .

ولعبت إحداها - جمعية تضامن المرأة العربية برئاسة د.نوال السعداوى- دوراً كبيراً ضد توجه النظام السياسى ، مما أسفر عنه حل هذه الجمعية وتسليم أوراقها وممتلكاتها إلى جمعية أخرى أسلس قياداً وأقل عناداً(١) .

- وبهذا المنطق أيضاً، يمكن أن نتعرف على عديد من المؤسسات الثقافية الأخرى، التى كان بقاؤها برضاء النظام السائد عنها، فاتحاد الكتاب الذى راح يدين انتفاضة ١٩٨٧ فى مصر لم نسمع صوته فى الأزمة، فرئيسه يرشح فى كل دورة، ويعين وكيلاً لمجلس الشورى، وأعضاؤه يقيمون الأمسيات الشعبية التى تدور فيها كاسات المديح للنظام والتأييد الصريح له(٢)، وشبح الديموقراطية مختف لايظهر فى مكاتبه الكثيرة، فى حين يلقى أكثر من مثقف فى السجون من أمثال عفيفى مطر وحمدين صباحى ولم نسمع له قولاً عن حرية الكاتب وحق الإنسان، بل وعلى العكس، فإنه يدين أى مثقف يكون له رأى معارض للسائد.

- أما المجلس الأعلى للثقافة فقد أصبح الجهة المرجعية الوحيدة لاتحاد الكتاب، وأصبح بممثليه من الكتاب أو الصحافيين وكأنه لايعنيه مايحدث حوله من أحداث ثقافية أو سياسة تهم الإنسان المثقف.

- وأصبح المجلس الأعلى للصحافة المرجع الوحيد لنقابة الصحفيين وقد اتخذ الموقف السائد على المستوى الرسمى .

وأصبح من فيه من بين (موظفى) الدولة ومثقفيها .

- وحين نصل إلى المجالس القومية المتخصصة، فإننا لانجد لها مكانة مميزة فى الحياة العامة، فلا هى المجلس الأعلى للصحافة ولا هى المجلس الأعلى للثقافة ، وأقرب ماتكون إلى أحد أجهزة الدولة الرسمية.

---

(١) كان المسئول الأول عن ذلك موقف رئيسة الجمعية د. نوال السعداوى، التى اتخذت منذ بداية الازمة موقفا مناهضا للموقف السائد، وقد شمل القرار الذى صدر فى ١٥ يونيو ١٩٩١ تعليمات بتصفية هذه الجمعية تمهيدا لنقل أموالها وأملاكها للجمعية التى يطلق عليها (نساء الإسلام) بحجة مخالفات مالية وإدارية، وقد أثار ذلك ردود فعل فى حينه دون جدوى.

(٢) انظر، على سبيل المثال، أهرام ١٤ أكتوبر ١٩٩٠ لنرى صورة حية من صور هذا الاتحاد حيث تدور الأمسيات الشعرية حول شجب العدوان العراقى دون الإشارة، من بعيد، للعدوان الغربى.. والصحف تزخر فى هذه الفترة بمثل هذه الأمسيات .

لقد استبدل بالمثقفين الواعين مثقفون موالون للنظام فى هذه المؤسسات، وهذه الفئة الرسمية يطلق عليها البعض نخبة تكنوقراطية من الموظفين : أحد أعلى السدود فى وجه الديموقراطية الثقافية[1]، فلا يشاركون فى أمسيات أو مؤتمرات، اللهم إلا إذا كان ذلك يكرس للنظام حسب توجهاته.

- أما وسائل الإعلام المقروء منها والمرئى، فقد أسهمت - كما سنرى فى الفصل الأول - فى تأكيد (الهيمنة) بكل صورها، لقد تحول جهاز التليفزيون وكذلك محطات الإذاعات المختلفة إلى برامج مكثفة وموجهة، وتقرير موجز للأنباء كل ربع ساعة، وبذل جهد يتمثل فى رسائل للمراسلين يبدو فى ظاهره محايداً، وفى حقيقته منحازاً، بل ويقرر اتحاد الإذاعة والتليفزيون الحصول على إنتاج الشبكات التليفزيونية العالمية وتجميع مادتها الإخبارية الموجهة ويعرضها كأنها (مادة) خام، فى حين أنه يكرس لفعل المارينز الأمريكى كما رأينا فى شبكة سى إن إن التى سكبت فى أول أيام العدوان على الشعب العربى فى العراق كل مايخدم المخططات الغربية فى إطارها الامبريالى الحديث .

- أما الصحف، فإن التأثير الرسمى فيها امتد من التأثير المباشر (التعليمات والأوامر) إلى التأثير المادى التى تهدد به بعض صحف المعارضة أو - حتى - الصحفيين العاملين بوكالات الأنباء أو ممَّن يرى رأياً مغايراً فى الصحف الرسمية[2]، فى حين أن الصحف التى كانت تمثل الرأى الآخر لم يكن ليسمح لها قط إلا بالحرية الورقية والعزلة عن مراكز الإعلام والتأثير .

وعلى ذلك، فقد صيغت أفكار الآخرين وآراءهم فى إطار (الخطاب الرسمى)، وهو خطاب كان تابعاً لسياسة الحزب الوطنى - الحاكم - وقراراته الفوقية دائما.

وهو خطاب كان لابد وأن يتفق ويفترق مع الخطابات الأخرى المعاصرة له، حيث يمكن تصنيف المثقفين فى خطابات متباينة متصارعة .

* * *

---

(١) مجلة دراسات عربية، بيروت، العدد ١٢ أكتوبر ١٩٩٢ ص١٢

(٢) على المستوى الشخصى، لم أستطع التعبير بشكل مباشر أو غير مباشر فى أزمة الخليج برأي يغاير الرأى الرسمى، وهو ماحدث فى كل المجالات الثقافية والاجتماعية ، فضلاً عن أن الكتابة السياسية لاتكون إلا لمن يكتب فى هذا اللون، وممن يعرف مقدمًا - فى الغالب - توجهاته الرسمية .

٢ ـ ثلاثة مثقفين وثلاثة خطابات :

يرتبط موقف المثقف المصرى بالاتجاه الأيديولوچى فى الظاهر، فى حين برهنت أزمة الخليج، على أن المحرك الحقيقى له كان الولاء الذاتى: القطرى أو المادى.

وتحول المثقف من نمط محدد عبر تاريخ طويل إلى نمط آخر مغايراً، تحت نِّير (الهيمنة)، وبإيعاز منها فى الغالب، فتنازل المثقف عن الدور الإصلاحى أو النضالى الخلاق الذى كان يجب أن يقوم به .

وعبوراً فوق أدوار كثيرة للمثقف العربى منذ فجر النهضة العربى[١]، يمكن القول أن هذا الدور تراجع كثيراً عن ذى قبل، ففى حين كان لهذا المثقف دوره الذى لايمكن إنكاره وحتى ستينيات هذا القرن، فإنه بعد أن لعب دوراً كبيراً فى تحرر بلاده من ربقة المستعمر، ووعيه الاجتماعى الفائق الذى كان يقترن به بالفعل، تقلص الآن هذا الدور، وخاصة، بعد أن استبدل بالمثقف الناقد المثقف الذى ينتمى طوراً لفئة التكنوقراط وطوراً آخر للمثقف الذى مثَّل الآن دور عالم الدين أو عبر عنه، فى حين ظل الجانب الآخر يمثله السلطة، وكان معيار اللقاء بين الطرفين: الحاكم والمثقف دائماً هو درجة الولاء[٢].

وعلى ذلك تحدد الدور الذى سمح به للمثقف .

وثمة عامل آخر يمكن تحديد دور المثقف به، وهو عامل يرتبط بالفترة التالية أى، الحقبة التى تتحدد منذ بدايات السبعينيات حتى الآن.. إذ لاحظنا الدخل الطارئ الذى راح يهطل على عدد كبير من المثقفين إثر ظروف سياسية أو ثقافية معينة، ومن هنا، ارتبط انتماء المثقف إلى هذا الدخل الجديد.

---

(١) توجد تعريفات كثيرة للمثقف وللدور الذى يجب القيام به، وبشكل إجمالى يعرف المثقفون على أنهم "أولئك المنتجون فى ميادين العلم أو التدريس أو الفلسفة أو الأدب أو الفن" بحيث يترافق مع العلم الوعى ودرجة التعبير، أنظر فى هذا:

Internaional Encyclopaedia of The social scienes. Art, Intellectuals vol.7.U.S.A.1968-137,P 404.

(٢) حول العلاقة بين المثقف والسلطة أنظر دراستنا لنيل درجة الدكتوراه بعنوان :

- المثقفون المصريون ودورهم فى السياسة المصرية١٩٤٥ - ١٩٧٠ وهى نشرت تحت عنوان (عبد الناصر والمثقفون)، وصدرت عن دار سعاد الصباح ، القاهرة ١٩٩٣ ، وقد نوقشت بجامعة عين شمس، كلية البنات عام ١٩٨٩، ويمكن مراجعة - بوجه خاص - الفصل السادس بعنوان (أهل الثقة وأهل الخبرة)..

أيضا، حول تقلص دور المثقفين يمكن العودة للدراسة الهامة فى هذا الصدد بعنوان :

Candio mendes: Contestation et developpement en amérique latine, puf 1979.

وهنا يتحدد أكثر الأثر الاجتماعى فى موقف المثقف.

فقد يكون المثقف ينتمى – اجتماعيا – إلى الطبقة الدنيا أو الوسطى بدخله (الدورى) المرتبط بالمؤسسات الثقافية أو الصحافية أو النيابية، غير أنه فى وجود دخل طارئ آخر، يقوم على اهتباله(*) للظروف الجديدة من مصادر شتى، يتحول من الطبقة الأولى إلى الطبقة الأخرى، من طبقة إلى طبقة، ومن ثمّ، يتحول الموقف من انتماء اجتماعى إلى آخر مغاير، مما ينعكس بالضرورة على الممارسة الفكرية والسياسية.

إن هذه الملاحظة يمكن التأكد منها لدى مواقف الكثيرين فى أزمة الخليج ، وفى تفرع الخطابات وتحولها إلى أخرى مغايرة لها.

وإذن، نحن أمام طبقة، أو فئة تتكون من طبقات، لاتنتمى بالضرورة إلى هذه الفئة التى قامت على أكتافها ثورة ١٩١٩ فى مصر، ولا التغييرات التى أحدثتها ثورة ١٩٥٢ طيلة الخمسينيات فى الوطن العربى كله، نحن أمام طبقة جديدة أنعكس عليها انفتاح السبعينيات وموسم الهجرة إلى الخليج، وفرص الإفادة من عديد من الأنظمة العربية (البعثية أو الأيديولوچية.. إلخ) التى كانت تستخدم سياسة الإغداق غير المحدود تمهيداً لتحقيق أهداف معلنة أو خفية.

لقد شخص مثقف هذه الحقبة الواقع العربى المتردى.

ويمكن أن نوافق البعض[1] على أن عدداً من شرائح هذه الطبقة الجديدة تأثرت – بعد ظروف الحقبة النفطية والانفتاح المطلق – بالواقع الجديد، وتحددت المواقف من هذا المنظور. لقد وجدت هذه الفئة نفسها مرة أمام الزخم البترولى والفرص المتاحة للإثراء، ومرة أخرى، مع انحسار هذه الفترة، مع تكلفة ارتفاع الدروس الخصوصية، ونفقات التعليم للأبناء، وارتفاع تكاليف البنزين وتكلفة المواصلات وارتفاع أسعار وشرائح استهلاك الكهرباء.. الخ، فاضطر عدد كبير من أبناء هذه الطبقة إلى تقديم تنازلات كثيرة، مرة مع ارتفاع المد التراكمى للثروة إلى أقصاه، ومرة مع انحسار فرص الحياة الكريمة إلى أقصاها، فاضطر المثقف – فى الحالتين – أن يقدم الكثير ليحتفظ ببعض أحلامه التى سعى إليها قبل أن يتحول الحلم، بفعل الاستيقاظ المفاجئ – إلى كابوس .

(*) « اهْتَبلَ » : أى اغتنم الفرصة ، انظر المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ج ٢ القاهرة ١٩٦١ . أيضًا : لسان العرب لابن منظور ، بيروت ١٩٥٦ .

(١) الهلال القاهرية، عدد فبراير ١٩٩٢، مقالة د. محمود عبد الفضيل بعنوان (الطبقة الوسطى وأزمة المجتمع المصرى).

وهنا يمكن تسجيل الملاحظة التى تؤكد نكوص الطبقة المتوسطة عن دورها الوطنى، وهو مايسجله شاهد معاصر حين يصف المثقفين بأنهم تحولوا الى مجرد سماسرة فكريين(١)

لقد كان ذلك موقف أغلب المثقفين المصريين عشية أزمة الخليج.

ولايمكن تحليل الخطاب العربى فى مصر دون أن نشير إلى ثلاثة أنماط رئيسية: أحدها يشير إلى الخطاب السائد، والثانى والثالث إلى الخطابين اليسارى والإسلامى.

وهذه الإشارة تستوجب منا تحديد (النمط) فى البِنْية الزمنية بقصد فهمه وتلمس حركته عبر تراكم ثلاث كيفيات أساسية.

- مثقف الدولة :

يستمد هذا الخطاب أساساً من الحكومة المركزية التى يمتزج فيها الحاكم بوظيفته، أى، أنه، فى حين يصبح الحاكم رمزاً للدولة تصبح الوظيفة الأداة التى يمارس بها أدواته، فيصبح الحكم فكرة وجهازاً، وفى التطور الزمنى عبر تاريخ مصر الذى يتسم بالمركزية يمثل أداة للتكامل الإيكولوجى بين البيئة والانسان.

إن هذا الحاكم كان اسمه قديماً (الفرعون)، ومالبث مع تطور الزمن والتعرف على الغرب أن تحول فى بداية تاريخ مصر الحديث إلى (ولى النعم)، فراح، محمد على، يضع جرثومة المثقفين حين أرسلهم للمرة الأولى إلى الغرب فى بعثات.

ولأن الحاكم هو الذى أرسل المثقف، فقد أصبح رفاعة الطهطاوى - رغم تنوُّره - موظف الدولة والمعبر عن طموحها، وهذه التبعية ميزت نمط المثقف المصرى طيلة الفترة الليبرالية حتى ثورة ١٩٥٢ ومروراً بالخمسينيات حتى الثمانينيات حيث وجد نفسه تابعا للسلطة المركزية آكلا خبزها، محاربا بسيفها .

كان هذا هو المثقف الذى وجد نفسه فى نهاية عام ١٩٩١ أمام صورة من صور ممارسة السلطة المركزية فانفردت الدولة بتعديل القوانين الانتخابية وإصدارهادون إفساح المجال لمناقشتها .

لم يعد المثقف هنا أسيراً لشهوة (الإصلاح) كما رددت أدبيات الغرب، ولامفكراً يسعى إلى التغيير فى بلاط الأمير فى المشرق أو المغرب؛ وإنما تحول إلى نموذج من نماذج

(١) *الهلال*، يناير ١٩٩٢، *المصدر السابق*.

الفرعون قديماً (كاهناً) لايسعه غير أن يتقبل مايطلب منه صاغرا، وهى حالة عبر عنها أحد المثقفين المعاصرين قائلاً أصبح المثقف هامشيا بلا دور.. فاذا لم تكن الدولة أو إحدى مجموعات الضغط هى سنده.. فإن تأثيره يتضاءل إلى درجة التلاشى.. أما إذا تنازل عن استقلاليته، فإنه يتحرك فى المدار الذى يتحدد له .

وهذا الرمز هو الذى يختصره تاريخ مصر المركزى منذ أقدم العصور.

ويجد أحدث نموذج له فى مثقف الحزب الوطنى وحزب الوفد.. إلى غير ذلك ممَّن يقع تحت تأثير السلطة المركزية ويعمل لها .

- رجل الدين :

وإذا كان المثقف الرسمى قد عرف فى أحزاب الدولة ومؤسساتها السياسية والثقافية منذ ماقبل التاريخ؛ فإننا نستطيع رصد بدايات المثقف الإسلامى فى هذا الخط المتصل الذى يبدأ فى مصر منذ عرفت نهر النيل وأدوات الرى؛ الفترة التى تم فيها فتح مصر، ومن هنا، امتزج الكاهن بالشيخ فأثمر المثقف: رجل الدين/الرمز.

هذا المثقف انتمى إلى التيار الإسلامى وراح يمتح منه حين تركز حديثه حول الموقف المعارض، وهو موقف يمكن رصده فى العصر الحديث لدى جماعة الإخوان المسلمين فى عشرينات هذا القرن، وحزب العمل فى آخر تطور معاصر له عام ١٩٨٧، حين تحول نهائيا من الفكر الاشتراكى الى الفكر الإسلامى، كما ميز هذا التيار عديد من الشخصيات المستنيرة أو المستقلة .

وقد انتهت قناعات هذا التيار فى السبعينيات إلى التخلى عن العنف فى علاقته بالنظام إلى التحول إلى اللعبة الديموقراطية للاقتراب من السلطة، فإذا بنا أمام نمط إسلامى يرتدى مسوح الشيخ، ويحاول أن يلعب دوراً نيابياً عبر أدوات السلطة بعد أن بدأ أنور السادات فى السبعينيات تشكيل المنابر لزعم وجود تعددية .

وقد دخل بعض رموز هذا التيار فى الخطاب الرسمى إبان أزمة الخليج، غير أن أغلب رموزه عادت لإدانة النظام العراقى، وجميع الرموز اشتركت فى إدانة الغزو الأمريكى ورفض التواجد المصرى فى خارج مصر .

لقد تأرجح رجل الدين فى موقفه، لكنه عبّر فى هذا الموقف عن (حالة) الاضطراب التى وجد المثقف نفسه فيها، فأصبح تشخيصاً لها .

وهو مانقترب معه إلى النمط الثالث .

- رجل الأيديولوجية :

ورغم أن هذا النمط ينتمى الى الفترة الليبرالية فى التاريخ المصرى (النصف الأول من هذا القرن)، فإن جذور فكره تنتمى إلى أبعد من ذلك فى التاريخ المصرى، حيث يمكن ملاحظة آثاره فى هذا الخط المتّصل للتاريخ ، حيث يصعد من آن لآخر من يدعو إلى العدالة الاجتماعية ويشير إلى الحرية وحقوق الانسان .

والأمر المؤكد عند هذا النمط، أنه لم يستطع أن يتصدى للسلطة أو يكون نداً لها قط، ومن ثمّ، فإنه مثّل - لاسيما فى أزمة الخليج - عرضاً للأزمة وليس طرفاً فاعلاً فيها.

لقد مثل هذا الخطاب فى تياره العريض قوى اليسار، وراحت ترفده بشكل مستمر قوى المثقفين الماركسيين والقوميين المنتمين إلى الفكر الناصرى، فضلاً عن عديد من المثقفين المستقلين .

الفكر اليسارى، كالإسلامى، يمتد بجذوره الاجتماعية إلى بعيد، وكالإسلامى يعبر عن مواجهة الطغيان النابع من طبيعة مصر المركزية والحكم المطلق .

لقد أصيب الخطاب اليسارى بضربات موجعة، لكنه كان أكثر من غيره وعياً بضرورة النهوض ثانياً والبدء من جديد .

* * *

يلاحظ على هذه الخطابات الثلاثة - الرسمى والإسلامى واليسارى - أنها تعبر، جميعاً، عن ثلاث كيفيات زمنية متوالية، وثلاث حركات فاعلة فى تنويعة التاريخ المصرى على مدى عصوره.

وهى تعبر فى تعاصرها وتداخلها الآن عن الموقف المتجانس إزاء الأزمة .

غير أنه بإعادة النظر إليها، نلحظ، أن الخطاب الأول، يمكن أن يصبغ حركة الخطابات الثلاثة عبر التاريخ المصرى كله؛ فإذا كان النمط القديم يتمثل فى الكاهن فهو يتمثل طيلة هذا التاريخ فى الكاتب والمثقف، والثلاثة - الكاهن، الكاتب، المثقف - يسهل رصد أدوارهم فى علاقتهم بالسلطة المركزية.

سلطة الطاغية المستبد .

لقد وقف المثقف/ الرمز فى مواجهة الحاكم/ الطاغية

أو وقف إلى جانبه.

غير أن الملاحظة التى لايمكن الفرار منها فى تفسير عبقرية المكان فى تاريخ مصر أن الطغيان أو الاستبداد أو البطش أحياناً غير الإنسانى دائماً هـو نغـمة أساسية Leitmotif فى هذا التاريخ[١]، وهو ماأسهمت فيه الحركة الجدلية بين المثقف والسلطة فى مصر بصبغة خاصة.

لقد اضطر المثقف أن يلعب دوره دائما فى ظل الحاكم أو فى مواجهته، غير أنه، فى جميع الحالات، لم يستطع تجاهله، وقد نمْا دوره وتطور فى تلك الخاصية .

وهو دور اقـتـرب به - أدرك أو لم يدرك - من دور عـمـيل السلطة أو مـوظف الدولة البيروقراطى المطيع لها .

وعلى هذا النحو، يمكن تحليل الخطابات العربية فى مـصـر فى ضوء السلطة المركزية وتحت مظلتها .

وهو ماسنقترب منه أكثر فى هذه الدراسة .

* * *

(١) جمال حمدان ، شخصية مصر دراسة في عبقرية المكان (خمسة أجزاء) . وانظر : بوجه خاص الجزء الثاني منها ، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٨١/٩ ص ٥٥٤ ، ٥٨٠ . أيضًا ، انظر : كتابنا : طه حسين وثورة يوليو ، دار التراث الإسلامي ، القاهرة ١٩٨٩ .

أولاً :

الخطـــاب الرســـمى

الخطاب الرسمى هنا، هو الخطاب الذى يمثله، معرفياً، المثقفون، وسياسياً، السلطة المركزية: الدولة أو النظام.

وكما رأينا ؛ فإن الدولة سعت دائما للسيطرة على مثقفيها العضويين، كما سعت إلى استقطاب عدد آخر ممّن لاينتمون إلى أحزابها ومؤسساتها بما يتفق مع أهداف النظام للتعبير عن الأزمة تحت مظلة النظام ولصالحه.

وقد كانت وسيلة الدولة فى ذلك كله سياسة (الهيمنة).

لقد امتدت هذه السياسة إلى كل شىء: الصحف والمجلات والخطب الدينية والندوات والإعلام المقروء أو المرئى، فقد استخدم الخطاب الرسمى كل أدواته التى وجد منها استجابة سريعة حتى فى المناطق النائية، وقد نجحت هذه السياسة إلى حد فاق ماكان يتوقعه النظام نفسه إلى درجة أنه فى الفترة الأولى من الغزو العراقى للكويت لاحظ البعض حماس المثقفين وتطرفهم إذ كانت تدق طبول الحرب بشكل يدعو للدهشة (١).

(١) عبد الستار الطويلة، *أزمة الخليج حرب أم سلام*، مكتبة مدبولى ١٩٩١ . ص. ٣٠، *وقد كان الكتاب فى الأصل عدة مقالات كتبت ونشرت إبان الأزمة فى مرحلتها الأولى بوجه خاص .*

ولكى نفهم تأثير السلطة المركزية وأهميتها نضرب مثالاً واحداً هنا من وسائل الإعلام. لقد كان موقف مصر الرسمى إدانة العراق وعدم الاعتراف بقرار الضم الذى أعلنه العراق، وإرسال قوات عسكرية إلى السعودية ودول الخليج، وهو الموقف الذى عبر عنه وكرس له مؤتمر القمة العربى الذى عقد بمصر ولمّا يمض أسبوع على الغزو، وقد تردد هذا الموقف خلال البرامج ذات المضمون، خاصة، وقد لوحظ أن البرامج الدينية التى كانت تؤكد هذا قد زادت بنسبة ٢٨,٣٦ ٪ عام ١٩٩٠، كما زادت ساعات الإرسال، وزاد التركيز فيها خاصة على هذا الخطاب الرسمى، كذلك اعِدت القناة الاولى، على اعتبار أنها الخدمة الرئيسية القوية التى تغطى كل أنحاء البلاد، وتستحوذ على الجانب الأكبر من إجمالى البرامج الدينية التى وصلت الى ٤٦,٤٠ ٪ تليها القناة الثانية ٢٦,٩٠/ ثم القناة الرابعة ١٣,٤٧/ والقناة الثالثة ١٢,٢٣/(١).

وعلى ذلك راح الشيخ الشعراوى يحدثنا بشكل مُطَّرد ومباشر عن الخط الرسمى للدولة، وشاركه بدرجات رموز المؤسسة الدينية: كشيخ الأزهر ووزير الأوقاف.. إلخ .

وقد سارت على ذلك برامج الإذاعة التى كانت تخصص ١٨,٦ ٪(٢) من إرسالها الإذاعى للبرامج الدينية، إذ يلاحظ أن البرامج الدينية الموجهة لم تقتصر على شبكة دون شبكة، بل تسربت إلى شبكة القرآن الكريم بالقدر الذى تسربت به إلى شبكة المحليات أو صوت العرب.. إلى غير ذلك.

وقد زاد تركيز الخطاب الرسمى خاصة على جهاز التليفزيون، إذ زاد من تكثيف حضور المثقفين الرسميين، وتحول المذيعون، ممَّن لهم ميول تمثيلية - كأحمد سمير - وبكل طاقاتهم، إلى تأييد الخطاب الرسمى والبرهنة على صحته، بالقدر الذى كان يظهر فيه الكثير من جنرالات المقاهى أو سياسيى الدولة ودعائييها.

وفى المقابل، بذل جهد كبير للحيلولة دون إبراز المثقف المعارض أو المحايد من الخطابات الأخرى، وقد كانت الأمثلة الصارخة فى ذلك - فضلاً عن أجهزة الإعلام - ماحدث فى معرض الكتاب عام ١٩٩١ - يناير - وفى اللقاء الدورى بين الرئيس وكوكبة كبيرة من المثقفين، إذ لوحظ حجب أصوات فيليب جلاب ولطفى الخولى ومحمد سيد أحمد

---

(١) *الكتاب السنوى لاتحاد الإذاعة والتليفزيون* ، جمهورية مصر العربية ٨٩/١٩٩٠ص ١٣٣ .
(٢) *الكتاب السنوى، السابق* ص ٩١ .

دون حجب صورهم، فى حين تم إرسال الصوت والصورة فى جهاز التليفزيون لآخرين من أمثال موسى صبرى ويوسف إدريس وغيرهم [1].

واستكمالا لهذا، فإن النظام سعى لاستقطاب المثقفين الآخرين ممّن لم ينتموا صراحة له، إذ أصبح من السهل أن يقترب منه العديد من أولئك المثقفين بفعل القدرة على السيطرة والإفادة من كل الإمكانات التكنولوچية والإليكترونية المتاحة لجهاز الدولة، وقد كانت إمكانات السلطة، فيما يبدو، وراء استقطاب حزب سياسى بالكامل (حزب الوفد)، ولم يلبث أن دخل حظيرة الدولة العديد ممن يمكن أن يطلق عليهم (موظفو الدولة) بتعبير جرامشى، كما انحاز صراحة للنظام (المثقف النفطى) بشكل لم يكن ليحلم به ممثل النظام وجهازه.

ولأن الدولة تملك كل الوسائل المعرفية، فكان من الطبيعى أن تضمن ولاء عدد كبير آخر من المتعلمين ممّن يفتقدون - فى المقابل - الى الوعى الدقيق بما يحدث، والسعى لإدراك دقائق الأمور، وكان أبرز هؤلاء قاطبة الجامعيين، ففى دراسة أجريت فى جامعة المنيا - فى جنوب مصر - عقب حدوث الغزو العراقى لوحظ التباين الشاسع بين الواقع والوعى المزيف الذى أصبح سمة بعض الشرائح المتعلمة والمثقفة فى المجتمع المصرى[2]، وهو ماتم خلال دراسة أفكار لثلاث مجموعات فبينما أعرب ٤٠٪ من أفراد المجموعة الأولى عن عدم معرفتهم ببداية تلك الأزمة، نجد فى المقابل أن ٤٠٪ من أفراد المجموعة الثانية يرون أن تلك البداية إنما ترجع لأسباب اقتصادية، مع انهيار الاقتصاد العراقى بعد انتهاء الحرب مع إيران، ومن ثمّ، بدأ التفكير فى غزو المناطق المشبعة بالبترول لإنعاش هذا

(١) ويبدو أن سياسة (الهيمنة) تجد تجاوبا معها باطّراد كلما مر الزمن، إذ يلاحظ أنه، وبمتابعة مايقدم فى القنوات الإعلامية، ومايكرس فى المؤسسات الثقافية الرسمية قد أثر كثيرا فى ذلك، فمعرض الكتاب الدولى التالى لعام ١٩٩٢ - على سبيل المثال - شهد هذا التصور لسلطة الهيمنة، خاصة، إذا تواكب معها ضعف الوازع النفسى للمثقف ازاء السلطة، وعلى سبيل المثال، ففى اللقاء الذى عقد بين الرئيس والمثقفين فى المعرض الاخير، لوحظ أن أحد المثقفين اليساريين- عبد الستار الطويلة - يشيد بالرئيس علانية فى حالة المقارنة بما كان يحدث فى الجزائر حينئذ، ويشجع رأس النظام على الحد من الديموقراطية فيقول بالحرف الوحد مفسراً "لأن ديموقراطية. «الجهجهون» . تؤدى الى الفوضى وكنت أبعد نظراً - ياسيادة الرئيس - بالنسبة للديموقراطية "وفى حين يركز التليفزيون المصرى على هذا الحديث، يخصص لآخر قال مثل هذا - عبد العظيم رمضان - قرابة ثلاث دقائق فى حين لم يول الآخرين، ممن لم يؤثروا سياسة النفاق، بأى مساحة زمنية.. (انظر تفصيل محزن فى جريدة المصور ١٠ ايناير١٩٩١) .

(٢) المؤتمر العلمى لكلية آداب جامعة المنيا بمناسبة مرور عشرين عاما على إنشائها، ١٩٩٠، بحث (أزمة الخليج العربى/ دراسة استطلاعية فى المشاركة السياسية لدى بعض الشرائح التعليمية فى المجتمع المصرى) الدكتوران : فتحى مصطفى الشرقاوى ومحمد سمير عبد الفتاح، ص ١٣ ، ١٤ .

الاقتصاد المتدهور، أما المجموعة الثالثة فتكاد تتفق مع المجموعة الثانية فى تأكيدها هذا العامل الاقتصادى، علاوة على رؤيتهم التاريخية لبداية الوعى بالأزمة .

وعلى ذلك، كان من أهم النتائج التى توصل إليها البحث أنه من الخطأ الكبير أن تشخص وصفاً قائماً بناءً على محددات وشواهد فعلية دون إطالة النظر فى الأسباب التى أدت به إلى التفاقم من العلاج الوقائى بلغة علم النفس(١) .

ومايقال عن افتقاد الوعى ببدايات الأزمة يقال – بالتبعية – حول تحديد المواقف (افتقاد المعرفة أو تزييفها يولد رأيا شائها أو مخلوقا مشوها) فإذا بنا أمام مثقف يتخذ الخطاب الرسمى دون أن يقع تحت مؤثراته، ومن هؤلاء بعض من أحدث انشقاق مع الخطاب الرسمى بشكل مباشر من أمثال د. نعمان جمعة. أو بشكل غير مباشر ومن أبرزهم خالد محمد خالد، الذى كان معارضاً للغزو العراقى بشكل بدا أكثر تطرفاً من الخطاب الرسمى رغم أنه لم يقع تحت تأثيره .

وهو مايقال بالنسبة لعديد من المؤرخين المصريين وعدد ممن استقطبتهم الصحف الكويتية والخليجية .

ولابد من الإشارة هنا إلى ملاحظة عامة لاتخلو من دلالة، فمن الملاحظ أننا نجد المثقف المؤيد فى الحزب الوطنى وحزب الوفد فى آن واحد، كان يمتلك من البراعة بحيث يدافع عن القضية ونقيضها فى أكثر من منبر بدون تردد، وهو مايفسر وجود بعض المثقفين فى أكثر من خطاب .

فلنترك الإجمال إلى التفصيل .

١ – *الحزب الوطنى :*

ترتبط دراسة مثقف الحزب الوطنى بالخطاب الرسمى، فالحزب الوطنى هو حزب الدولة، وهو الوريث الشرعى للسلطة المركزية منذ أقدم العصور، ومن ثمّ، فإن نخبته الحاكمة هى النخبة الرسمية وخطابه الأيديولوچى هو خطاب الدولة الرسمى، ومهمة الحزب الوطنى هى تأكيد الدعم السياسى للدولة .

---

(١) *السابق* ص ٢٠ .

معنى ذلك، أن وظيفة هذا الخطاب تتحدد فى تكريس الواقع المؤسسى الرسمى أكثر من غيره، ومن أهم هذه الوظائف تعميم الخاص بالنسبة للمصالح المادية والاجتماعية المباشرة، وينسحب هذا على جملة من المفاهيم والتصورات والقيم التى تمثل جزءاً من النظام الأيديولوجى، وتبرير النظام الاجتماعى القائم وتسويغ قبوله بل واعتبار جوده أمرا طبيعياً يجد أساسه فى الطبيعة البشرية ذاتها(١) .

معنى ذلك، أن الخطاب الرسمى هو تعبير مباشر عن النظام السائد الذى يكرس له الحزب الوطنى، وقد تحددت القدرة على الدعم السياسى للدولة لدى الحزب الوطنى فى سعيه الحثيث لتأييد كل خطوات الدولة وسياستها التى تتمثل إبان الأزمة ، فى إدانة النظام العراقى والدعوة لانسحابه من الكويت بغير شروط وعودة الأسرة الحاكمة وأيضاً الموافقة على إرسال القوات المصرية إلى السعودية .

هذا هو الخطاب الرسمى .

وهو الخطاب الذى حرص عليه مثقف الحزب الوطنى .

وهو الخطاب الذى تعبر عنه مؤسسات رسمية وتشريعية كثيرة منها مجلس الوزراء ومجلس الشورى ومجلس الشعب.. وما إلى ذلك مما يزخر بممثلى الحزب الوطنى، ومن ثم، بالنخبة المثقفة فيه أو التابعة له أو الماضية فى مسيرته .

والواقع أنه يمكن تفسير هذا الخطاب إلى ماتوافقت عليه نخبة الحزب من اعتبار قضايا السياسة الخارجية من اختصاص رئيس الجمهورية وفقط. ومما دعم هذا الاعتقاد قيام نخبة رئاسة الجمهورية من معاونى الرئيس بالحديث إلى الشعب حول الأزمة والموقف المصرى منها(٢).

فإذا ترجمنا ذلك كله بشكل آخر، فسوف نلاحظ أن هيمنة الخطاب الرسمى سيطرت على الخطابات الأخرى، وأفرغتها من مضمونها فى الإطار المؤسسى، وهو تابع لسيطرة النظام على الصحف والإعلام مما يعكس الوسيلة التى يعبر بها المثقف.

---

(١) مجلة المنار، القاهرة ، العدد ٧ ديسمبر ١٩٨٧ ، دراسة عبد العليم محمد بعنوان (ملاحظات نقدية حول دراسة الخطاب السياسى).

(٢) التقرير الاستراتيجى العربى ١٩٩٠ ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بجريدة الاهرام ، القاهرة ١٩٩١ ص ٤١٨

وعلى أية حال، فإن مراجعة الصحف الرسمية فى تلك الفترة يؤكد مثل هذا التوجه سواء ماجاء منها على شكل مانشتات أو أخبار أو مقالات رأى.. وما إلى ذلك مما يتناثر فى هذه الصحف كالأهرام والأخبار والجمهورية ومايو - وكتاب المجلات - المصور وآخر ساعة والأهرام الاقتصادى وكاريكاتير - ويمكن أن نضيف إلى ذلك عديد من باحثى مراكز الدراسات - كمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ومركز الدراسات بجامعة القاهرة ومركز ابن خلدون.. إلخ.

أيضا بعض أصحاب المقالات المتتابعة بصفحة الرأى بالأهرام كثروت أباظة وعبد المعطى حجازى وعصام رفعت ونجيب محفوظ، وإن بدت عناصر كثيرة تتخذ شكلاً أكثر جدية فى الخطاب الرسمى من أمثال محمد سيد أحمد وصلاح الدين حافظ ورجب البنا ، كذلك اقتفى أثر أولئك البعض الآخر من أمثال صلاح حافظ وسامى خشبة وسعد كامل وليلى تكلا ويوسف إدريس وعبد الوهاب مطاوع[1]. وكان من الطبيعى أن تفسح الصحف القومية صفحاتها للمؤسسة الدينية.

إن وسائل الدولة للهيمنة ترينا أنه لم يخرج عن الخطاب الرسمى ما من شأنه أن يناهض هذا الخطاب قط، وخاصة، أن هذا الخطاب هو ماعبرت عنه نخبة رئاسة الجمهورية[2].

وعلى ذلك، يمكن ملاحظة أن هذا الخطاب يقل نسبياً كلما ابتعدنا عن الصحف الرسمية ووسائل الإعلام الأخرى، وكلما توغلنا فى بعض الندوات والمؤتمرات التى كان يهيمن عليها الخطاب الآخر، وعلى ذلك، فإن لهجة الخطاب الرسمى تعلو بشكل مثير كلما اقتربنا من هذه الصحف القومية حتى إن يوسف إدريس ردد أكثر من مرة أثناء الأزمة إشارة لوجود حاسة

---

(١) من الطبيعى أن يزخر (البريد) الذى كان يشرف عليه عبد الوهاب مطاوع بهذا الخطاب، وإن كان من الإنصاف أن نشير إلى شجاعة محرر هذا الباب حين ينشر من آن لآخر بعض الرسائل التى لاتلقى فى طاحونة الخطاب الرسمى دائما ، وهو موقف يمكن أن يحسب له .

(٢) هنا يمكن العود للإشارة الى غلو المثقف فى تأييد خط السلطة المركزية، وهى خصيصة يمكن رصدها فى مصر أكثر من غيرها - كما أشرنا - وهو مالاحظه كثير من أساتذة كلية الإعلام فى مصر، فتقول د.عواطف عبد الرحمن فى فترة مبكرة من اشتعال الأزمة "إن الحرب لم تعلن حتى الآن ورغم ذلك فإن وسائل إعلامنا تعمل فى اتجاه تعبئة الناس لها" الأهالى ٢٢ أغسطس ١٩٩٠ .

شم رهيبة لدى أجهزة الإعلام لاتشم إلا رائحة الدولة. تشم ماتريد الدولة بدون أى توجهات وإن كانت الدولة لاتغفل حركة هذا الإعلام أو تهمله قط أو تبتعد عن التأثير فيه (١).

على أية حال، فسوف نشير، عرضاً، إلى عديدٍ من الأسماء التى لاتنتمى فى (الكادر) إلى الحزب الوطنى، وإن كانت لاتتردد صراحة فى الميل إليه أو تأييد وجهة نظره، بل تغلو فيها، ومن أهم هذه الرموز إبراهيم سعده وأنيس منصور كأهم ممثلى صحيفتى الأخبار والأهرام .

ولا نكون فى حاجة لنلاحظ أن أصوات الخطاب الرسمى هنا تتقارب حتى لتكاد تتشابه، وهو مانجده عند أولئك – إبراهيم سعده وأنيس منصور – إذ أن موقفهما يشتط فى التعبير عن هذا الموقف حتى ليصبح أكثر غلواً فى التعبير عن الخطاب الرسمى ، أكثر من كوادره السياسية، فحين نتوقف عند مثال واحد يتمثل فى اغتيال د. رفعت المحجوب رئيس مجلس الشعب المصرى على أيدى مسلحين فى القاهرة، وتعلن مصادر وزارة الداخلية أنها تجرى التحقيق للتوصل إلى الجناة الغامضين، يتطوع البعض ليشيروا باتهام واحد، مؤداه، أن النظام العراقى هو المسئول عن هذا الاغتيال ومدبره بليل، وقد قرأنا هذا فى الإعلام المصرى كثيراً.

فلنتمهل هنا قليلاً .

كانت الحكومة العراقية فور وقوع الحادث قد أعلنت نفى مسئوليتها، فيسارع الخطاب الرسمى – عبر أعلامه – ليعلن أن النظام العراقى هو المسئول، ونقرأ عنوان إحدى المقالات الرئيسية لرئيس تحرير صحيفة مصرية – الأخبار – عنوان (يكاد المريب يقول خذونى) ، مشيراً إبراهيم سعده خلال المقال الطويل إلى ذلك فإن الذى على رأسه بطحة (جرح) . يسارع بتحسسها.. وتواصل أوسع الصحف الرسمية اتهامها وهجومها حين يضيف سعده أن الرئيس صدام ينتهز هذا الحادث ليجده فرصة جديدة يحاول بها إلهاء العرب عن جريمته العظمى فى حقهم وليبدأ جملة بذاءات جديدة يوجهها إلى مصر ورئيسها(٢) .

---

(١) يمكن رصد أسماء كثيرة لصحفيى وكتاب (الخطاب) الرسمى ممن انحازوا صراحة إلى الدولة، غير أننا نستطيع أن نعيد أن الغلو فى تأييد هذا النظام وضع هؤلاء فى موقف الاتهام لعدم وجود رأى مستقل لهم فى هذه الأزمة أو تلك فى إطار التبعية للنظام ، وقد وجد الإعلام المصرى من داخله من يتهمه بأنه المتهم الثانى بعد صدام فى أزمة الخليج وإن كان ذلك جاء بعد نشوب الأزمة بالفعل (انظر على سبيل المثال مجلة الصحفيين، تصدر عن نقابة الصحفيين المصريين ١٣مايو ١٩٩١) ص ٨ ، ١٥

(٢) أخبار اليوم ١٩٩٠/٩/٢٩ .

ويواصل هجومة المستمر العنيف على (عصابة الأربعة وخامسهم عرفات) – لاحظ دلالة لفظة خامسهم هنا من إيعاد الإيحاء إلى سورة الكهف – وهى العصابة المكونة فى رأيه من صدام حسين والملك حسين والبشير وصالح – لاحظ، مرة أخرى دلالة كلمة عصابة فى اللاشعور العربى.

وعلى ذلك، فإن المسئول عن أوسع الصحف المصرية انتشاراً يواصل تتبع الأحداث، ويوجه هجومه العنيف بشكل يخلو من الدبلوماسية بل الألفاظ الجارحة المسفة حتى إذا ماتجمع له عدد من المقالات راح يجمعها فى كتاب جديد ينشره فى حينه ويختار له العنوان الذى آثره منذ البداية (صدام حسين وعصابة الاربعة)(١). كما يواصل التعبير عن بقية عناصر الخطاب الرسمى .

إنه لايتردد فى الدفاع عن القوات الغربية فى معرض دفاعه عن المملكة العربية السعودية، فهذه الأخيرة – السعودية – ليس أمامها غير الاختيار الصعب وهو الموافقة الصريحة على مساعدة تأتى من الدول الأجنبية بدلاً من الدول العربية الشقيقة، مع كل ماينتج عن هذا التدخل الأجنبى من أخطار يصعب تحديدها(٢) .

ويلاحظ أن الخطاب الرسمى هنا يطرح – على لسان رئيس تحرير الأخبار– أسئلة تحمل فى ثناياها الدفاع عن الوجود العسكرى الأجنبى بصراحة، نقرأ :

(– لماذا هذا الخوف من الوجود العسكرى الأجنبى فى دولة عربية تحرص على إبعاد الغزو العراقى عنها بكل ماتملك من قوة)(٣).

ولايسع المرء إلا أن يسأل: وهل القوة هى الاستعانة بالآخر/ الغرب – العدو التاريخى –، أو لَمْ يكن من الأجدى الإفادة من كل تكنولوچيا السلاح المكدس فى دول الخليج وفى مقدمتها السعودية ببلايين الدولارات من أزمنة بعيدة؟ أَلَم يكن كان من الأجدى الحذر من الأمريكيين بعد أن زينوا للعرب أن صدام حسين على وشك غزو السعودية بينما أكدت

(١) *الزهراء للإعلام والنشر ، القاهرة ١٩٩١ .*

(انظر على سبيل المثال وصفه للرئيس اليمنى "هذا اليمنى.و.. هو الجندى برتبة (شاويش)"، كما أن الملك حسين لاهم له غير "الحفاظ على عرشه"، ويصف مؤيدى صدام حسين بهؤلاء ((الأراجوزات))..) أيضًا يمكن العودة الى مقالاته فى أخبار اليوم ٨/١٨، ١٩٩٠/٨/٢٥ حيث يصف فى المقالة الأخيرة صدام حسين بأنه روبن هود (ولكنه غير شريف) الخ الخ .

(٢) *أخبار اليوم ١٩٩٠/٩/٢٩ أيضا : ٨/١١ .*

(٣) *السابق ٩/١ .*

الوثائق التى أعلن عنها – فيما بعد – أن ذلك لم يعدو أكثر من خدعة أمريكية للعودة إلى المنطقة بعد أن توقف صدام حسين عند المنطقة المحايدة ؟

لايريد المثقف هنا أن يسمع الإجابة من أحد، فهو يعرف– سلفاً – إجابات هذه الأسئلة التى واصل طرح بعضها:

(– ولماذا – أيضا – تلك الجعجعة الفارغة عن المخطط الصهيونى الامريكى لضرب الأمة العربية وفرض الاحتلال عليها ؟ ! إن صدام حسين هو الذى..)(١)

إلى آخر خطب الدفاع المجيد عن الغرب بالصورة التى لايستطيع الغرب أن يدافع فيها عن نفسه بهذا الشكل، بل لايستطيع الإعلان عنه بهذا الشكل المنظّم السائد، وهو خلال ذلك كله يعود من آن لآخر، ليذكر بالحجة التقليدية، أن صدام حسين هو الذى فجر الأزمة، واضعاً يديه على عينيه كيلا يرى أن بشاعة العدوان الأمريكى سوف يفوق بمراحل عدوان صدام حسين، أو يتظاهر بأنه لايرى ذلك، فتحميل صدام حسين المسئولية كاملة دون استنفاد كل اجراءات العقاب ضده، أو تحرك الطائفة الثالثة (العرب) للضرب على يده.

إنه يحمل النظام العراقى المسئولية دون الأنظمة الأخرى..

وعلى ذلك، تدور كتابات إبراهيم سعده فى إطار النظام السائد، ولاتخرج عليه، اللهم إلا فى زيادة الهجوم، ففى الوقت الذى لم تستخدم النخبة السياسية فى مصر فيه ألفاظاً نابية راح عدد كبير من النخبة الثقافية يغلو فى ذلك، وقد ظل إبراهيم سعده غير مسبوق فى ذلك حتى أنه حين تفرغ فيما بعد لإخراج كتاب آخر من وحى كتاباته هذه راح يمنحه هذا العنوان (الكذاب.. بالصوت والصورة)(٢) وراح فيه يركز بنفس الأسلوب على صدام ونظامه دون عصابته وإن لم يتجاهلهم تماما.

وإذا كان إبراهيم سعده ألمع تلامذة مدرسة (أخبار اليوم)(٣)، فإن أنيس منصور(٤) كان من أنبغ تلامذة هذه المدرسة كذلك.

---

(١) السابق ١/٩.

(٢) دار الفيصل، القاهرة ١٩٩١ .

(٣) فى نهاية كتاب ابراهيم سعده (الكذاب..) نقرأ مقالة طويلة لصبرى غنيم – أحد صحيفى دار الأخبار – أن مصطفى أمين كان قد أكد أنه (فخوراً به.. مقتنعًا بنبوغه الصحفى) متنبأ له مستقبلاً عظيمًا فى الصحافة، انظر الكتاب، ص ١٩٩ .

(٤) انظر بعضًا من مواقف أنيس منصور مع السلطة وخداعه للجماهير إبان الأزمات الكبرى فى تاريخنا المعاصر، وكراهيته المطلقة لجمال عبد الناصر فى اطروحتنا لنيل الدكتوراه (المثقفون وعبد الناصر)، السـابق .

ففى عموده اليومى بصحيفة (الأهرام) بعد أيام قليلة من الغزو العراقى-٦ أغسطس - راح يوجز (خطبه) فى عبارة بسيطة تقول:

(- فلنتجه جميعاً إلى البيت الابيض الذى ينفع فى اليوم الاسود)

ويستمر الخطاب الرسمى مع تميز الخطاب (الأنيسى)، ففى حين يترجم أفكار النظام السائد بالتوجه إلى الأمريكيين فى حل الأزمة، يعيد إنتاج الموقف بأنه:

(لاحل سياسيا ولاحل عسكريا إلا باذن من المملكة العربية السعودية التى هى عميدة دول الخليج)[١]

ويستبق الحوادث حين يرى أن الملوك والرؤساء المجتمعين بالقاهرة، سوف يقولون حاولنا مع صدام بحل وسط يضمن له حقه فى البترول ولكنه رفض[٢]، وبعد أن يعرض لمواقف الزعماء والملوك العرب من وجهة نظره ينتهى إلى أن:

(- لقد قضى الأمر والباقى على بوش)[٣]

وأنيس منصور يعبر عن الخطاب الرسمى فى الدعوة التى نادى لها بعض الباحثين العاملين بمراكز الدراسات التابعة للنظام السائد[٤]، وهو الخطاب النفعى الذى اعتمده العديد من الدول العربية أو الإسلامية حولنا: كتركيا وسوريا والأردن، وهو يعلن - مكرراً لذلك - أن المصريين معجبون بهذه الدولة، ونعجب أن نقرأ لأنيس منصور مثل هذه العبارة:

(- بصراحة: بعض الناس يقولون إنه لايصح أن نخجل أو نتعالى عن طلب الثمن بعد أن قدمنا مالايقدر بثمن)[٥]

وأكثر مايلاحظ هنا أنه فى حين يردد وجهة نظر كتاب مخابراتى مثل كتاب (حرب الخليج.. الملف السرى)[٦] كمرجعية أساسية له للحديث عن النظام العراقى، فإن المرجعية الرئيسية لدى أنيس منصور هى صحف الغرب وكتب النبوءات الخرافية فيه، ويحتاج الأمر

---

(١) الاهرام ١٩٩٠/٨/٨.

(٢) السابق، أيضا : انظر الى الملحق ١

(٣) السابق.

(٤) أنظر الملحق (١)

(٥) انظر الملحق (١) و (٢) أيضا انظر الاهرام ١٩٩٠/٩/٤

(٦) *Guerre du golfe la swite, Tem PETE du dosert Eric Laurent, tome 1.2, oliviero RBAN*

لدراسة مقارنة بين مثل هذه الكتابات وكتابات اليوميات فى الصحف الغربية – الأمريكية خاصة – لنرى إلى أى مدى راح كاتب مصرى يعبر عن صدام حسين ليراه هتلروستالين چينكيزخان وهولاكو(١) .

وتغرينا نبوءات أنيس منصور التى ينقلها عن نوستر أداموس على نقل هذه العبارة التى نشرها الأول فى صحيفة مصرية رسمية، يقول:

(– أما الأمير المخيف أو الرئيس المرعب الذى سوف يظهر فى الشرق الأوسط فهو مسلم وعلى حدود بلاد فارس وهو رجل مخيف دموى إنه الرجل الثالث الذى سوف يؤدى إلى خراب العالم كما فعل نابليون وهتلر)(٢) .

ويضيف أنيس منصور هنا: هذا فى عصرنا نحن .

وحين يغتال رفعت المحجوب يجيء صوت أنيس منصور ليشير الى أن النظام العراقى الذى سبق وأن اغتال ألف مصرى جاءوا بالتوابيت هو الذى اغتال الآن المحجوب ، مستعدياً النظام والشعب المصرى على النظام العراقى ليواصل تعبئة الرأى العام(٣)، رغم أن المحقق أكد فيما بعد أن المسئول عن هذا الاغتيال كانت الجماعات الإسلامية فى مصر.

والمدقق فى مثل هذه الكتابات يعجب من اتساقها التام مع الخطاب الرسمى، وهو اتساق يصل أحيانا – كما أشرنا – إلى الغلو فى تبنى الرأى الرسمى بل وسبقه إمعانا فى تأكيده واجترارہ فيما بعد .

ويبدو أن عناصر هذا الخطاب كانت تتخذ موقفاً من صدام ليعبر – بشكل عكسى عن السياسة التى ينتمى اليها مثل هذا النوع من الكتاب، وهى السياسة التى تنتمى – مرجعياً – لكامب ديفيد، فبغض النظر عن تهور صدام حسين وحساباته، فان موقفه العام يشير إلى لحظة الصدام الضرورية مع الغرب وهو يناقض ماانتهى إليه السادات فى (كامب ديفيد) .

ولايمكن أن ندرس الخطاب الرسمى فى مؤتمر (مدريد) الذى عقدت بداياته الأولى فى (مدريد) تحت رعاية الولايات المتحدة الامريكية دون أن ندرس الموقف المصرى المرتبط (بالكامب) قط .

---

(١) الاهرام ٩/١٨، أيضا ٩/٢١ ولسنا فى حاجة للتكرار أن هذه النعوت والاوصاف تكررت فى الإعلام الغربى وعلى لسان الرئيس الامريكى نفسه

(٢) الاهرام ١٠/١٣ ، ١٠/١٤

(٣) الاهرام ١٩٩٠/١٠/١٥

على أية حال، لندع ذلك الآن، ونعود إلى الخطاب المصرى الرسمى إبان أزمة الخليج ١٩٩١/٩٠، لنرى، أن أنيس منصور يدافع عن ضرورة وقف الحرب التى أشعلها صدام حسين، فقد كان موقف السادات - كما يؤكد الناطق الرسمى باسم السادات إبان عقد مؤتمر الصلح والكاتب الأول - أنيس منصور - مع ضرورة إيقاف الحرب الآن، تماما كما فعل السادات حين قبل - من قبل - إيقاف الحرب مع إسرائيل، وأن السادات بذلك كان رجلاً عاقلاً (١)، وهو مايعنى بشكل مباشر عند الكاتب أن صدام الذى يعلن الحرب الآن ليس هو السادات، الحكيم، من قبل، والذى قبل إيقاف الحرب والتعاون مع إسرائيل وأمريكا.

الغريب فى الأمر كله، أنه فى حين يتحدث طويلاً عن حماقة صدام - بالمقارنة إلى حكمة السادات - لم يتحدث مرة واحدة عن استراتيچية الولايات المتحدة الأمريكية فى المنطقة بشكل جدى..

وهذا الموقف لايتخلى عنه قط إبانْ الأزمة أو بعدها..

٢ - *موقف السلطة* :

ينتمى إلى الحزب الوطنى نمط آخر من المثقفين يمكن أن يطلق عليه موظف الدولة. وهو نمط من المثقفين من النوع الذى نشأ فى السلطة المركزية أو الدولة التى تنتمى الى هذه السلطة (المهيمنة) بطبيعتها، ومن ثمَّ، فهم فئة تنتمى فى الغالب إلى الطبقة الوسطى وتتدرج فى الدولة حسب الاحتياج إليها.

وهذا النمط تسعى الدولة دائماً للسيطرة على أصحابه بما لديها من إمكانات وسواء أكانوا تابعين للأحزاب السياسية أو الأيديولوجية ومن بين الفنانين والمبدعين..الخ.

ومادام هذا المثقف ينتمى إلى فئة ترتبط غالبيتها بالطبقة المتوسطة، فإننا نستطيع رصد دورها تاريخياً فى مصر بشكل يغاير ماحدث فى أوروبا فى القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر، فهى فى مصر نشأت وهى تحمل فى ضمير عناصرها روح الولاء للحكومة وليس التمرد عليها، روح الخضوع للدولة وليس مواجهتها والسيطرة عليها، روح الاقتناع بما تقرره الدولة دائما وأبداً وعلى ذلك، فقد اتخذت عناصر هذه الطبقة مواقف

---

(١) *الاهرام* ٢٠ / ٢ / ١٩٩١

انتهازية يغلب عليها النفاق إلى درجة تحول هذا النفاق فى بعض المواقف إلى بكاء للتدليل على درجة الإخلاص، أو الغلو فى بعض المواقف أكثر من الحكومة نفسها ليتأكد للطرف الأقوى فى العلاقة - الحكومة - ولاءها الشديد فتسمح لها بهامش الإفادة من ثقة السلطة المركزية .

وعلى ذلك، أصبح هذا النمط شائعا فى أزمة الخليج، حيث لاتوجد تقاليد فكرية ثابتة، أو مواقف يمكن رصدها والتعامل على أساسها على أساس - ديموقراطى خلاق .

ولانستطيع أن نحدد مواقف هذا النمط من المثقفين دون أن نجده فى حالات كثيرة: إما مؤيداً وإما صامتاً وإما انتهازياً وإما مغترباً وإما متحولاً من النقيض الى النقيض لطبيعة التكوين الإنسانى.. وفى ألوان الطيف تلك يمكن أن نلاحظ عدداً كبيراً من المثقفين من شتى المراكز الإعلامية أو الحكومية أو الدينية.

ولكثرة هذا النمط فى حياتنا بشكل عام، ومن أزمة الخليج بشكل خاص، فسوف نتمهل عند بعضهم كمثال لغيرهم وكتعبير عن تردى حالة شريحة كبيرة من المثقفين المصريين .

وربما كان عبد العظيم رمضان، بتطوره الاجتماعى والفكرى خير مثال لهذا النمط من المثقفين الذين اختاروا - منذ اليوم الأول - موقف الدولة فى إدانة الموقف العراقى وتأييد الدعوة إلى انسحاب القطر الغازى على اعتبار أن دولة العراق أصبحت دولة مستعمرة أو فاشية، ومن ثم، يمكن السماح للقوات المصرية الخروج إلى الخليج والسعودية، ويمكن الإلماح أو التصريح بتأييد الموقف العسكرى الغربى .

وهذا هو موقف (الخطاب الرسمى) .

لم يكن عبد العظيم رمضان فى حاجة إلى الانحياز للدولة صراحة لكونه أستاذاً جامعياً، وقد راح يعبر عن هذا الرأى فى صحف النظام ومجلاته بدون توقف حتى إذا ما توفرت له مادة لكتاب عن الخليج بادر بنشره متشحا بمسوح المؤرخ - لكونه دارس تاريخ - ليمنح الكتاب عنوان (الاجتياح العراقى للكويت فى الميزان التاريخى) وليسهم فى (مولد) كتب الخليج بالطريقة التى تضعه ضمن عناصر الخطاب الرسمى .

وقد راح عبد العظيم رمضان يقول منذ البداية، بأنه يلتزم فى علاقاته بالقضية بمنهج البحث العلمى التاريخى.

ورغم أن السياسة لا التاريخ كانت ديدن رمضان، فانه لم يتردد فى القول:

(- لا أستطيع أن أحرف حقائق التاريخ وفقا لآرائى السياسية، وإنما أقدم الحقيقة التاريخية كاملة)[1]

كان القصد لدى أستاذ التاريخ أن يظل ملتصقاً بردود الفعل الرسميةلايحيد عنها قيد أنملة، اللهم إلا إذا تبنى القضايا الرسمية بشكل أكثر غلواً وأكثر زعماً بالعلمية والحيدة، فهو فى حين يرفض مرة إرسال قوات مصرية لإرغام العراق على إنهاء احتلالها للكويت « نعارض اشتراك القوات المصرية »[2]، فإنه يعود فى المرة التالية ليتراجع فيما يتصل بإرسال قوات مصرية للسعودية اللهم الا بربطها بتحفظ مهم « للمساعدة فى الدفاع عنها، ولكن.. »[3]، ثم يكشف عن تبنيه لوجهة النظر الرسمية الخالصة بسؤال يلى ذلك يوجهه للقراء الساذجين:

(-.. هل كان فى وسع الرئيس مبارك الوقوف موقفاً سلبياً والامتناع عن إرسال قوات مسلحة الى المملكة العربية السعودية ودول الخليج؟) [4]

ثم يتحدث طويلاً عن تاريخ مصر وثقلها التاريخى.

ويتهيأ المؤرخ ليحارب بسيف النظام السائد ليهاجم المعارضين: جماعة الإخوان وحزب العمل، منددأ بموقفهما من التدخل الأجنبى مردداً لأكثر من مرة الحجة التقليدية هنا، حين يضعها فى عنوان لإحدى مقالاته: (من المسئول عن جلب القوات الأجنبية؟)، ويظل من البدهى عند رمضان أن المسئول هو صدام واحتلال الكويت وليس التدخل الأجنبى ورفض الأمريكان إعطاء أية فرصة لصدام للخروج بماء الوجه.

وتظل قضية انسحاب القوات العراقية من الكويت هى المحور الأول فى كتابات رمضان، وهو مايعنى - فى المقابل- أن المنادين بعدم انسحاب هذه القوات من الكويت إنما يسلمون بأنه لاتوجد القوة التى تستطيع ذلك، ومن هنا، تظل القوة الوحيدة القادرة على ذلك عنده، هى، قوة التدخل الأجنبى المتربص بنا، وبذلك، يربط بين إنهاء التدخل الأجنبى بانتهاء الاحتلال للكويت، وهو مايعنى طرحه أن التدخل الاجنبى الأمريكى المسلح يظل النتيجة - لا السبب - لغزو العراق، والفصل بينهما يصبح مفروضاً .

---

(١) عبد العظيم رمضان، *الاجتياح العراقى للكويت فى الميزان التاريخى، الزهراء، القاهرة* ١٩٩٠ ص٩-١١.

(٢) *السابق* ص ١٨ .

(٣) *السابق* ص ٢٠ .

(٤) *السابق* ص ٢١ .

والحاصل أن عبد العظيم رمضان فى هجومه المستمر على النظام العراقى إنما كان يعبر عن (الخطاب) الرسمى من جهة، ويوظف إمكاناته العلمية ليؤكد للنظام، لا للعلم، أن معارضة رفض الانسحاب يعنى معادلا تأييد التدخل الغربى .

وهذا الموقف - التركيز على الغزو العراقى بشكل لايتناسب مع التنبيه للغزو الأمريكى- هو مادفع به للدخول فى خلافات مستمرة وعنيفة مع مثقفى التيارات الناصرية والدينية، وهو للدفاع عن وجهة نظر النظام لايتوقف عن تأكيد أحقية القوات الغربية فى التدخل والعبث بالأقطار العربية كما تشاء .

إنه يوظف إمكاناته كلها ليلقى بها فى طاحونة النظام السائد.

وهو مايقترب بنا من مؤسسة أخرى، غير المؤسسة الجامعية، هى المؤسسة الدينية، وإلى أستاذ إسلامى فى منصب دينى وصل فيه إلى أن أصبح نائباً لجامعة الأزهر، وهو د. أحمد عمر هاشم.

وأحمد عمر هاشم ينتمى إلى الخطاب الرسمى ليس بحكم عمله الوظيفى، وإنما، بحكم ارتباطه الوظيفى كأحد (موظفى السلطة) مما دفع النظام إلى تعيينه عضواً بمجلس الشورى وتكريمه فى أكثر من حفل وتهيئته لدور منتظر.

وقد كان لابد أن يتسق موقفه من أزمة الخليج مع الدور (العضوى) من النظام، وهو ماعبر عنه صراحة فى أكثر المواقف تشدداً من الغزو العراقى، وقد كان أكثرها لفتاً للنظر، وقوفه فى مجلس الشعب المصرى بعد الأزمة، وثورته البادية فى صورة تمثيلية رديئة، ودموعه التى أخذت تتساقط لما يحدث فى العراق والكويت من هذا الغزو وجرائمه[1] فى حين تخلى عن وقاره الأكاديمى وسمت عالم الدين/المثقف.

كان أكثر الشخصيات الإسلامية استشهادا بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية لتأكيد خطأ الغزو العراقى وتعديد آثامه، وإن الإشارة فى رمضان أن الله لم ينصر فيه الباطل أبداً

---

(١) أقبلت وسائل الإعلام على هذا المشهد التمثيلى له وراحت تزعم فى سهرات التليفزيون المصرين أن الكثيرين يطلبون فى برامج المنوعات والسهرات إعادة شريط مجلس الشعب حتى وصف ذلك أحد محررى مجلة أكتوبر وهو يحدث أحمد عمر هاشم أنهم "يطلبونك بنفس الطريقة التى يطلبون بها أغانى أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم" (أكتوبر، ٢٤ مارس ١٩٩١)
كما راحت صحيفة الاخبار القومية تزف للشعب المصرى مولد نجم جديد فى مجلس الشعب، وان كان ذلك لم ينطل على الناس العاديين والرأى العام .

هى إشارة الى المصير الذى لاقاه صدام حسين وكان لابد أن يكون ماجرى لصدام.. وجيش صدام.. من هزيمة منكرة – واستسلام ذليل.. نتيجة طبيعية لأنه مع إقبال شهر رمضان المبارك.. ماكان يمكن أن يكون النصر الا للحق(1)

وقد ظل طيلة الأزمة وبعدها يمثل أهم عناصر المؤسسة الدينية الرسمية وأبرعها، وقد أسرع حينئذ إلى جمع مقالاته فى كتاب نشره بعنوان (محنة الخليج..)(2) راح يستعد فيه عناصر الخطاب الرسمى المستند لكثير من الأحاديث والآيات القرآنية، ولم يقتصر فى ذلك الدفاع عن موقف مصر وإنما عن موقف المملكة العربية السعودية بقيادة الملك فهد.. ودولة الامارات بقيادة الشيخ زايد.. وسوريا بقيادة الرئيس الأسد، مما حاول به أن يكتسب مصداقية فى هذه الدول الإسلامية.

ومن العبث أن نستعيد مثل هذه الأفكار فى كتابه، وإنما سنقتصر على الإشارة إلى بعض العنوانات لنرى موقف عمر هاشم:

- الشدائد محنة لا منحة
- مقاومة الإسلام للظلم والطغيان
- لم تفلح المبادرات فى طريق الحل السلمى فكانت الحرب
- الدعاوى المغرضة والجهاد الحق
- وجوب الوفاء بالعهود
- أكذوبة توزيع الثروات
- تحريم الإسلام لاستخدام الدمار الشامل
- تحريم أكل أموال الناس بالباطل
- جهود المملكة العربية السعودية ومؤتمر الجهاد

وهذه العنوانات – كما نرى – تلخص الخطاب الإسلامى وتدعمه، وهى تشير ضمن ماتشير إلى:

---

(1) انظر، على سبيل المثال، أكتوبر ٢٤ مارس ١٩٩١

(2) أحمد عمر هاشم، محنة الخليج وموقف مصر والسعودية والبلاد الإسلامية، مكتبة التراث الاسلامى، القاهرة، بدون.
(ولاحظ جمْع مصر والبلاد العربية والإسلامية فى عنوانه الثانى فى هذا الكتاب).

١ – الانحياز التام للخطاب الرسمى

٢ – توظيف الإسلام لتبرير الموقف الرسمى

٣ – مغازلة الدول الإسلامية

٤ – رفض توزيع الثروة كما نادى النظام العراقى

٥ – رفض الربط بين أزمة الخليج وقضية فلسطين

٦ – تأييد الدولة الحليفة (السعودية) بدون تحفظات

٧ – تأييد الغزو الأمريكى

وقد كان من الطبيعى، والأمر كذلك، أن يدعى الى عديد من مؤتمرات البلاد الإسلامية، وتعرض صورته المنفعلة ودموعه الساخنة فى تليفزيونات الخليج لفترات طويلة.

٣ – *مثقف النفط* :

أفرزت الأزمة نمطاً آخر من المثقفين يمكن أن يطلق عليه المثقف النفطى أو مثقف النفط.

وهذا المثقف عرف الانقلاب النفطى واهتبل آثاره سواء بالعمل فى المؤسسات الجامعية (أساتذة الجامعات) أو المؤسسات والمصالح الحكومية (الأطباء والمهندسين)، أو الإعلام (المؤسسات الصحفية)، كذلك بنشر الكتب والمقالات الدورية والتحقيقات المطلوبة والتعامل مع أجهزة الإعلام الخليجية (وخاصة الكويتية منها) فضلاً عن الإفادة من صناعة السينما وإنتاجها وأجهزة الإنتاج التليفزيونى والإذاعى.. وما إلى ذلك .

والمعروف أن ذلك قد أتاح وسيلة للثراء السريع فى فترة الحقبة النفطية بآثارها السلبية التى حالت دون الحراك الاجتماعى بين الطبقات، وبروز فئات وأنماط جديدة كان من الصعب حين تتأثر بالغزو أن تتأقلم مع الواقع الجديد، أو تتفهم مايدور فيه بالشكل الطبيعى .

ومن هنا، برز هذا النمط الذى راح يدافع عن (الخطاب الرسمى) بالحق وبالباطل، مستمداً ذلك من انتمائه الاجتماعى الجديد.

والغريب أن ذلك النمط من المثقفين لم يكن من بين مثقفى النظام السّائد، وإنما انتمى إليه بحكم مصالحه، رغم أن البعض كان ينتمى – من قبل – إلى التيار اليسارى، أو الخطاب اليسارى بمفهومه التقدمى، مما أشار إلى خطورة النفط فى تكوين الوجدان المصرى المثقف،

بل والعربى بوجه عام، فمن المؤكد أن أتباع سياسة اقتصادية عشوائية لدى عديد من دول الخليج كانت وراء بعض البواعث الحقيقية للغزو العراقى، وهو مايذكرنا - ولهذا موضع آخر - بتكوين موقف أنور السادات الذى انتهى به إلى (كامب ديفيد) نتيجة للموقف العربى فى المشرق بوجه خاص، حين شغل العرب بأنفسهم رغم أن حرب أكتوبر ٧٣ كانت قد زادت من ارتفاع أسعار البترول فى الخزينة العربية [١].

وعود إلى هذا المثقف، فقد وجد فى فى (الخطاب الرسمى) ضالته، فراح خلال أجهزته ووسائله ومهرجاناته يرى مناخا ملائما لاتخاذ الموقف المؤيد للكويت، وهو موقف بدا فى المؤتمرات بالقدر الذى بدا به فى المساجلات. وربما كان أبلغ مثال على ذلك ماتقدم من دعم مالى كبير الى مؤتمر الشعر الذى عقد بالقاهرة وأشرفت عليه وزارة الثقافة (هيئة الكتاب) وباتخاذه، فيما يبدو، موقفامؤيداً للكويت على طول الخط (فى ديسمبر١٩٩٠).

ومن المؤكد أن النفط أسهم - بأشكال متعددة، على العكس مما هو شائع - فى إفساد الثقافة العربية، وإفساد ذمم الكثير من المثقفين الذين تحولوا - بفعل الثروة الريعية وإغراءاتها- إلى مؤيدين لنظام دون نظام، ومكرسين لقيم كثيرة دون قيم كثيرة أخرى، فضلاً عن تأثير النفط على مستوى أعلى، حيث بدا أن الاقتصاد العربى - خاصة فى الفترة التى سبقت الغزو العراقى - بدأ فى الانكماش لتقلبات غير خاضعة للسيطرة، ناشئة - فى الأساس الأول - عن تقلبات أسواق النفط والمواد الأولية التى تصدرها الدول العربية .

ثم جاءت أزمة الخليج فأثرت بالسلب سواء فى المستوى الفردى للمواطن العربى- وكان المثقف أبرز مستفيديه - أو على المستوى القطرى باستنزاف ثروة البترول لتمويل الحرب وإصلاح ماأفسده الغزو العراقى أو الأمريكى سواء بسواء.

وبهذه الصورة يمكن أن نرى (حالة) المثقف النفطى .

---

(١) يرى عديد من شهود عيان هذه الفترة هذا التقاعس فى الموقف العربى، يقول أمين هويدى - وقد كان وزيراً للدفاع ومسئولاً عن المخابرات المصرية فى الفترة التالية لهزيمة ٦٧ وحتى عبور ١٩٧٣، بعد تحليل الواقع السياسى والعسكرى - :

(أما الموقف العربى فلم يرتفع إلى مستوى خطورة الموقف من ناحية المساعدات المالية. فقد كانت محدودة بل رمزية على الرغم من تكدس المال فى الخزائن. ولم يكن الإمداد الحربى كبيراً فى وقت ازدادت فيه الخلافات العربية - العربية وأخطر من ذلك كانت الإرادة العربية قد تآكلت والعزم العربى على مداومة النضال قد تراجع.. كان التضامن العربى مجرد وهم) الخ ، انظر جريدة السفير، بيروت ١٩٩٢/١/١٣ .

وقد يكون من أكثر الأمثلة تعبيراً عن الفترة النفطية فى مصر كل من الدكتورين: فؤاد زكريا ومحمد حسن عبد الله .

وقد راح فؤاد زكريا ذو التكوين الفلسفى يؤكد وجهة نظر الخطاب الرسمى على طول الخط وراح يلقى اللوم على النظام العراقى ويساند المواقف الأخرى ضده، مستخدماً فى هذا كله مناقشات فلسفية ومصطلحات علمية القصد منها إدانة الآخرين ممن لم يشاركوه الرأى، وفى هذا سودت كتاباته صحف الكويت الرسمية مثل (صوت الكويت) و (القبس) وصحف ومجلات مصر (الأهرام، الأهالى، الهلال، الإبداع..) مواصلاً الدفاع عن (محنة العقل)[١] فى كل ماكتب متفقاً فى الواقع مع أفكار الحزب الوطنى و الجناح الأكثر تطرفاً فى حكومة الشيخ جابر..، [٢] من أن الغزو العراقى كالغزو الإسرائيلى سواء بسواء، وهو مايعنى الخلط بين الأسباب والنتائج، كما راح يتحدث - بنغمة فلسفية خادعة - عن عدم الاكتراث بحقوق المواطن وكرامته، وإثارة القضايا الكبرى فى غير توقيتها مثل القضية الفلسطينية والسياسة الاقتصادية.. ومالى ذلك مما يدخل تحت بند الدعاية الرسمية أكثر منه تحت وجهة النظر المستقلة فى نبرة متعالية لم يخطأها كتّاب اليسار بوجه خاص.

والواقع أن أغلب ماذكره أستاذ الفلسفة إنما كان من قبيل الحق الذى قصد به باطل، اذ تحدث كثيراً عن الظلم وبشاعته، والديكتاتورية وثمنها.. وما إلى ذلك، فى حين كان هدفه الرئيسى ترديد الخطاب الرسمى (المصرى أو الكويتى) لتأكيد مايريده؛ بيْدَ أنه لاتساع المجال فى هذا الصدد، فسوف نرجئ تناول أفكار فؤاد زكريا الى موضع آخر لنسهب فى مناقشتها عبر تصادمها مع الأفكار الأخرى المعارضة له .

وقد مثل د. محمد حسن عبد الله مثالاً يقترب به من سلفه فى كثير من المواقف، فهو مثله قضى فى الكويت أكثر من عشرين عاما، وتولى أكثر من منصب جامعى وشارك فى أكثر من نشاط كويتى خالص، وحين عاد للقاهرة قبل الغزو العراقى بعدة أشهر، كان عليه أن يعكس موقفه الشخصى.

كان أكثر ماتحدث عنه هو ماسبق وأن قدمته الكويت إلى العالم العربى من زاد ثقافى رفيع، إذ مثلت - عنده - منارة أرسلت بضوئها لربع قرن أو يزيد، لولا أن الدور العراقى أحدث هذه القطيعة البشعة[٣].

---

(١) *الاهرام ٢٥ /٨/ ١٩٩٠ .*

(٢) *الاهرام ١٤ /٣/ ١٩٩١ وجاء ذلك فى معرض رد فيليب جلاب على فؤاد زكريا .*

(٣) *يمكن العود الى تفاصيل ذلك فى جريدة الوفد، فى حوار مع د محمد حسن عبد الله فى ٤ سبتمبر ١٩٩٠.*

وحين اشتد الخلاف على أثر التدخل الأجنبى، كان من بين المؤيدين لهذا التدخل، ضارباً مثالاً بعمار بن ياسر الذى قال له الرسول - صلى الله عليه وسلم - أثناء وجوده مع على: تقتلك الفئة الباغية، وحين بدأت الحرب بين على ومعاوية فيما بعد، وتمكن أنصار معاوية منه وقتلوه، قال معاوية بدهائه المعروف عنه أن الذى قتله هو الذى أخرجه ، أى على، وهى انتهازية يتهم بها من يتحدث عن الغزو الأجنبى على أنه هو المسئول عن أزمة الخليج وليس الغزو العراقى لولا معاوية، وإغفال حقا مقرراً، ماكان عمار قد خرج من داره!!، وهنا يحول حسن عبد الله الرمز الى تجسيد قاطع بما يريد حين يقول:

(- فلا تحدثنى عن الأساطيل الغربية فى الخليج.... ولكن حدثنى عن اللعين الذى حركها، واستدعاها بحمقه، وتجبره، وظلمه لبلد آمن..و.. حدثنى عن استعانته هو بأمريكا، فى حربه ضد إيران المسلمة، وانتهازيته فى الهجوم عليها..و.. وحدثنى عن ضغطه على الكويت..و.. وحدثنى عن هذا كله، لتعرف بيقين من جاء بالأساطيل الأمريكية والأوروبية، إلى مياه الخليج)[1].

ويكون من الطبيعى أن تتصل علاقات حسن عبد الله بالكويتيين إبان الغزو وبعده، ويكون - هو - بعد فؤاد زكريا - صاحب النصيب الأوفى فى التعاون معهم، ويكون صاحب أول كتاب بعد الغزو فى سلسلة (عالم المعرفة) حول (الكويت والتنمية الثقافية العربية)، يستعيد فيه بإمهال الدور الثقافى الكويتى، ويكتب له فؤاد زكريا مقدمته - وقد أصبح هذا الأخير مستشاراً للسلسلة وشئون أخرى - ليبرهن نمط هذا المثقف - النفطى - على تأثير النفط، بشكل سلبى، على عكس ماكان منتظراً منه.

٤ - *حزب الوفد :*

من يرصد صحيفة (الوفد) قبل الثانى من أغسطس ١٩٩٠ يلحظ الهجوم على النظام السائد (الشمولى) بوجه خاص، ويقرأ مايتردد كثيراً فى هذه الصحيفة من أن الديموقراطية ليست غير عملية تطهيرية زائفة لاتسمح بتبادل الأدوار بين أطراف العملية السياسية وأن الحكم فى جوهره قائم على نظام الحزب الواحد.

---

(١) *الأهرام ١٧ سبتمبر ١٩٩٠ مقالة بعنوان (أمريكا حلال .. أمريكا حرام!!) .*

وعلى هذا شغلت الصحيفة بحملات واسعة على ممارسات الحزب الوطنى، وهى ممارسات كانت تعترض عليها نخبة حزب الوفد، كتغيير الدستور وتأكيده لقيام الحكومة بتزوير انتخابات.. وماإلى ذلك.

غير أن هذا الموقف تغير مع بداية الغزو العراقى.

لقد اتخذ حزب الوفد موقف الحزب الوطنى بشكل يكاد يكون متطابقا شديد التطابق بشكل يثير العجب والريب ؛ فبعد صمت قصير، صدر فى أول سبتمبر بيان أكد فيه الوفد على الوقوف مع الشرعية وضرورة احترام المواثيق الدولية ورفض العدوان على أراضى الغير[1]، وقد اعتبر الوفد فى ذلك البيان أن الغزو العراقى هو السبب فى الاستعانة بالقوات الأجنبية وأشاد بالدور الذى تقوم به القوات المصرية فى دعم وحماية المملكة العربية السعودية.

وهو – كما نرى – ترديد حرفى للخطاب الرسمى .

لقد كانت حرب الخليج فرصة لحزب الوفد – النخبة السياسية والثقافية – ليعيد ماسبق أن كرره، ويردد من الخطوط الجوهرية فى ممارساته، من أن ممارسات النظم الفردية والشمولية تؤدى إلى تلك المغامرات التى تدفع الشعوب ثمنها، ويؤكد أن الديموقراطية هى سبيل أمن الوطن.. وما إلى ذلك مما يعد من الخطوط الرئيسية للحزب كقطاع ليبرالى قديم وهو مايمكن القول معه ان أكثر مايلفت النظر فى موقف الوفد هو ممارسته لهذه القيمة – الديموقراطية – بشكل يمثل موقفاً تاريخياً.

غير أن هذا الموقف اليوم أصبح يمثل إيثاراً للحزب الوطنى الرسمى أكثر منه إيثاراً للقيم التى طالما دافع عنها حزب الوفد ووسم بها تاريخه كله .

وقد كان أهم ممثلى هذا التيار جمال بدوى رئيس تحرير صحيفة (الوفد) لسان الحزب، وعدد كبير من كوادره السياسية ومثقفيه: كأحمد أبو الفتح، ومحمد عصفور، ومنى مكرم عبيد، وصلاح العقاد، وجلال عبد الفتاح، وكاميليا شكرى، وجلال كشك ، ونعمان جمعة فى الفترة الأولى.

وعلى أية حال، فقد بلغ من حماس الوفد ومثقفيه أنه لم يسمح لرأى معارض للرأى الحزبى قط، وهو ماحدث مع عضو متميز مثل د. نعمان جمعة مما دفعه الى الخروج عن

---

(١) بيان الهيئة العليا للحزب الوفدى ١ سبتمبر ١٩٩٠ ، وهو ماتكرر فى بيانه التالى ٤ أغسطس ١٩٩٠ .

الوفد واتخذ موقفاً (مستقلاً) للتعبير عن رأيه المعارض للحزب، وإن ظلت مكانته السياسية فى الحزب كما هى.

ويبدو أن موقف حزب الوفد كان يعود فى بعض بواعثه الى الرأى السائد لديه وهو أن ما حدث من غزو الكويت إنما كان لافتقاد الديموقراطية فى العراق، فالديموقراطية والديكتاتورية نقيضان لايظهر أحدهما إلا فى غياب الآخر[1]. وهو طرح يبنى عليه موقفه المعلن .

وإذن، فالمسئول صراحة فى هذا كله هو الطاغية صدام حسين وعلى مثل (هذيان طاغية العراق)، ليتصدى صاحبه إلى تفسير العدوان الغربى على المنطقة إنما جاء نتيجة لهذا الوجود العراقى .. من الذى تسبب فى هذا الوجود ؟ ومن الذى وضع الخليج على حافة الانفجار ؟ مثل هذه الأسئلة كانت تطرح كعناوين إجابات معروفة سلفاً لدى مثقفى الوفد، خاصة، حين يتعلق الأمر بصدام حسين الذى يجب أن يعلن ضده الجهاد[2] وليس السماع لدعاويه بالجهاد لحماية المناطق المقدسة أو إعادة توزيع الثروة.. وما إلى ذلك، ويمضى فى ذلك، أن الخطاب الوفدى – على لسان – مثقفيه – راح يتحدث عن مسئولية وجود الأساطيل والجيوش الأمريكية التى تقع على من سطا على أرض الغير [3] .

ويظل رئيس تحرير صحيفة (الوفد) يعيد مفردات الخطاب الرسمى السائد، فلا يجب أن ترتفع الحناجر بالصراخ من وجود الأساطيل الأجنبية فى الخليج فى حين أنها تصاب بالحزن من احتلال العراق للكويت [4].

ويذكر جمال بدوى أنه فى حين يرفض الحزب الذى ينتمى إليه أى تدخل يقع فى شئون الدول العربية، فإن من حق الدول التى انتهكت أراضيها، أن.. تستعين بأى قوى تمنع عنها خطر الغزو.. و.. ومن ثم يصبح اللغط الدائر حول التدخل الأجنبى مجرد ستار لتغطية جريمة اغتصاب أمة[5].

---

(١) جمال بدوى، *أيام بغداد السوداء، دار الزهراء، القاهرة* ١٩٩٠ص٢٦

(٢) *السابق* ص٤٤

(٣) *السابق* ص٤٩

(٤) *السابق* ص٥٧

(٥) جمال بدوى، *السابق* ص١٠٤

وعلى ذلك، فإن الخطاب الوفدى يتفرع عن الخطاب الرسمى سواء فى إدانة الديكتاتورية أو تبرير التدخل الأجنبى بخطأ الديكتاتور ومسئوليته الأولى، ومن هنا، فإنه لايدافع قط عن التدخل الأجنبى، وإنما، عن مبرراته، وخاصة حين يتصل الأمر بحكام السعودية لأنهم احتاطوا لأنفسهم، وكان ذلك بالاستعانة بالقوات الأجنبية.

إن هذا الفعل لدى حزب الوفد بمثابة الدفاع عن النفس، ومن هنا فهو يظل دفاعا مشروعاً لاينال من مصداقيته أى أمر آخر.

وكما تحاكم صُحف (الخطاب الرسمى) الملك حسين وحكام السودان واليمن، كذلك، فإن صحيفة الوفد لاتتوقف عن إيثار هذا المنحى، بل تعيد إنتاج مايفرزه الغرب نفسه، فصدام هو (لص بغداد)، ودعوته لإعادة توزيع الثروة هى دعوة لتبديد الثروة بالمعنى المعروف من كلمة (القرصنة)، ويصف صدام حسين، من قبل سعد الدين إبراهيم حين تفسح له صفحاتها، بأنه (النهاب الوهاب)[١]، وتغلو الأقلام كثيراً فى الحديث عن (بلطجة) صدام.

وقد كان من بين أبرز كتاب الوفد د. محمد عصفور ود. صلاح العقاد، لاتسامهما بفكر ليبرالى، واتخاذ موقف من (نظام) صدام وليس من دولته .

فالأول – محمد عصفور – تتحدد أغلب كتاباته حول افتقاد قيمة الديموقراطية على اعتبار أن الاستبداد هو العلة الحقيقية التى أصابت العقل العربى والقلب العربى[٢]، وهو يوضح مثل هذه الكوارث فى مرات متوالية حينما يستعيد اسم صدام فيسميه «شمشون» العراقى الذى يدمر الكويت والعراق بل والمصير العربى كله فقد أعطى هذا الغزو الفرصة الذهبية للغرب وإسرائيل فرصة الإجهاز على القوة العسكرية العراقية وماتبقى لديها من قوة اقتصادية. ورغم أنه قد نشأت جفوة بين محمد عصفور وحزب الوفد، فإن ذلك لم يؤثر على موقفه العام.

وهو نفس الموقف الذى اتخذه د. صلاح العقاد، حين تحدث عن (مأزق صدام) الذى أصبح فيه عشية الغزو ؛ انطلاقا من أصحاب السلطة المطلقة، وهذه السلطة المطلقة هى التى تسمح لصاحبها ليفعل ما يريد، ومن ثمَّ، يساق إلى (المغامرات الخارجية) .

وبعد أن يفصل د.العقاد حول هذا المأزق من الإحساس بالقوة الكبرى واستقطاب بعض عناصر المعارضة، واحتمال انقسام بعض الدول الكبرى يدافع عن قضية توزيع الثروة التى

---

(١) صحيفة *الوفد* ٥ سبتمبر ١٩٩٠

(٢) *الوفد* ٩ *أغسطس* ١٩٩٠

دعا إليها صدام مدافعاً عن الكيانات العشائرية التى انبثقت عن ظروف دفع بها أن تطور أسلوبها فى الحكم[1].

غير أن صلاح العقاد يخصص مقالات متوالية حول قيمة الديموقراطية فى تاريخ العراق وحاضره معا، مستهدفاً من ذلك البعد التاريخى التطور الليبرالى كما يراه.

وبشكل عام يلاحظ من مراجعة صحيفة (الوفد) أنها - شأن موقف الخطاب الرسمى - لاتؤيد التدخل الأجنبى لحسم الموقف عسكرياً وحسب بعد فشل التدخل العربى، وإنما، هى،ترفض، أن يترك أى تنازل للطرف العراقى ليحصل على أى مكاسب، وجاء بيان حزب الوفد فى ٢٦ فبراير ١٩٩١، ليعلن صراحة موقفه من المطالبة بالانسحاب العراقى بدون قيد أو شرط وهو مايشير لدى هذا الحزب إلى الاقتناع الكامل بالموافقة على الدور العسكرى للقوات الأجنبية.

وهو موقف يتسم بأنه من بين أكثر المواقف تطرفاً فى الخطاب الرسمى المعارض للغزو، وأكثر رفضاً لسياسة (الطاغية) - كما تردد فى صحيفة الوفد - وممارساته.

وهنا نصل إلى نمط آخر مغايراً لهذه الأنماط المتقاربة فى الخطاب الرسمى، وهو النمط المستقل.

٥ - مثقف مستقل :

الحد الفاصل بين هذا النمط والأنماط السابقة يتمثل فى محاولة اتخاذ موقف ينبع - أساساً - من الذات، رافضاً سياسة (الهيمنة) التى يخضع لها المثقف العضوى - بتعبير جرامشى - وهو مثقف يكون تابعاً تبعية كاملة للسلطة، ومن هنا، يصبح المثقف المستقل أقرب إلى المثقف التقليدى الذى يرى فكره مستقلاً عن فكر المجتمع السائد بمثقفيه[2].

---

(١) الوفد ٣٠ أغسطس ١٩٩٠

(٢) ولعل هذا الموقف المستقل يتشابه الى حد كبير مع موقف المثقف (التقليدى) كما نعرفه فى أدبيات جرامشى، وهو المثقف الذى ينتمى الى فئة تنتمى الى التطور التاريخى أكثر منها الى (الحزب) القائم وكوادره، فيخضع هذا المثقف الى الأيديولوجية الدينية بقدر مايخضع الى المؤسسات العصرية من تعليم ونقابات خيرية ..الخ.

وهذا الخضوع المتباين مع النظام السائد انما يدفع به الى درجة من درجات المثالية التى يعتقد عندها أنه أقدر من غيره على رسالة الإصلاح أو التغيير، فى حين أنه لايستطيع فى المجتمع العربى - بوجه خاص- أن يفلت من قيود الهيمنة السياسية .. وهذا الموقف نجده فى كثير من كتابات جرامشى وبوجه خاص رسائله.

وهذا المثقف المستقل كثيراً مايحس بذاته مستقلة عن الآخرين، وإن كان هنا، يعمل – دون قصد فى الغالب – تحت مظلة الخطاب الرسمى، وإن اعتقد دائما أنه بفكره يسبق الواقع، فى حين يدخل به ذلك الى إطار من اليوتوبية - حيث تبدو ممارساته تلقى بمياه كثيرة فى طاحونة النظام .

وعلى هذا النحو، يمكن أن نعثر على موقف خالد محمد خالد (من علماء الدين)، ود.نعمان جمعة وعلى شلش وعدد كبير من المؤرخين (من أساتذة الجامعة) وغيرهم على اعتبار أنهم– من وجهة– نظرهم مستقلين عن أقرانهم ، والأهم عن السلطة المركزية القائمة.

فلنقترب منهم أكثر .

يمثل خالد محمد خالد هذا الموقف المستقل، إذ لاينطلق من هيمنة النظام بقدر ماينطلق من تهاويم ديموقراطية قديمة، غير أنه فى التعبير عن الوجه الديموقراطى الكاره للديكتاتورية يكون أكثر غلواً من النظام نفسه، راح يهاجم العراق منذ اليوم الأول، ويدافع عن الكويت بدون تحفظ.

وقد بلغ فى ذلك درجة مستهجنة، إذ راح يغازل الجندى الغربى الآتى من وراء الأطلنطى لتدمير العراق بقوله: تحية لك أيها الشباب القادم من أمريكا وروسيا وأوروبا كلها.. فتحية لكم[1]، وهو يكرر هذه التحية بأشكال عديدة، ويصل فى ذلك الى درجة استعداء الغرب ضد الشعب العراقى صراحة فى مرات عديدة [2]، ومن أجل ذلك الموقف يهاجم كل من يتخذ موقفاً مناقضاً، بل يغلو فى الهجوم على من يقف موقفاً وسطاً، فهو يهاجم محمد حسنين هيكل مرة ، ويهاجم أحزاب المعارضة مرة أخرى، ويهاجم الإسلاميين ويصب عليهم جام غضبة مرة ثالثة، وهو فى كل ذلك لايتوقف قط عن الدفاع عن أمراء السعودية، فهو يقول عن أولئك الأمراء:يرعون شئون بلادهم وشعبهم رعاية جعلت البلاد لؤلؤة فى تاج الحضارة والتقدم ، وجعلت شعبها يدخل فى سعادة ورفاهية غامرتين..وحسبك هذا من حاكم أمين على أمته ووطنه[3].!!

---

(١) خالد محمد خالد ، أزمة الخليج / فداحة الجريمة وضلال التبرير، الزهراء للإعلام العربى، القاهرة ١٩٩٠ ص٣٧

(٢) أنظر الصفحات : ٦٦، ١١٢، ١١٥، ١١٢ – ١٢٣

(٣) السابق ص ١٦٢

ويصل الأمر بخالد محمد خالد فى موقف تاتشر التى تصمم على تدمير صدام حسين[1] إلى درجة تحيتها والثناء عليها، ويكون أكثر من غيره استخداما للدين - للتدليل على وجهة نظره - فيستخدم ألفاظاً نابية تصل الى درجة التجريح الشديد[2]، حتى تكون فرصة مواتية للإعلام الخليجى ليعلن عنها من آن لآخر، ويدلل بها فى كتبه ونشراته ومؤتمراته.. إلى غير ذلك.

على أن أكثر أفكار الشيخ تطرفاً مانجده فى موضوعين اثنين: مسألة توزيع الثروة، ومسألة القوات الأجنبية؛ فلنشر إلى المسألة الأولى ونرجئ الأخرى فى موضع آخر فى هذه الدراسة.

إن مسألة توزيع الثروة لاتجد جدلا مقنعاً، ولا بحثاً فقهياً يستمد شواهده من الأثر، وإنما هو إلقاء الرأى على عواهنه، إن خالد محمد خالد يرى أن القضية تتحدد فى أمرين اثنين، يفصلهما على هذا النحو:

١ - هل كنتم أو كان أباؤكم وأجدادكم هناك يوم كانت شعوب تلك البلاد وقبائلها تعانى شظف الحياة، وبؤسها، ويعيشون جميعاً من اليد للفم ؟

٢ - إذا كان فيكم بلد واحد لم تغمره عطايا ومعونات السعودية والكويت والخليج، فليرفع زعيم هذا البلد رأسه، وليرنا وجهه، فإنّا نحب أن نرى كيف يكون الجحود ونكران الجميل عندما يتجسد فى صورة آدميين..

وهناك بعد ذلك د. نعمان جمعه، يمثل حالة فريدة فى هذا الاتجاه، فهو يغاير حالة محمد خالد وإن اتفق معه فى الانتماء لموقف مستقل، فالمعروف أن نعمان جمعه أحد

---

(١) *ان موقف خالد محمد خالد من تاتشر مثير للحزن والخجل، فهو يقول عنها:*

- (أليس عجبا أن تعرف "تاتشر" من حكم الله مالاتعرفون..) ص١٣٤

- (وأشكروا أودعونا نشكركم عنكم - "بوش" و "جوريا تشوف" و "تاتشر") ص ١٣٦ فى حين أن تصريحات تاتشر أثناء الأزمة، وأصرارها على النيل من العرب يتمثل فى موقفها من صدام حسين كما قالت لزائرها .. كل هذا يثير الغضب أنظر على سبيل المثال موقفها من العراق الشقيق فى حديثها مع بريماكوف، المبعوث الروسى ، فى : *Evguéni primariov : Missions ´a Bagdad (Histoire d'un négociation secréte) - pp 70195*

(٢) *ونضرب مثالاً واحداً لهذه الألفاظ النابية حين يقول فى عنوان إحدى مقالاته :*

(مثل صدام كمثل المرأة التى تزنى وتتصدق ..)، انظر كتابه، السابق، ص ١٩٧٢، والأمثلة تتكرر .

المعارضين للموقف الرسمى فى حزب الوفد، إذ تحدد موقفه السياسى فيه كنائب لرئيس الحزب ، غير أنه حين ظهر أن الغزو الأمريكى آت لا محالة، وأن الأمريكيين يهدفون من وراء ذلك إلى مصالح خاصة أكثر من تحرير بلد مستضعف صغير، فإنه لم يلتزم موقف حزبه، وراح يعلن جهاراً موقفه المعادى للجانب الغربى، فمنذ منتصف الشهر التالى للغزو راح يقول، صراحة، إن الولايات المتحدة الأمريكية تقوم بدور رجل الشرطة الدولى الذى لم يفوضه أحد فى فرض سيطرته المشبوهة على مقدرات الآخرين[١] .

وتحدد موقف نعمان جمعه من بوش على أنه البلطجى الأكبر فى هذا العالم، فهو معروف بتاريخه القديم الذى تمثله مواقف الولايات المتحدة الأمريكية فى حرب فيتنام وتدعيم إسرائيل عام ٦٧و١٩٧٣ ، ومع ذلك، فإن هذا الرئيس الأمريكى يتحدث عن العالم ويتحرك باسمه، يقول، إنه يدهش كثيراً :

(– لتضامن هذا العالم شرقاً وغرباً لرد عدوان صدام حسين مع أن هذا العالم القذر لم يحرك ساكناً عند اقتلاع شعب فلسطين من أرضه، وعند احتلال أرض فلسطين ثم احتلال الجولان وغزة وغرب الأردن وأخيراً احتلال لبنان، أتعجب لهذا العالم الذى يدعم هجرة اليهود السوفييت الى إسرائيل)[٢] .

وعلى ذلك، راح يغادر حزب الوفد إلى صحف الشعب والأهالى، ليرفض – وهو عميد لكلية الحقوق – القوانيين الدولية والمنظمات التى فقد الثقة فيهايقول فى موضع آخر:

(– لم يعد لى أى ثقة بالمنظمات الدولية فقد ثبت أنها منظمات عاجزة من ناحية. وبأنها أداة فى يد دولة واحدة توجهها ضد دولة أخرى..و..

(– وأنا لا أعترف بالقانون الدولى، لأنه تحول إلى شريعة الغاب، ولم يحدث أن نصر ضعيفاً أو قضية، أو ضمن حقاً..)[٣]

وقد اقترن خروج نعمان جمعة على حزب الوفد بالربط بين انسحاب العراق من الكويت وانسحاب اسرائيل من الأرض المحتلة وهو مايشاركه فيه (الخطاب الرسمى)، إذ كان يرى

(١) *الشعب ١٤ أغسطس ١٩٩٠*

(٢) *جريدة الشعب ، السابق*

(٣) *الأهالى ٢ فبراير ١٩٩١*

هنا أن الشرعية لاتتجزأ على اعتبار أن موقف العراق هو هو موقف أمريكا، كلاهما يخالف الشرعية، فلماذا يحتج الأمريكان ويسير وراءهم عدد من سياسينا ومثقفينا[1]

ومن المواقف التى دفعت بحزب الوفد إلى إبعاد د. نعمان هو رفضه لخروج القوات المصرية إلى الخليج والسعودية وهو مايتعارض مع خط الحزب، غير أن خط التناقض بينه وبين الخطاب الرسمى كان يتحدد فى المقام الأول فى موقفه من الغزو الأمريكى، وراح يكتب، لأكثر من مرة، منتقداً الحصار الأمريكى على العراق، وراح يلوم - وسط تهليل إعلامى مغاير - هذا الموقف الغربى فكيف تقوم البلطجة الأمريكية فى الخليج بمنع السفن التجارية المحملة بالغذاء للأطفال من الاتجاه للعراق[2] .

وهو موقف تعددت مبرراته لدى المثقف المصرى المستقل، فلم يستطع أن يظل تابعا للخطاب السائد، أو يصمت عنه .

نستطيع أن نضيف أسماء أخرى كثيرة تتخذ مثل هذا الموقف المستقل، غير أن هذا الموقف لم يعفهما من الوقوف تحت مظلة الخطاب الرسمى وإن صرحا بوجهات نظر شخصية تغاير الموقف ولا تختلف معه.

ويظل أكثر الأمثلة عن المثقف المستقل مانجده لدى المؤرخين المصريين حين يتخذوا موقفاً موحداً من الأزمة دون أن يهتبل أحدهم الفرصة منفرداً ليعبر عن رأيه، وهو مالم يستطع أن يفلت الكثير منهم، حين راحوا ينضووا، تحت مظلة الخطاب الرسمى.

لقد سارع المؤرخون المصريون، فور الغزو العراقى، إلى إدانة هذا الغزو فى أكثر من مؤتمر عقد خصيصاً لذلك[3]، وكان يعبر كل منهم، بمفرده، بما يلقى فى تيار الخطاب الرسمى، بل حرص أحدهم فى بداية هذا الغزو أن يكتب بما يشير الى ذلك، حين نقرأمثل هذه الفقرة بالمؤتمر الذى عقد بمركز الإعلام الكويتى، أن كاتب هذا المقال مؤرخ عربى مصرى راديكالى، صديق للعراق والعراقيين، وقد لاقى فى رحلته من الكويت -عبر العراق-

---

(١) *الأهالى* ٢٢ *أغسطس* ١٩٩٠

(٢) *الأهالى* ٢٢ *أغسطس* ١٩٩٠

(٣) *انظر : على سبيل المثال، ندوة المؤرخين المصريين التى عقدت تحت اسم (خرافة الحقوق التاريخية للعراق فى دولة الكويت) وإصدرها المركز الإعلامى الكويتى بالقاهرة* ١٩٩٠، *وقد عقدت حينئذ أكثر من ندوة أو مؤتمر مثل ذلك .*

الى مصر كل مودة ولُطف من الشعب العراقى، لكن ضميره العلمى وحسه التاريخى يأبيان عليه إلا أن يتذرع بالحقائق التاريخية الموضوعية ويقف مسانداً للكويت والكويتيين إزاء الغزوة التترة الصدامية(١) .

وهذا الموقف المستقل عبر عنه أكثر من مؤرخ مصرى من أمثال: عبد العزيز نوار، أحمد عبد العظيم مصطفى ، ومحمود اسماعيل.. وغيرهم ممن حرصوا على إدانة النظام العراقى بشكل لايبدو فيه ارتباطهم بالنظام السائد فى مصر بشكل مباشر.

على أن هذا الموقف المستقل، وإن شابه بعض الميل للموقف الكويتى، فى أثر الغزو العراقى، فإنه خلص منه تماما فيما بعد، حين تكررت المحاولة، وبشكل أكثر جماعية (كلما كان الموقف فردياً، كان أقرب إلى الجانب الكويتى) ، ففى شتاء ١٩٩١ وعقب انتهاء الأزمة، دُعى فى القاهرة إلى نقل اتحاد المؤرخين العرب من بغداد الى القاهرة، وهى محاولة كان لها جذورها قبل الغزو العراقى حين أقام العراق اتحاد الكتاب العرب ببغداد، وحاول رئيسه - بشكل رسمى موجه - استقطاب المثقفين دون جدوى - واكتفى البعض بنيابة الرئيس لهذا الاتحاد ببغداد كيلا يخرج تماماً من أيد المؤرخين المصريين (٢) .

وكانت الحرب قد دفعت بالمؤرخين المصريين الآن ليستعيدوا الاتحاد الى القاهرة حسب الاستفادة من الظروف الجديدة، وبشكل يجهد أن يغادر الهيمنة الرسمية للنظام المصرى.

واللافت للنظر هنا أنه فى الوقت الذى تهيأ فيه المؤرخون المصريون ليقوموا بنقل مقر هذا الاتحاد للقاهرة، وكانوا يعانون فيه من الإمكانات المادية، توافق معه رغبة بعض الأمراء العرب لذلك .

كان المؤرخون المصريون تواقون لنقل الاتحاد للقاهرة وبدا المسئولون العرب راغبين فى ذلك ، وهنا تلاقت الرغبتان .

وهو مايمكن أن نسجل معه ملاحظتين اثنتين : إحداهما، أن حماس أساتذة التاريخ المصرى لم يكن كافياً وحده لتوفير التمويل اللازم لعقد جمعية عمومية لإقرار مشروع اللائحة الرسمية لنقل الاتحاد من بغداد الى القاهرة .

---

(١) محمود إسماعيل، خرافة الحقوق التاريخية..، نشر ضمن كتاب المركز الإعلامى الكويتى، السابق .

(٢) هو د.عبد العزيز نوار، وقد أكد لى أنه حاول إنقاذ مايمكن إنقاذه حين أعلن مصطفى النجار فى بغداد اتحاد المؤرخين العرب فى غيبة ورفض المؤرخين المصريين ، فرضى بالنيابة ليحتفظ بالوجود المصرى مضطراً (محضر نقاش، ١٩٩١/١٢/٨ بفندق الميريديان، القاهرة) .

وهو ما اهتبله بعض المسئولين السعوديين والخليجيين عن طيب خاطر(١) وأبدوا استعداداً طيباً لتنفيذه .

هذه هى الملاحظة الاولى، أما الملاحظة الأخرى، فهى أن المسئولين الأساسيين عن هذا الاتحاد، خاصة، فى فترة الإعداد (فى مقدمتهم د٠سعيد عبد الفتاح عاشور رئيس جامعة الإسكندرية) حرصوا على تاكيد أن هذا الاتحاد ليس له أية صفة سياسية، ولاعقيدية، إلى درجة أن د. عاشور تصدى لعدد من الإسلاميين الذين حاولوا استبدال مصطلح العصور الإسلامية بالعصور الوسطى(٢).

وحين لاحظ المشاركون الظواهر الأمنية المشددة، رد د. عاشور، أن ذلك ليس له أية علاقة بخط عمل المؤتمر أو بمشروع اللائحة فيه(٣).

معنى ذلك، أن الاتحاد فى حالة نشأته، لم يتوخ - بالفعل - أسباباً رسمية ترضى النظام القائم، وإن لم تتعارض مع توجهه الأساسى.

وهو مايشير إلى أن المؤرخ المصرى - ضمن أنماط مثقفة كثيرة - حرص على أن يظل مستقلاً ، فى حين حرص أن يكون استقلاله لايتعارض مع (الخطاب الرسمى)، أو يختلف معه فى آن واحد.

* * *

---

(١) تم الاتفاق على أن يتحمل المسئول السعودى تكاليف السفر والإقامة (د. عبد الله شبل)، فى حين تبرع الشيخ الدكتور سلطان محمد القاسمى حاكم إمارة الشارقة وعضو المجلس الاعلى لدولة الإمارات العربية المتحدة بمبلغ ثمانين ألف دولار أمريكى لصندوق اتحاد المؤرخين العرب .

(٢) وهو ماحدث أثناء مناقشة اللائحة الأساسية فى فندق الميرديان يوم الأحد ١٩٩١/١٢/٨ ، وقد تم رفض تغيير البند أ من المادة ٥ التى تقول إن الاتحاد يتكون من : "الباحثين المشتغلين.. فى مختلف عصور التاريخ القديمة والوسطى والحديثة"

(٣) يؤكد د. يونان لبيب رزق (محضر نقاش ١٩٩١/١٢/١١) بأن المؤرخين المصريين اشترطوا بقبول التمويل العربى شرطين أساسين :

- لايشترط عليهم أى التزام .

- أن المعونة مؤقته، والمفروض أن للاتحاد موارده .

ويشدد على أن المصلحة كانت مشتركة، هم يريدون نقل الاتحاد من بغداد ، حسن، ونحن نريد نقله الى القاهرة ، بدون شروط سياسية .. وقد كان .

قضايا الخطاب الرسمى

(١) الديموقراطية

الذى يرصد التطور الفكرى منذ عصر النهضة العربى حتى الآن يلحظ تكرار قضايا فكرية كثيرة فى كل حقبة، وهذه القضايا تثير كثيراً من الأسئلة التى تصب جميعها فى سؤال واحد أساسى، هو، الديموقراطية.

وهذا السؤال يظل مفتاح الكثير من هذه الأسئلة .

إن القضايا الكثيرة وماتنتهى به إلى إشكالية الديموقراطية تتخذ فى وطننا العربى خاصية محددة، فهى، رغم خطورتها، لاترصد جزئياتها وظروف نشأتها وتطورها، أو تراكمها والحوار بين المراحل واتجاهاتها ومعطياتها إلا فى مايتعلق منها بأمر الوصول إلى السلطة وأشكال احتكارها والاستئثار بها[١] .

ويزيد الأمر سوءاً أن عدم الوعى بهذه الإشكالية، والخلط فيها بين ديموقراطية الحاكم وديموقراطية الأمة لايظهر إلا بعد وقوع كارثة دائماً .

وتتبدى خطورة ذلك أكثر فى جانب المثقف العربى فهو فى سبيله لعدم التمييز بين الاثنين: الواقع والمثال يقع فى أسر التكريس للحاكم فى مجتمع تظل السلطة فيه مركزية، وتتحدد العلاقات الاجتماعية والسياسية بمنطق النظام الأبوى أو البنية الأبوية الشرقية، وهو مايرتبط بقدر كبير من التبرير لهذه السلطة (وليس الركون لقانونها فقط) .

وعلى هذا النحو، فحين نصل إلى موقف المثقف من قضية الديموقراطية نكون قد وصلنا إلى موقف النظام القائم فى المجتمع العربى من قضية الحاكم المهيمن وصاحب الخطاب الرسمى.. وقد بدا موقف المثقف تابعاً تماماً لموقف النظام ومبرراً له وسائراً تحت مظلته.[٢]

---

(١) الحياة ٢٩ نوفمبر ١٩٩١ مقالة هامة لوجيه كوثرانى بعنوان (المشاركة السياسية فى العالم الإسلامى) .

(٢) مع بعد المثل زمنيًا ، فلابد أن نشير إلى الاجتماع الذى تم بين الرئيس مبارك والمثقفين فى أول أيام معرض الكتاب ٤يناير ١٩٩١ وفيه راح البعض يشيد بالنظام (يقصد به رياء الرئيس مبارك) الذى لم يلجأ للديموقراطية (الجهجهون) كما حدث فى الجزائر وإلا كان حالنا قد أصبح مثلها، وهو مايشير صراحة فيه الى أن الرئيس كان أبعد نظراً فى التعامل مع قيمة الديموقراطية عن المثقفين والسياسيين .

كان هذا هو الواقع العربى عشية غزو العراق .

وكان هذا هو موقف المثقف العربى.

وهو مايفسر به مثل هذه العلاقة بين المثقف والسلطة.

لقد كان الاقتناع الأول أن تطوير الحزب الوطنى هو ضرورة لتطوير الديموقراطية، فثمة علاقة منفذة قد تقدم بها النظام السائد إلى الرأى العام

كان من المؤكد أن غياب الديموقراطية الحقيقية وراء احتكار عدد معين من النظام لصنع القرار السياسى، وقد كان أبلغ مثال على ذلك ماحدث فى مؤتمر القمة العربى من اتخاذ لقرارات سياسية فى غيبة للرأى العام الممثل فى أصحاب الرأى وتباين القرارات لأسباب ليس هنا مكان للإسهاب فيها.

وقد أدى ذلك كله إلى منح الحاكم سلطة مطلقة فى اتخاذه للقرارات، وهو ماأدى إلى الممارسة غير الديموقراطية التى أدت إلى ظهور ظواهر مترابطة ، منها « ظهور الثقافات المضادة للدولة التسلطية، وازدياد حركيتها السياسية وفاعليتها الاجتماعية، وقدرتها على تعبئة الجماهير، والمثل البارز لها على الإطلاق هى حركات الإسلام الاحتجاجى » ، بآثارها وذيولها السلبية، فضلاً عن أن التيار العلمانى الذى كان فى سبيله لتطوير (نموذج) مثالى للمثقف، انتهى به الحال إلى حالة من فشل المثقفين العلمانيين والديموقراطيين فى تحقيق أو إحداث التغيير الاجتماعى.وفى نفس الوقت النجاح الواضح للمثقف الإسلامى(١) .

فإذا اقتربنا أكثر من حرب الخليج لأدركنا إلى أى مدى دخلت خطابات الاستبداد والديموقراطية والعقيدية صراعات حادة بدت نتائجها الفعلية فى استحواذ الخطاب الأول – الديكتاتورى – على الجماهير والرأى العام، فى حين بدا تأثيره فى المثقفين تأثيراً سلبياً خطيراً ..

ويزيد من هذا الأمر خطورة أن الخطاب العلمانى أو القومى لم يصل فى مصر إلى درجة أن يتحدى الخطاب الرسمى لما له من إمكانات كبيرة. وهو مايفسر به بروز دور الحزب الوطنى مستمداً قوته من سيطرته على الدولة كلها حيث لايوجد للحزب خطاب سياسى منفصل أو مختلف عن خطاب الدولة وهذا العنف يعكس أزمة الحزب الوطنى(٢) .

---

(١) *السيد ياسين، الازمة الثقافية ومستقبل المجتمع المدنى العربى ، جدلية التنوير والتحرر ، مخطوطة، ص ١٤ ، ١٥*

(٢) تقرير مركز *الدراسات السياسية بالاهرام، السابق ص ٤١٨*

معنى هذا ببساطة أن الخطاب المثقف ظل محدداً بحركة الخطاب الرسمى للحزب الوطنى متأثراً به، غير قادر على مغادرته .

لقد راح مثقف النظام - الحزب أو الموظف أو النفطى - يُركز فى إدانة الوجود العراقى على الكويت، ويذكرنا كثيراً بممارسات هذا النظام الوحشى ضد أكراد العراق وشيعته، وكأن (حلبجة) - المدينة الكردية التى ذبحت عن بكرة أبيها عام ١٩٨٨ - لم تكتشف إلا اليوم، وراح أكثر المثقفين اعتدالا داخل الخطاب الرسمى يجتر الموقف الرسمى ويعيد إنتاجه من آن لآخر بصوت عال، وبتكرارممِل سخيف، وعلى الجانب الآخر، راح النظام يقبض على الرأى المخالف بيدٍ من حديد، فيتم الاستغناء على من يجد فيه ميلاً للعراق - كما حدث أول فترات الأزمة - وتم التضييق على شخصيات المعارضة كرفض سفر بعض الصحف العربية وتشديد اليد على رسامى الكاريكاتور الذين يسعون للخروج على النظام.

وعلى هذا النحو، عثرنا على المثقف المطلوب.

وباختصار، فإنه فى حين لم يتوقف الخطاب الرسمى - عبر الحزب الوطنى - عن التنبيه إلى وهم الديموقراطية إلا أنها نقيض الديكتاتورية التى يمثلها صدام حسين، فإن أحداً من المثقفين لم يشر إلى افتقاد مثل هذه القيمة (فضيلةالديموقراطية) ليس فى العراق وحسب، وإنما فى كل الاقطار العربية مع تفاوت فى نسب الجرعات التى تعطى هنا أو هناك، وشغل الجميع فى الهجوم على طاغية العراق والدفاع عن النظام السائد.

وقد كان ذلك الموقف وراءه الوعى أو الوعى المغيب لخطاب المثقف الرسمى .

لقد علت نغمة الحديث عن غياب الديموقراطية، وراح مثقف معروف يرفِعِ عقيرته تباكياً - فى الفترة الأولى للأزمة خاصة - على ضياع هذه القيمة فى العراق، محملاً صدام حسين، وحده، رذيلة الغزو، وكثيراً ماوصف المثقفين الأخرين الذين مالوا إلى تأييد صدام حسين من أجل الشعب العراقى لامن أجل صدام وحده بأنهم يعانون من « قصور فى التفكير، إن لم أقل نفاقا »[1].

---

(١) الأهرام ٧/٣/١٩٩١

وإلى جانب لوم المثقفين فإنه يرى أن الجماهير "فى حاجة الى توجيه وتوعية" كما أن الناس بجموعهم عنده لم يعتادوا "إمعان التفكير" ، وهو مايرسم إطار المثقف الرسمى الذى ينعزل عن غيره من المثقفين والجماهير دون الاقتراب بالفهم أو التوجيه الواعى "الممكن" .

بل راح يتجاهل الحاضر العربى، فيتهم أولئك، بأنهم «لوكانوا قد تصدوا بحزم لهذا النظام فى الوقت المناسب، لما وجد الأمريكان، أو غيرهم فرصة لهدم العراق كما يفعلون الآن»[1].

وقد يكون ذلك صحيحاً لو أن الأمر اقتصر على الأقطارالعربية لا العراق وحده، ولو كان هذا المثقف لعب مثل هذا الدور فى أية مرحلة من حياته، إذ أن كل قطر عربى يعانى من افتقاد هذه الديموقراطية بشكل أو بآخر، وحين أشار إلى ذلك – فيما بعد– فقد كانت إشارته تصب، فى السياق الأخير، فى خانة الهجوم على النموذج العراقى، فإن هذا النموذج (قد نبهنا) – لاحظ استخدام ضمير الجمع هنا – إلى أن التنازل عن الديموقراطية من أجل هدف آخر، هو فى ذاته مبدأ فى غاية الخطورة، وهو ماأعاده أكثر من مرة.

وهو ما وجدناه لدى المثقفين الآخرين .

لقد كان أكثر مايلفت النظر فى مثقف حزب (الوفد) هو دفاعه المستميت عن الديموقراطية على اعتبار أن هذه القضية تعكس موقفه من الحزب الحاكم حينئذ، وهو موقف – كما أشرنا – يؤثر السير فى ركابه، فضلاً عن عامل آخر كان يرتبط بالنظام بشكل عكسى، إذ أن تركيز مثقف (الوفد) على الديكتاتورية يحرك فى العقل الباطن كراهية الحاكم الفرد الذى طالما عانى منه أولئك فى الخمسينيات والستينيات، ومن هنا، فان الهجوم المستمر لمثقف حزب الوفد وكوادرة السياسية إنما بدت تصب جام غضبها على الطاغية (العراقى) بوجه خاص.

ومن الإنصاف أن نشدد على أنه وإن بدا المثقف الوفدى يتحالف مع النظام بشكل وثيق، فإن هجومه على الطاغية، لم يخل من هيمنة الفكر الليبرالى ضد الحاكم الفرد، وهو فكر له تراث طويل فى التجربة الليبرالية فى مصر قبل ثورة ١٩٥٢، وهو مايظهر واضحاً لدى صلاح العقاد ومنى مكرم عبيد ومحمد عصفور.. وغيرهم.

وفى هذا الإطار يمكن فهم كتابات د. محمد عصفور الكثيرة، خاصة، فى الفترة الأولى من الأزمة، فرغم أنه شغل كثيراً بالعصر الأمريكى، فإن (أزمة الشرعية) مثلت لديه مساحة شاسعة [2] فى الموقف من الغزو العراقى وبواعثه، فقد تميزت كتاباته بالحديث عن

(١) *السابق*

(٢) *يبدو أن كتاب د. محمد عصفور الذى صدر فى ذلك الوقت بعنوان (كارثة الخليج.. وأزمة الشرعية فى العصر الأمريكى)، القارئ العربى، القاهرة ١٩٩١ ... قد بدأ دراسته هذه أو وضعت خطوطه العامة قبل حرب الخليج، مما يؤكد رأينا من أن الشرعية الدستورية تظل هاجس المثقف الليبرالى الوفدى .*

الديموقراطية والحرية ذلك أن مصلحة أعداء الأمة العربية فى استمرار الحكم الفردى الاستبدادى لأنهم يدركون أن المصير الحتمى لهذا الحكم إلحاق الهزيمة والعار فى معركة الحياة أو الموت المفروضة علينا[1] .

وهو يحذر دائماً من الانقلابات العسكرية التى تدعى لنفسها (الزعامة) المطلقة، مؤكداً فى وضوح شديد أن النموذج العراقى شبيه بالنموذج المصرى – عبد الناصر –، فبينما ربط عبد الناصر مصر عسكرياً بالتدخل فى اليمن، فإن الحاكم العربى الطاغية – صدام – هو كالإبن الضال الذى يمثل كارثة تصيب الأهل.

والحاصل أن التركيز على افتقاد الديموقراطية اقتصر على إبراز نقيضها الآخر، والتى تتحدد أساساً فى ظاهرة صدام حسين دون أية إشارة إلى الديموقراطية بإطارها الدستورى الواسع، فمن الغريب أن ذلك كله من إدانة مثل هذه الأنظمة غير الديموقراطية كان يفسح له مجالاً شاسعاً بالتركيز على صدام حسين وحكمة فقط، لم يشر أحد – أو يربط أو يلمح – إلى ماحدث من النظام المصرى حينئذ من إجراء دورة انتخابية – فى ٢٩ نوفمبر ١٩٩٠ – زادت فيها من هيمنة الحزب الرسمى وزاد انفراد الحكومة بتعديل القوانين الانتخابية وإصدارها دون إفساح المجال لمناقشتها وخلو هذه القوانين من الضمانات التى تكفل سلامة وحيدة العملية الانتخابية.

ومن الغريب حقاً أنه فى حين أعلنت أحزاب المعارضة – وفى مقدمتها حزب الوفد– مقاطعة الانتخابات النيابية، فقد انتهت كلها، فى حضور هذه الأحزاب وتحت عيونها، إلى مزيد من تكريس سيطرة الحزب الحاكم على المجلس النيابى، على حساب دور المعارضة، فى حين لم يجرؤ أى منها إلى التحدث – فى مقارنة نيابية – عن النظام الديموقراطى فى مصر والنظام الديكتاتورى فى العراق، وعادت منظومة الهجوم على الطاغية فيما بعد بشكل أكثر من الفترة الأولى للغزو، بل بشكل أكثر غلواً من الحزب الوطنى نفسه.

---

(١) جريدة *الوفد* ٩ *أغسطس* ١٩٩٠

(٢) قضية فلسطين

وتكون فلسطين أكثر القضايا ظهوراً فى الواقع الجديد، فهى ليست القضية المركزية فى الوجدان العربى وحسب، وإنما – أيضاً – القضية التى اتخذت شكل الوعى / الكارثة فى تاريخنا، وقد كان على أى حاكم، لأهمية القضية أن يسعى للإفادة منها سلباً أو إيجاباً .

وهو الدافع وراء موقف صدام حسين من هذه القضية. وقبل أن نصل الى موقف صدام نسأل عن مكانة القضية قبل غزو العراق للكويت، ومن ثمٌ ، كيف أصبحت فى الوجدان العربى المثقف.. ؟

كان الشعار الذى طرحه جمال عبد الناصر فى فترة المد القومى هو:

(الوحدة هى طريق تحرير فلسطين)

ثم جاءت فترة تالية ليطرح سؤالاً مغايراً:

(تحرير فلسطين هو طريق الوحدة)

ثم جاء الخطاب الساداتى، ليستبدل، بخطاب الوحدة أو فلسطين خطاباً ثالثاً ، هو، تحرير مصر العربية أولاً ، فالطريق إلى تحرير فلسطين أو تحقيق الوحدة، لابد وأن يمر بتحرير مصر، فى زمن عز فيه الوعى العربى وزاد فيه المّد الغربى.

وقد شهد الفلسطينيون منذ رحيل عبد الناصر تحولات جذرية أثرت عليهم كثيراً عقب ١٩٦٧ مروراً بحصارهم وقتالهم فى بيروت والأردن ، والخروج إلى الشتات الطويل فى عالم أمريكى أو إسرائيلى أو عربى يضيق الخناق عليهم.، وهو مـاأسهم كثيراً إلى الدفع بهم الى دائرة صدام حسين.

لقد جاء الزمن العربى الممزق، والديموقراطية الغائبة، فتحولت فلسطين – مع قيم ومبادئ كثيرة – إلى مادة لتبرير الحكومات العربية لَمواقفها وعجزها، فتحولت – بالتبعية – إلى دائرة الإغراء العراقى وسقطت فيه.

ولم يكتف العراق باستقطاب الفلسطينيين، بل دعا، فى فترة من فترات أزمته ، إلى الربط بين الانسحاب العراقى من الكويت وانسحاب اسرائيل من الأرض المحتلة.

وعلى هذا تحددت المواقف.

الغرب وفى مقدمته الولايات المتحدة الأمريكية يرفض الربط.

والموقف الرسمى المصرى يرفض أيضاً .

والخطاب الرسمى / المثقف الرسمى، راح،يفسر موقف صدام، بأنه لايعدو تبرير الغزو وتبرير عدوانه للاستيلاء على الكويت كورقة ضغط من أجل تحريك القضية الفلسطينية.

لقد كان ذلك الطرح من جانب صدام حسين يستوجب تضييع الوقت، والدخول فى متاهات خداع الفلسطينيين أنفسهم بهدف منح العراق مناورة، تحسن من موقفه الصعب، ومع ذلك، راح الخطاب الرسمى يهاجم هذا الربط من قناعة أكدها النظام السائد وتبناها .

لقد أصبح الفلسطينيون يدفعون ثمناً فادحاً للتناقض العربى .

وأصبحت القضية الفلسطينية الآن تحسب من مشاكل صدام حسين .

كان أول مافعله المثقف الرسمى أن راح، فى معرض هجومه العنيف على الفلسطينيين يتهمهم صراحة بأنهم يمثلون فى العالم العربى « طابوراً خامساً »[1]، وتردد « اللامعقول العربى للنيل من الشعب الفلسطينى[2]، فقضية فلسطين الآن تحولت إلى قضية ميتة ماتت وشبعت موتاً ، بعد أن قتلها قادة الفلسطينيين وعلى رأسهم ياسر عرفات » ، وعرفات هذا كان وراء تأييد الفلسطينيين لصدام حسين.

والغريب أن المثقف المصرى، كان يجد الفرصة مواتية ليردد الإشاعات التى كان يرددها الغرب والإسرائيليون بوجه خاص للنيل من الوجود الفلسطينى نفسه فى الأقطار العربية، إننا نسمع هذه المهاترات فى الصحف القومية، وعلى لسان أكثر المثقفين نفوذاً وتجاوزاً الفلسطينيون لايريدون العودة إلى أراضيهم التى باعوها إلى اليهود ولا القادة الفلسطينيون يطمعون فى استرداد تلك الأرض[3]، وإن مايريدونه الفلسطينيون الآن هو أن يزحفوا إلى أقدام ديكتاتوربغداد .

ويتركز الخطاب الرسمى على ياسر عرفات فيوجه إليه عبارات السخرية المرة، التى تخلو من الحيدة أو التحليل الموضوعى [4].

ويغلو كثيراً آخر فى هذا الموقف من السخرية بعرفات، والنيل من الفلسطينيين، ويرفض رفضاً حاداً الربط بين القضيتين – الكويت وفلسطين – ويبرر عراب «كامب ديفيد» انضمام

---

(١) يتردد هذا الوصف (طابور خامس) فى أكثر من موضع فى كتابات ابراهيم سعده رئيس تحرير أخبار اليوم ورئيس مجلس الإدارة، وهو مايدفع بآخرين للرد عليه بعنف شديد .

(٢) الاهرام ١٩٩١/٢/٥ فى مقالة لفهمى هويدى بعنوان (اللامعقول العربى) .

(٣) أخبار اليوم ١٩٩٠/٩/٨ .

(٤) أخبار اليوم ٢٧/ ١٠/ ١٩٩٠ .

ويقول عن عرفات ، على سبيل المثال، بأنه فارس – سخرية منه – وحين يعرض عرفات مبادرة لإنقاذ العراق يتحدث عنه فيرى أنه لايرى "حمرة الخجل ، وصفرة الحقد والكراهية تملأ وجه أبو عمار" .

الفلسطينيين إلى صدام بأن ذلك يعود الى اقتناعهم بأن قوته درع للشعب الفلسطيني . ويغلو أنيس منصور أكثر فى تفسير هذا الموقف، فيرى أن مصر قد حررت أرضها فى (كامب ديفيد) دون الاهتمام بأراضى الفلسطينيين الذين لم يستطيعوا - خلال ياسر عرفات ورجاله - إلى تلبية دعوة مصر إلى المفاوضة مع إسرائيل[1] .

وأنيس منصور يقصد هنا رفض منظمة التحرير الفلسطينية حضور مفاوضات مينا هاوس عقب رحلة السادات للقدس.

إن محمد سيد أحمد، وهو من كتّاب الأهرام، يرفض هذا المنطق الذى تردد طويلاً أثناء الأزمة ومن أطراف كثيرة فى الخطاب الرسمى، فهو يفسر ذلك فيقول بما يشير إلى رفض هذا المنطق الأنيسى الرسمى، وهو قول يغرينا باجتزائه هنا :

(- من المعروف أن موشى ديان - وقد كان برفقه د.بطرس غالى فى السيارة التى نقلته من المطار إلى تل أبيب أثر هبوط السادات فى إسرائيل - قد أكد للدكتور بطرس أن السادات من حقه أن يقول مايشاء فى خطابه بالكنيست. ولكن لنا رغبة واحدة فقط، هى أن يخلو الخطاب من أية إشارة إلى منظمة التحرير !..وقد خلا خطاب السادات فعلا من ذكر اسم المنظمة على أى نحو)[2] .

وهو مايشير مع توالى الأحداث إلى رفض إسرائيل للتفاوض مع المنظمة مع تطور المواقف التكتيكية للفلسطينيين فيما بعد، فقد سعت إسرائيل لرفض التعامل مع الفلسطينيين وعزل مصر عن العرب وتحييد دورها فى المنطقة.

وعلى هذا، يشير الهجوم المستمر إلى عدم الربط بين القضيتين، ويغلو بوجه خاص فى الهجوم الحاد على من أساء إلى الشعب الفلسطينى، ومن أساء إلى الشعب الفلسطينى ثلاثة يحددهم أعلى إيقاع فى سمفونية الخطاب الرسمى بأنهم « ياسر عرفات وياسر عرفات وأبو عمار » [3] مستدرجاً ومستعدياً الشعب الفلسطينى على ياسر عرفات بعنف يرضى به عناصر الخطاب الرسمى ويكرس له.

وقريب من هذا يتحدد خطاب المثقفين الرسميين، فهم لاينطلقون فى الغالب من رأى خاص بهم، وإنما من الخطاب الرسمى للحزب الوطنى، الحاكم.

وهو مانعثر عليه داخل أجهزة الحزب وخارجه.

* * *

---

(١) *الأهرام ٢٣/ ١٠/ ١٩٩٠*

(٢) *الأهالى ٨/ ١/ ١٩٩٢*

(٣) *الأهرام ٢٦/ ٨/ ١٩٩٠*

ثانياً :

الخطــاب اليســارى

الخطاب اليسارى هو الخطاب السياسى الذى يمكن أن نميز فى إطاره عدة خطابات فرعية، تتجانس فى مواقفها إلى حد بعيد، ويمكن أن نرصد فيه جملة من التصورات والمفاهيم عن الأزمة بمنطق يبدو الترابط فيه أكثر من التفكك.

ويمكن أن يشمل الخطاب هذه التفريعات:

- حزب التجمع الوطنى التقدمى .
- الحركة الشيوعية المصرية .
- التيار القومى الناصرى .
- عناصر يسارية مستقلة .

وثمة ملاحظة فى هذا الصدد لابد من الإشارة إليها، وهى أنه يسهل إحداث التداخل بين التصورات أو المفاهيم فى هذه التفريعات وإن بدت متجانسة إلى حد بعيد، وعلى سبيل المثال، فإننا سوف نتعامل مع تفريعتين اثنتين فى الخطاب اليسارى على أنهما تفريعة واحدة: مثقفو حزب التجمع وممثلوه، ومثقفو حركة الشيوعيين المصريين، على اعتبار أن

الفصل سيكون شكلياً فقط، فمن الصعب التعامل مع قوى اليسار فى حزب التجمع بمعزل عن مثيله فى الحركة الشيوعية المصرية المصرية، فكلاهما ينتميان إلى دائرة اليسار المصرى، فضلاً عن أن وجهة النظر لهذا اليسار المصرى تجانست إلى حد بعيد فى لحظة تاريخية محددة، وهو تجانس يظل أقرب إلى القطبين المتجاورين فى دائرة واحدة .

ولانحتاج لبرهان عملى على ذلك، حين نلاحظ أن وجهة النظر لدائرة اليسار بأقطابها البعيدة تترامى إلينا عبر صحف ومجلات اليسار المصرى فى تداخل تؤكد وحدة المفاهيم المرجعية، وشدة التوافق إزاء ظاهرة أخرى مناقضة .

وعلى ذلك، فإنه لايحول الانفصال فى الشكل أو التمثيل السياسى الرسمى (القانونى) أو غير الرسمى دون اتصال مؤكد يحدد الإنتاج الفكرى.

وما يقال عن تفريعات الخطاب اليسارى يمكن أن يقال عن تفريعات الخطاب القومى – الناصرى – بما يؤكد جملة التصورات التى تعالج إما على المستوى الأفقى – تحديد المواقف المباشرة – وإما على المستوى الرأسى – تحديد القضايا الكيفية ..

وهو مانلتقى به أكثر حين نهبط الى واقع أزمة الخليج .

١ ـ حزب التجمع والحركة الشيوعية :

تطور الخطاب السياسى لمثقفى حزب التجمع إبان الازمة وعبر تطورها، إذ أن ردود أفعاله المتوالية حددت مواقفه .

فمنذ البداية طالب العراق بالانسحاب من دون إدانة محددة أو توصيف لعملية الغزو ذاتها(١)، وتلا ذلك توضيح الموقف أكثر فى البيانات التى ربطت بين إدانة الغزو والمطالبة بحل عربى، وشددت على ضرورة الانسحاب المتزامن للقوات العراقية والقوات الأجنبية(٢) .

وقد تميز خطاب حزب التجمع، منذ الفترة الأولى، بالدعوة إلى صياغة نظام عربى يقوم على الديموقراطية – كما سنرى – وتحقيق قدر من العدالة لكل الشعب، وفى حين رفض حزب التجمع صراحة الهيمنة الأمريكية على المنطقة، فإنه حرص على الاعتراض على

---

(١) انظر بيانات التجمع وتصريحاته التى صدرت فى ٤ و ٥ و ١٢ و ١٦ أغسطس ، ويمكن القول إن بيان ١٢ أغسطس كان أكثر البيانات دلالة وحسماً مما نشأ عنه بعض الانشقاقات على الحزب .

(٢) بيان ١٥ أغسطس ١٩٩٠ .

موقف الحكومة المصرية لأنها ترحب بالتواجد العسكرى الأمريكى على أرض الوطن العربى .

ويمكن القول أن تركيز حزب التجمع على الهجوم على التدخل الأجنبى وإدانته كان أكثر من التركيز على أمر آخر يرتبط بالأزمة، وقد كان هذا الموقف هو الذى ربط – فى الغالب – بين قوى اليسارى المصرى بدءاً من الحزب وبياناته الرسمية إلى الحركة الشيوعية وتأكيداتها المتوالية .

وسوف نرى فى استعراض كافة آراء مثقفى اليسار تناقضاً يبدو فى الظاهر أنه يخرج عن الموقف العام، غير أننا عند المراجعة، وإمعان النظر، سنرى، أن تباين هذه الأراء والأفكار سيكون جزءاً من خطاب واحد .

ويمكن رصد هذا الخطب عند كثيرين أمثال: فيليب جلاب وشريف حتاتة ومحمد سيد أحمد وفؤاد مرسى وحسين فهمى وأمينة شفيق وخليل عبد الكريم والأخوين جلال وحسين أمين ونوال السعداوى ومحمد فرحات ولطيفة الزيات ورفعت السعيد ، وعديد من ممثلى الحركة الشيوعية أمثال محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس ونبيل الهلالى وحسين عبد الرازق وفريدة النقاش .. وغير أولئك كثيرين .

ويظل فيليب جلاب رئيس تحرير جريدة (الأهالى) – لسان حال حزب التجمع – أكثر من عبر عن توجه الحزب، فقد كان الحرص مؤكداً منذ البداية على عدم التوقف فقط أمام إدانة الرئيس العراقى، وإنما الأخطر هو التوقف طويلاً أمام الخطر الأمريكى والغربى، بل ذهب فى بعض المرات إلى أن رأى التشبث بإدانة العراق وحده يعد من قبيل مناقشات أكاديمية من الصعب الاستمرار فيها أثناء اشتعال الحريق(١) .

وفى مرة أخرى الى أن تحميل صدام حسين وحده مسئولية مجيء القوات الأمريكية والتوقف عنده إنما يعنى علاج جريمة بجريمة أخرى(٢)، ملخصاً خطابه العام فى عبارة واحدة أنه يرفض تحرير الكويت بالطريقة الأمريكية(٣).

---

(١) *الأهالى* ١٥/ ٥/ ١٩٩٠ .
(٢) *الأهالى* ١٠ / ١٠/ ١٩٩٠ .
(٣) *الأهالى* ٢٩/ ٨ / ٩٠ ، *وأيضا* ١٣ / ٢ / ١٩٩١ .

وحين اشتد الكرب، وبدا أنه لاقدرة لأحد على إخراج القوات الأمريكية من المنطقة العربية اختار أن يتم ذلك بقوات عربية على أن يكون انسحاب متزامن للعراق وأمريكا[1] .

كما راح ممثل الاتجاه الشيوعى - محمود أمين العالم - يعود الى جذور الأزمة بين العراق والكويت، فيتحدث عن افتقاد الديموقراطية وسيادة حكم العشائر وتبعية الأقطار العربية للغرب، لينتهى من ذلك كله إلى ماسبق أن انتهى إليه سلفه من أنه لاحل بغير انسحاب القوات العراقية، ولكن كيف يتم ذلك، لا سبيل اليه فى ظل وجود تهديد الجيوش والأساطيل الغربية[2] .

وإذن لاحل بغير التزامن فى خروج القوات العراقية والغربية .

وعلى ذلك، بدأ الحوار أو السجال العنيف بين المثقفين .

وخلال توالى الأفعال وردودها اتضح أكثر موقف اليسار .

وراح فؤاد زكريا، كما رأينا فى القسم الأول، يحارب بسيف النظام السائد، ويخبز أمير الكويت، ويستميت فى ذلك، فيهاجم من رفضوا إدانة اليسار - وأن مشروعية الحرب ضد صدام حسين هى الآن ماتبقى للعرب الذين يتحدثون عن نظرية (المؤامرة) بينما هم الذين يجيئون بها .

وعلى ذلك، كانت الفرصة سانحة ليعاود اليسار المصرى دفاعه: فيليب جلاب ومحمود أمين العالم؛ وإن كان أكثرهم عنفا هو فوزى منصور .

لقد راح منصور يرد بحدة على الرأى الآخر، ورأى أن الحرب فقدت مشروعيتها حين اتجه الأمريكان الى تدمير الشعب العراقى وليس طاغيته ، فشعب العراق ضحية مثله كشعب الكويت تعرض للإبادة بسبب تجرؤ بلد عربى على تحدى الخط الأحمر الذى وضعه الغرب والصهيونية لدى ارتفاع قدرات أى بلد عربى للصناعة والتكنولوچية العسكرية[3] .

معنى ذلك أن تفكير البعض منهم - فؤاد زكريا - ينفى أية مسئولية لقوات التحالف بعد اتهام من يعترضون على نسف البنية الأساسية للعراق لقصور فى التفكير والنفاق، يقرر

(١و٢) انظر إلى تفصيل هذا الموقف بإسهاب شديد فى الأهالى ١٠/١٠/١٩٩٠ .

(٣) الأهالى ٢٠ / ٣ / ١٩٩١ .

ببساطة وحتمية المنطق الشكلى الذى يبرع فى إساءة استخدامه، أن القاتل الحقيقى لهؤلاء الضحايا التعساء هو النظام الذى يحكمهم[1] .

والواقع أن فوزى منصور فى اتهامه للقوى الأجنبية راح يحملها المسئولية، غير أن تحميل المسئولية عنده تتخذ قبل ذلك طابع تحليل الواقع الكويتى المتسبب فى مجىء هذه القوات، فالوجه السلبى للكويتى يظل التعبير الحقيقى عن الشارع الكويتى صاحب الامتيازات وليس عن النخبة الحاكمة فقط، وعن تربية ومناخ حضارى وثقافى عام.

إن الثروة النفطية أفرزت نماذجاً شائهة سواء تمثلت فى الكويتيين أو المغتربين فى الكويت خلال عقدين فقط .

وحين عاد المثقف ثانية ليرد أو يدلل على وجهة نظره فى صحيفة اليسار التى أفسحت له صدرها رغم اتهامه لليسار وحمل حملة عاتية عليه إلى درجة النيل من عقلة وتقديره للمواقف[2]، عاد اليسار مرة أخرى ليتعامل مع ظاهرة زكريا بشكل أكثر علمية، وهو مافعله محمود أمين العالم .

والواقع أن محمود العالم مفكر واع، انتقد فكر أو مذهب جديد فى الواقع العربى باسم (الوضعية المنطقية) هو أقرب الى الفكر الشمولى[3] والتجزئية، وظل لأكثر من ربع قرن يفند عدم فاعلية هذا الفكر لمجتمعنا ، حين تصدى للمرة الأولى لزكى نجيب محمود الذى كان يبشر به منذ عاد من الغرب فى بداية الخمسينيات، وكان على العالم أن يعيد تفنيد هذا الفكر الوضعى فى مواجهة (المعلم الجديد) - كما كان يطلق على فؤاد زكريا.

لقد فسر موقف فؤاد زكريا بأنه لايعدو أن يكون امتداداً لمنهج جزئى يمكن أن يطلق عليه (العقلانية الإجرائية)، وهو منهج يراه يكتفى بالوقوف عند ما هو لحظى جزئى مباشر فى الظواهر دون الاستيعاب الفكرى الشامل لآلياتها المتداخلة المتفاعلة المختلفة[4]

---

(١) الأهالى ١٠ /٤/ ١٩٩١ .

(٢) الأهالى ١٧/ ٤ /١٩٩١.

(٣) مصطفى عبد الغنى، زكى نجيب محمود ، سلسلة (نقاد الأدب)، هيئة الكتاب ، القاهرة١٩٩٢، وفى الفصل الأخير تفصيل لرأى زكى نجيب محمود فى (الوضعية المنطقية) ورد محمود أمين العالم عليه.. يمكن العود إليه لمن يريد.

(٤) الأهالى ٢٤ أبريل ١٩٩١.

معنى ذلك أن فؤاد زكريا – بحسب العالم – يقف عند الغزو العراقى للكويت دون أن يمتد بصره الى أبعد منه، دون أن يمتد بصره إلى المظلة النفطية الأمريكية فى إطار نظام عالمى جديد.

ليست القضية الآن هى غزو الكويت – وإن كان لاينكر ذلك ويدين صاحبه – وإنما تحولت إلى غزو الكويت والعراق وديار العرب جميعاً لتدميرها وإحلال المصلحة الغربية محل الكرامة العربية.

إن الغزو الأجنبى عند محمود العالم تجىء فى المرتبة الأولى يتلو ذلك حماقة صدام وتسرعه، وقد تكون حماقة صدام أو لاتكون، غير أنه من المؤكد أن المؤامرة الغربية كانت وستكون دون أى بواعث ومبررات .

إن قضية المؤامرة هى قضية المسؤولية الغربية .

الأكثر من ذلك، ان الصراع الان يجاوز صدام والكويت والمؤامرة .. إلخ الى أُطر أوسع وأبعد، هو، إطار الصدام بين الشمال والجنوب، بين الغرب الإمبريالى وحركة التحرر العربية الشاملة، وهنا تتوزع إدانة العالم فى اكثر من رمز .

إنه يدين رؤية فؤاد زكريا

وهو أيضا يدين رؤية فوزى منصور

الأول اقتصر على الرؤية الجزئية الإجرائية

والاخر على الرؤية المثالية الانفعالية

ومن هنا، انتهى محمود أمين العالم إلى تفهم مايحدث بالوصول الى تلخيص ماسبق فى هذه النقاط، وهى تعكس وجهة نظر اليسار المصرى:

- ضرورة التصدى للهيمنة الأمريكية
- تغير الأنظمة العربية المتخاذلة القابلة لهذه الهيمنة
- توفير الديموقراطية وحقوق الإنسان
- قضية فلسطين هى القضية المركزية
- تحقيق خطة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية

غير أنه مع بداية حرب التدمير من القوى الغربية انفرطت حبات المسبحة فى الخطاب اليسارى، وراحت تعمق أكثر من (خطابها) المعارض .

راح شريف حتاته يردد لا أستطيع أن أشارك فى الفرحة التى يبديها الكثيرون إزاء احتراق بغداد .. وحصار النظام « العراقى .. لأن الهزيمة ستكون للعرب جميعاً .. والنصر للاستعمار الجديد وإسرائيل » ، وراحت نوال السعداوى – بعد أن تحدثت طويلاً عن الكيل بمكيالين – ترحل الى العراق لتسأل هناك « هل أصبح الرئيس الأمريكى هو المنقذ »[1]، وتعود من الولايات المتحدة الامريكية ضمن وفد نسائى عالمى لتقول مايغرينا لاقتطاف مقتطعات كبيرة منها، لكونها، تعبر عن رأى اليسار المصرى فى أقصى درجات تعبيره ، تقول:

(على شاشة التليفزيون رأيت الوجه الحقيقى لجورج بوش، المسئوول الاكبر عن هيروشيما العرب التى تحدث اليوم تحت اسم حماية الإنسان الكويتى.

ثلاثون دولة استعمارية كشفت النقاب عن وجهها فى هذه الحرب الوحشية ضد الشعب العراقى .

إنها حرب الاستعمار الوحشى الذى يريد أن يقتل ملايين العرب من أجل البترول، وقد سبق لهذا الاستعمار الأمريكى الأوروبى أن قتل (بواسطة إدانة إسرائيل) ملايين العرب فى فلسطين ولبنان والأردن وسوريا ومصر.

ومن المضحك أن يعلن جورج بوش فى التليفزيون أنه يضرب العراق بآلاف القنابل والصواريخ المدمرة ليبدأ نظاماً عالمياً للسلام)[2]

وحين دارت آلة الحرب ودمرت العراق، وحطت المراكز الحيوية فيها، ولم ترحم القنابل الغربية النساء والأطفال، راح عدد كبير من اليسار يعلن أن يتنبه المثقفون أكثر لما جرى والدرس الذى يراد لهم ، على « الجميع أن يتعلموا من رأس الذئب الطائر » وراح آخر يدعو الآخرين ليستعرضوا فى ضوء ماحدث التاريخ الغربى من البوكيرك الى شوارتزكوف[3]، وأخذ ألمع محللى اليسار – محمد سيد أحمد – يتحدث مطولاً عن « أكثر لحظات الإمبريالية

---

(١) الأهالى ١٥ أغسطس ١٩٩٠

(٢) الأهالى ٢٠ يناير ١٩٩١

راحت تضيف نوال السعداوى تحت عنوان (دموية النظام الجديد) :

– لقد استطاع جورج بوش أن يحشد قواته وقوات ٢٩ دولة معه، ومع ذلك فهو عاجز عن التنبؤ بنتيجة الحرب، وهو بعد أيام قليلة من بدء القتال يطلب مزيداً من قوات الاحتياط عنده، ويعمل على إشراك تركيا أيضا فى الحرب ضد العراق .

(٣) الأهالى ٢٧ فبراير ١٩٩١ لمحمد عودة .

الأمريكية تألقا ،[1] وبعد انتهاء المذبحة، انتاب المثقفون الأحاسيس الجارفة من الحزن يغلب عليه إحساس حاد بالذنب .

والواقع أن (عقدة الذنب) كان أكثر مايمكن تمييزه منذ اشتعال الأزمة إبان الغزو العراقى، وهو إحساس لانفتقده فى مثقفى (الخطاب الرسمى أو الإسلامى)، وهو يظهر من المراجعات السريعة لوسائل الاعلام فى هذه الفترة، غير أنه يصل الى أعلى مدى له لدى (الخطاب اليسارى) .

وربما يكون هذا الإحساس وراء تأخير الكثير من المثقفين لإبداء رأيهم فى الغزو العراقى، أو اضطراب رأى البعض الآخر فى تناقضات لايمكن أن تفسر إلا فى هذا الاطار، أو انسياق البعض الثالث فى إبداء رأيه تحت ضغط الإعلام الرسمى سواء لصالح العراق قبل الأزمة أو ضدها بعد الأزمة، وفى جميع الحالات بدا موقف المثقف متردداً، وهو ماأثار بعض مسئولى الصحف لإثارة قضية مثل (تبعية) المثقف للنظام العراقى فترة ماقبل الحرب، وهو ما وجدنا له أمثلة كثيرة فى صحف هذه الفترة أو مجلاتها[2] .

إن محمود أمين العالم يتساءل مرتين:

« أليس مايحدث اليوم هوحصيلة تراكمات عديدة سابقة نحن جميعاً مسئولون بتغافلنا وسلبيتنا عن بلوغها .. أقصد المثقفين... من يستطيع أن ينكر أن الغزو العراقى .. نتيجة صمتنا المريب بل تواطؤنا بشكل أو بآخر »[3] .

وبعد المذبحة التى حدثت للشعب العراقى راح المثقف يخاطب المثقفين (الأنا = النحن) متسائلاً :

« هل أنتم سعداء بأن الكويت قد دمرت.. وآبارها الألف تشتعل .. و١٥٠ ألف قتيل من جنود الجيش العراقى وقعوا فى الأسر الى أجل غير معلوم.. غير القتلى..

هل أنتم سعداء بأن الأجنبى سيبقى .. وسيبقى ؟ .

---

(١) *الأهرام ٢٣ مارس ١٩٩١* .

(٢) *انظر على سبيل المثال هجوم سلامة أحمد سلامة على المثقفين بالأهرام ١٧ أغسطس ، ورد غالى شكرى فى سبتمبر ١٩٩٠، كما لايخلو من مغزى تناول الصحف وخاصة مجلة (الصحفيون) موضوع اختراق الإعلام المصرى، و"الإعلام العربى المتهم الثانى بعد صدام" انظر عدد مايو ١٩٩١* .

(٣) *محمود أمين العالم، الأهالى ٢٢ أغسطس ١٩٩٠* .

وراح يلقى بالملح على الجرح العربى الدامى:

« ماموقفكم الآن من احتلال العراق؟ »[1] .

وعلى هذا النحو، تبلورت رويدًا رويداً (عقدة ذنب) لدى المثقف العربى اليسارى (وإن لم نعدمه فى الخطابات الأخرى وإن بدا بشكل متخفى وخافت)، على اعتبار أن هذه العقدة تنسحب على المثقف (الجمعى)، وبمرجعية لاتعود الى بداية الغزو العراقى وحسب بل وإلى أبعد من ذلك بكثير، على اعتبار أن المثقف أكثر من غيره حساسية بمايحدث وانغماساً فيما يحدث .

وربما كان ذلك الموقف - عقدة الذنب - وراء دهشة الباحث لبعض مواقف مثقفى اليسار، فلا يمكن فهم تحول موقف مثقف واع مثل لطفى الخولى فى بعض فترات الأزمة الى مبرر للنظام السعودى فى موقفه من الغزو وطبيعة دائمة فى ذلك الوقت .

والواقع، أن هذا المؤقف يثير عجب المرء وبخاصة من عديد من شرائح اليسار فى وقت يسعى الغرب فيه إلى تدمير العراق وتركيعه .

إن إدانة العراق والتدخل الأجنبى معاً كان أكثر ماحرص عليه هذا المثقف، غير أن الميل الى الموقف الخليجى، خاصة عقب الحرب بشكل دفاعى هو مايثير تساؤلات عديدة .

لقد تلخص هذا الموقف الى الميل فجأة الى رؤية السعودية على أنها «الدولة المفتاح» فى هذه الأزمة[2] فيما يتعلق باحتمالات الحرب والسلام، وهو موقف وضح حين وضع فى موقف مناظر لموقف سابق، لقد رأى أن موقع السعودية يجسد التوحد بين الشرعية العربية وبين الشرعية الدولية ، مما يمنح خطاباً سياسياً جديداً للسعودية، ولهذا يصل بنا إلى نتيجة مؤداها أنه إذا كان نهجها فى الحكم والقيم الاجتماعية الأخلاقية، إسلامياً . فإن منطلقها السياسى فى التعامل مع أزمة الخليج وفى ترتيب بيت المنطقة وفى بناء النظام الإقليمى الجديد أمنياً واقتصادياً وثقافياً . هو قومى عربى .

وعلى ذلك، فالخطاب السياسى للسعودية هو الآن موقفاً قومياً، يعبر عن قضايا قومية: كفلسطين، وإعادة تنظيم الشعب العربى ، وتوظيف دور المثقفين، وهو مايترجم تصريح سعودى كبير فى ذلك الوقت .

---

(١) عبد الستار الطويلة ، *الأهالى ٢٧ مارس ومايو ١٩٩١* .

(٢) *الأهرام* ١١ /١٠ /١٩٩٠ .

ومهما يكن، ففى حين حرص الخطاب اليسارى على أن يدين الغزو العراقى، أو يلين فى التعامل مع الموقف السعودى، فإنه حرص – فى جميع الحالات – على إدانة الهيمنة الأمريكية لدورها المريب .

وهو مايعيد إنتاجه خطاب الشيوعيين المصريين .

* * *

من يتابع بيانات السكرتارية المركزية للحزب الشيوعى المصرى – وهو غير معترف به رسمياً – يلاحظ أن خطابه العام يدعو إلى إدانة الغزو العسكرى العراقى، ومطالبة الحكومة العراقية بالانسحاب الفورى من الكويت(١) .

ويلاحظ أنه بعد أن يسهب البيان طويلاً حول مطالبة للعراق بسحب قواته وبدون شرط من أرض الكويت واللجوء الى أسلوب التفاوض.. إلى غير ذلك، فإنه يكرر دعوته فى عدم إعطاء الفرصة لاحتمالات تدخل عسكرى من جانب القوى الإمبريالية وخاصة الولايات المتحدة وإسرائيل، مصرحاً بضرورة إدانة هذا الغزو العسكرى الامريكى .

وهذا الموقف من الخطر الغربى أكثر ما يميز موقف الشيوعيين المصريين.

وهو ما يدور فيه الخطاب الشيوعى بشكل كامل .

وقد كان من أبرز المواقف بعد ذلك ان شارك عدد ليس بالقليل من الشيوعيين المصريين فى بيانات تدين هذا الغزو، ومن شتى التيارات، ولعل أهم هذه البيانات هو الذى صدر الشهر التالى للغزو مباشرة، والذى عاد ليذكر بإدانة الغزو العراقى ووصف مخاطره الجسيمة «من جانب الإمبريالية الأمريكية»(٢)، وراح يضيف أن التطور السريع للأحداث منذ بداية الغزو العراقى، بما فى ذلك التصريحات العدائية للمسئولين الأمريكيين والاستعدادات العسكرية والبحرية الضخمة للأساطيل الأمريكية المتجهة الى الخليج بتفاهم تام مع بعض الدول الخليجية، وقد انتهى هذا البيان بعبارة تقول «ولاشك أن حكام الكويت بإصرارهم فى الشهور الأخيرة على إهدار الدستور واعتقال قادة المعارضة وتزوير الانتخابات وفرض الرقابة

---

(١) بيان السكرتارية المركزية للحزب الشيوعى المصرى ، فى ٤ أغسطس ١٩٩٠ ويمكن أن نلاحظ أن أغلب عناصر حركة الشيوعيين المصريين كان كل من محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس ونبيل الهلالى وحسين عبد الرازق وفريدة النقاش .

(٢) انظر (بيان من المثقفين المصريين)، الملحق (٣) نص البيان .

على الصحف لسنوات إنما يتحملون قدراً من المسؤولية فى تداعى الأحداث، وهو مايربط بين غياب الديموقراطية وحضور القوى الإمبريالية الاستعمارية .

وسوف نفصل هذا الموقف أكثر فى موضعه من هذه الدراسة، ونكتفى هنا بالتأكيد على العلاقة بين الديموقراطية والغرب من حيث وعى الخطاب اليسارى بالخطر الغربى سواء بالافادة من الأحداث السياسية أو الاقتصادية .

والملاحظة الجديرة بالاهتمام هنا، هى أنه رغم الميل لإدانة الغزو العراقى، فإن حدة الخلافات بين فصائل الحركة الشيوعية كانت باعثاً على اختلاف موقف هذه الفصائل -حتى- بالنسبة لاتخاذ موقف من الأزمة على مدى امتداد المرحلة، وهو ماكان له آثار على حركة التحرر العربى خاصة بعد هزيمة الجيش العراقى .

وتلاحظ إحدى التقارير السياسية أن هذا الخلاف امتد إلى داخل معظم فصائل الحركة الشيوعية من بدايات الأزمة وإصدار الحزب فيما بعد ثلاثة بيانات متوالية للتوصل الى وحدة - التحليل والموقف السياسى - ورغم أن أبرز الفصائل كانت من أسبق القوى السياسية التى سارعت بإعلان موقف رافض للغزو العراقى للكويت فى ٤أغسطس، لكن بعض الأصوات داخل الحزب دعت الى عدم إدانة العراق لأن هناك تدخلاً أجنبياً .

وقد أصدر الحزب بياناً ثانياً ضد الوجود الأجنبى إلا أنه أثار غضب بعض قواعد الحزب لتركيزه على الوجود الأجنبى على حساب مشكلة الكويت، الأمر الذى استدعى إصدار بيان تال عالج أزمة الخليج بأبعادها المختلفة وحاز إجماع الحزب، ويعكس هذا البيان جوهر موقف الحزب من أزمة الخليج، إذ يركز على إدانة الغزو والتدخل العسكرى الأمريكى الأجنبى ويؤكد حق شعب الكويت فى اختيار نظام حكمه مع اعتبار التدخل الاجنبى هو الخطر الأساسى حالياً على الأمة العربية .

على أية حال، فإنه باستثناء خلافات قليلة وبعض الصياغات، لايخرج خطاب بقية فصائل الحركة الشيوعية عن خطاب « حشم » تجاه أزمة الخليج : كالحزب الشيوعى الديموقراطى وحزب العمال المصرى الموحد(١) .

وقد كان محمود أمين العالم من أنشط عناصر الشيوعيين المصريين، وهو نشاط توزع فى عديد من الصحف والمجلات والندوات، وكان أكثر ما حرص عليه فى هذا كله مارادده

---

(١) تقرير مركز *الدراسات السياسية* ، *السابق*

من أن فكر الشيوعيين فى الأزمة لايخرج عن فكر قوى اليسار الأخرى سواء فى حزب التجمع أو خارجه أو الناصريين . كما كان حسين عبد الرازق حريصا على الفكرة المحورية فى الخطاب الشيوعى، وهو ما كان أكثر وضوحاً حين راح يتناول وثيقتين شيوعيتين عربيتين(١) فيشير إلى دور الولايات المتحدة من أزمة الخليج على أنه الدور الأول والأخطر، حيث إن الخطاب الشيوعى – على مستوى الأقطار العربية – كان يجمع على تفسير سلوك الولايات المتحدة الأمريكية بأنه يعود الى أطماعها المعروفة فى المنطقة خاصة بالنسبة للثروة النفطية، وهو الذى أعطى للأزمة كل أبعادها الخطرة والمدمرة(٢) .

لقد كان تحليل أسباب الأزمة لايغفل أهمها على الإطلاق وهو دور الولايات المتحدة، سواء فى تفجير الحرب العراقية الإيرانية ١٩٧٩ ، أو نصب شرك للعراق الآن لتحتل الكويت ثم تستثمرة لحساب أمريكا فقط .

٢ – المثقف القومى – الناصرى :

الخطاب القومى – الناصرى مثَّل خُصوصيةمغايره للخطابات الأخرى فى أزمة الخليج، وهى خصوصية نابعة من تكوينه التاريخى، وعلى اعتبار أن امتداده المعاصر يمثل واجهة من قوى التحرر العربى فى مقابل الاستعمار العالمى بقيادة أمريكا والرجعية العربية المتحالفة معها .

ورغم مايبدو من حدة الخطاب الناصرى، فإن هذه الحدة جاءت – فى الأساس الأول – من ارتباطه بحركة التحرر الناصرية حيث استدعت أزمة الخليج مرة أخرى عدداً من التحديات التى تعامل بها الاستعمار الأمريكى مع الحركة الناصرية مرة أخرى ، وبعد أكثر من ثلاثين عاماً على حرب السويس عادت قوى الغرب وزبانيته بأساطيلها وطائراتها وجيوشها تضرب قلب الأمة العربية .. تضرب بغداد عاصمة الرشيد، وهو ما جاء فى مقدمة البيان الأول(٣) .

---

(١) هما : *وثيقة الحزب الشيوعى الاردنى، وثيقة الحزب الشيوعى الفلسطينى .*

(٢) انظر *جريدة اليسار ، العدد ١٧ يوليو ١٩٩١*

(٣) *ويضيف هذا البيان :*

– بالامس كانت الحجة هى اغتصاب مصر لقناة السويس المصرية ، واليوم أصبحت الحجة هى حماية الشرعية الدولية المتهنة منذ أكثر من أربعين عاماً فى فلسطين ومنذ أكثر من ثلاثة وعشرين عاماً فى الجولان والضفة الغربية .

لماذا تنتظر قوى الغرب كل هذا الوقت عندما يتعلق الامر بإسرائيل ولاتستطيع الانتظار أكثر من عدة أشهر عندما يتعلق الأمر بدولة عربية .

وسرعان ماترددت فى بيانات هذا الخطاب عبارات من قبيل (القوات الأجنبية) و (الحملة الصليبية الجديدة) و (عدوان عسكرى لقوى الغرب) إلى غير ذلك مما يحدد موقف الحزب الاشتراكى العربى الناصرى الذى لم يعترف به رسمياً لأكثر من مرة، فضلاً عن بعض المثقفين المائلين إليه من خارجه.

ويمكن تلخيص الرؤية الناصرية فى الأزمة عبر أربع حلقات لايمكن فصل إحداهما عن الأخرى على هذا الترتيب:

* **الحلقة الأولى:** وهى سابقة على غزو العراق للكويت والتى تمثلت فى الاستفزازات التى قامت بها الكويت فى مواجهة العراق بعد انتهاء حربه مع إيران ، والتى تستفز مشاعر أى مواطن عربى.

* **الحلقة الثانية:** الغزو العراقى للكويت بقوة عسكرية استطاعت الأمة العربية تكوينها ووضع هذه القوة فى غير موضعها تماماً كما وضعت الأموال العربية فى غير موضعها.. وهى الأموال التى كان ينبغى لها أن تعيد للأمة العربية قوتها الاقتصادية والعسكرية ونفوذها السياسى.

* **الحلقة الثالثة:** وهى ماقام به بعض الحكام العرب من استدعاء لأعداء الأمة العربية لاحتلال أرضها ومياهها ومصادر ثروتها. ليعيدوا حلقة التاريخ حينما استدعى توفيق الإنجليز لينقذوه من ثورة الفلاحين بقيادة عرابى.

* **الحلقة الاخيرة:** هى الحلقة الراهنة التى تتآمر فيها أمريكا وحلف الأطلنطى وبصمت رخيص من الاتحاد السوفيتى لضرب القوة العربية العراقية التى برزت فى الآونة الأخيرة كى تبقى على قوة وسيطرة إسرائيل فى المنطقة واستمرار التخلف المفروض على الشعب العربى[(١)].

وعلى ذلك، نلاحظ أن التيار القومى هنا رفض إرسال قوات مصرية تشارك القوات الأمريكية فى غزوها أراضى عربية، كما دعا إلى التزامن بين سحب القوات العراقية والأمريكية وإرسال قوات عربية إلى منطقة الصراع لإعادة الأوضاع كما هى.

ويبدو أن موقف الخطاب الناصرى كان أقرب إلى قوى اليسار المصرى أكثر من غيره، وان أسهمت الخلافات داخل هذا التيار وكراهيته لوجود الأجنبى التاريخى فى عدم تبلور

---

(١) انظر تحليل بعض مواقف الناصريين فى الأهالى ١٩٩٠/٨/٢٢.

عناصره، ففى حين أشار إلى ضرورة حل مشكلة الكويت برفض الضم بالقوة، وخاصة القوة الأجنبية منها دفعته فى أغلب الأحيان لتجاهل مشكلة الكويت[١].

ويمكن تلخيص موقف التيار القومى خلال هذين المحورين:

١ – كراهية الغرب – والغرب التاريخى .

٢ – ضبابية الرؤية بين ممثليه .

وهو مانلتقى به الآن حين نشير إلى بعض عناصر هذا الخطاب فما كادت تعلن قرارات القمة العربية ولما يمض أسبوع على الغزو، حتى راح مؤسس الحزب ليعلن أن «قرارات القمة العربية الطارئة باطلة ولم تقدم حلاً عربياً للأزمة[٢]، ثم راح يؤكد من آن لآخر أن ماحدث فى مؤتمر القمة عمّق المشكلة وعقّدها، بل وأعطى الشرعية للوجود الأمريكى بموافقتها على استدعاء السعودية لهذه القوات وإرسالها لقوات عربية. ويضيف ناصرى آخر بعد قليل: هل تسمح بأن يدك الشعب العراقى والجيش العراقى وتتمزق الأرض العربية العراقية ولتقع تحت الاحتلال الغربى الإسرائيلى نحرر الكويت من قبضة صدام»[٣]

تلك هى القضية عند الناصريين، غير أن الانتحار عند أولئك ليس فى استيلاء العراق على الكويت، وإنما هو فى تدمير العراق، وقد كانت نغمة الخوف من الخطر الأمريكى أعلى النغمات فى تنويعات الناصرية – كما أشرنا – من رحبوا واستعجلوا وهونوا من أمر التواجد الأمريكى المكثف وغير المسبوق فى دول الخليج حتى صار الخليج لاعربياً ولافارسياً ولكن أمريكيًا(و) .. وأن الهدف الحقيقى للحرب ولتجييش الغرب لأسلحته وإمكاناته هو ضرب القوة العسكرية العراقية الواعدة امتداد لضرب إسرائيل للمفاعل الذرى العراقى والسيطرة على المنطقة والهيمنة على مصادر الطاقة[٤] .

لقد أدان التيار الناصرى أغلب الدول العربية، بل أدان العراق نفسه، وكان الباعث فى إداناته واحداً، وهو منح الفرصة للغرب أو (الفرصة الذهبية) لإكمال خططه، فالغرب وليس الكويت أو العراق أو أية دولة عربية الذى يجب توجيه اللوم الحقيقى له.

---

(١) *التقرير الاستراتيجى، السابق ص٤٤٩*

(٢) *الأهالى ٢٢/٨/١٩٩٠، ومؤسس الحزب هو فريد عبد الكريم، أيضا : البيان الأول للحزب الناصرى بعنوان (تحية لشعب العراق وقيادته) .*

(٣) *الأهالى ٢٩ أغسطس ١٩٩٠، وعنوان مقالة ضياء الدين داود هو : (العربية لا لصدام أو الصباح)*

(٤) *الأهالى ٣٠ يناير ١٩٩١*

وحين أعلن العراق فى منتصف فبراير مبادرته للانسحاب، وفهم بوش ان هذه المبادرة تسمح للعراق للخروج من مأزقه فرفضها، تنبه المسئول الأول عن الناصريين إلى ذلك، فالرفض الأمريكى يعنى هنا شيئاً واحداً هو الهروب من مبدأ الربط بالانسحاب الإسرائيلى، لقد كان بوش يرفض انسحاب صدام لرفضه مناقشة انسحاب اسرائيل من الأراضى العربية المحتلة، وأن ادعاء أمريكا الآن بالتمسك بالشرعية الدولية قد سقط تماماً .

إن أمريكا ترفض الربط لأنها ترفض الحلول العادلة للقوى العربية .

والحاصل أن موقف التيار الناصرى المعلن من رفض الحرب كان يعنى رفض الموقف الأمريكى ومعادلاته، وحين بدأت الحرب بالفعل، كان الموقف الأمريكى – كما يرى التيار الناصرى – يتحدد فى تدمير العراق لاتحرير الكويت.

كان الموقف الناصرى واعيا تماما لعنف الغرب وشراسته .

وقد عبر عن ذلك أحسن تعبير ألمع مفكرى الناصرية – عصمت سيف الدولة – فبعد اثنى عشر يوماً من الحرب، راح يتوقف عند أمريكا التى خرقت الشرعية عن عمد، راصداً تطور موقفها الاستعمارى (الإمبريالى) منذ نصف قرن حتى الآن، فالولايات المتحدة الأمريكية تقوم عنده بدور الطاغية المستبد فى المجتمع الدولى سواء أثناء الحرب الباردة والتناقض بين الدولتين العظميين أو بعد انهيار المعسكر الشرقى، فقد أصبحت أمريكا – منذ مؤامرة يالتا ١٩٤٥– هى الدولة المهيمنة الوحيدة على مصائر الأمم، ولم يعد دستور الأمم المتحدة دستوراً للدول، ولم تعد الجمعية العمومية لهيئة الأمم برلمانها ولم يعد مجلس الامن سلطتها التنفيذية. فسقطت الشرعية الدولية كما تسقط الشرعية فى أى مجتمع يتحكم فيه طاغية(١) .

هذه هى الحقيقة التى حاول المفكر الناصرى البرهنة عليها، وقد تمثلت هذه البرهنة فى مالاحظه من دعوة أمريكا للعراق للانسحاب فوراً بدون قيد أو شرط، وهو انسحاب تتعدد عنده المترادفات: الاستسلام، سقوط الشرعية الدولية، دعوة إلى الشعب العربى بأن ينتحر كبشر من بنى الإنسان ليبقى بهائم فى حظيرة أمريكا .

---

(١) الشعب ٢٩ يناير ١٩٩١

وكان عنوان مقالة عصمت سيف الدولة طويلاً (الحقيقة الوحيدة فى حرب الخليج: أمريكا هى التى خرقت الشرعية .. فكيف تنادى بها ؟) .

وعلى هذا تتردد دعوة (الانتحار) مرة ثانية فى الأدبيات الناصرية .

فالانتحار، يعنى الاستسلام (= الموت بغير كرامة) .

والانتحار يعنى مذلة الخضوع (= الموت بغير حراك) .

أما اذا لم يرد الانتحار ماذا يحدث ؟ يجيب عصمت سيف الدين: لايبقى غير القتال، وهذا الخيار الوحيد الباق هو :

- الحقيقة الوحيدة الباقية فى هذا العالم .

- ومن البغى الأمريكى)[١]

واذا تباينت مواقف الناصرين: بين الغضب والتردد والصمت، فان محمد فائق كان أكثر الناصريين وضوحاً على الإطلاق فى التعامل مع الواقع.

لقد راح يكتب لكنه لايستطيع النشر فى صحف الإعلام الرسمى، وحين سمحت له مجلة (المصور) بالنشر تحت وساطة أحد الكتاب فيها، راح يؤكد صراحة استنكار الغزو.

كان أول الناصريين الذى يواجه الغزو بصراحة فيدينه .

لماذا ؟، هنا نعود الى دائرة الناصرين وان تم فى المقام الثانى، يقول لأنه - أى الغزو - فتح الباب أمام التدخل الأجنبى فى المنطقة على مصراعيه، وتراجعت قضيتنا المحورية قضية فلسطين..[٢]

وقد أدرك فائق أكثر من غيره من ممثلى التيار الناصرى، أن الربط بين الغزو وبين تحقيق الوحدة غير صحيح، وأن من يسعى لاطالة أمد الحرب على غير صواب، وأن نزع الفتيل هو مايجب أن يعمل له الجميع، وأن الحل الوحيد الآن هو ضرورة انسحاب العراق من الكويت، وهو مايمكن القول معه، إن هذا الرأى كان أكثر آراء الناصريين نضجاً واعتدالاً ووعياً بطبيعة المرحلة التى نمر بها بعيداً عن الغضب والاتهامات.

ويلاحظ أن هذا الرافد هو الذى تحول مع الوقت الى روافد أخرى، كانت أكثر اعتدالاً من غيرها، وأسرعت مع إسراع حركة الحرب، إلى الوعى بما يحدث للأمة العربية، وتكونت روافد كثيرة معها فى نهر الاعتدال .

---

(١) *الشعب ، السابق* .

(٢) *المصور* ٩ نوفمبر ١٩٩٠ .

ومن هنا، فإن إدانة الغزو لم يحل دون ادانة الغرب .

وهذا الموقف هو الذى قرب بين التيارات الفكرية والخطابات الراديكالية فى ذلك الوقت سواء من رموز الخطاب الدينى أو اليسارى، راحت تصدر البيانات الواعية التى يوقع فى نهايتها أحزاب العمل والأحرار والتجمع والشيوعيين ومصر الفتاة والإخوان المسلمون وغيرهم[1] من الناصريين[2].

* * *

٣ - مثقف مستقل :

وفى إطار الخطاب السياسى يمكن أن نلحظ عدداً من الأنماط ممّن آثرت منذ فترة مبكرة التفرع عن تياره الرئيسى والاستقلال عنه، بعضها ينتمى الى حزب التجمع (كإسماعيل صبرى عبد الله) و (إبراهيم سعد الدين)، وبعضها الآخر ينتمى إلى التيار الناصرى العريض، ومن أهم هؤلاء محمد حسنين هيكل الذى بدا منذ البداية حريصاً على استقلالية ذاتية.

* * *

لقد كان أكثر مايميز حزب التجمع هو الإشارة الى الخطر الأجنبى أكثر من الميل لإدانة الغزو العراقى، وهو ماتأكد مع توالى التصريحات والبيانات المتوالية، مما أثار عدداً من العناصر اليسارية داخل الحزب مثلت جبهة من المنشقين أعلنت هذا الانشقاق مرات عديدة،

---

(١) انظر، على سبيل المثال، اجتماع هذه التيارات والأحزاب فى :

- جريدة *الشعب* ٢٩ يناير ١٩٩١

- مؤتمر عقد بحزب *العمل* فى يوم ١٩٩١/١/٨ وشارك فيه، كمال أحمد، *على هذا المنوال* .

(٢) رفض أكثر من طلب وإخطار إلى لجنة الأحزاب لقيام حزب الناصريين ومع ذلك، لانعدم تياراً عريضاً من المثقفين يمثلون التيار القومى الناصرى أبان حرب الخليج وهم يعبرون عن مواقف التيار الذى ينتمون إليه من أمثال : كمال الدين رفعت، كمال أحمد، عصمت سيف الدولة، لطفى واكد، ضياء الدين داود، عبد الله إمام، محمد فائق، بل إن أبرز شبابهم (حمدين صباحى) قبض عليه لفترة غير قصيرة فى أثناء الأزمة .

ولا نكون فى حاجة لندرك أن هذا التيار هو امتداد للفكر الناصرى الذى يدين لثورة يوليو وزعيمها جمال عبد الناصر، وإن سعى بعض ممثليه لتاكيد أنهم طوروا عديداً من أفكار الثورة لتتمشى مع المتغيرات المعاصرة، وقد تم إعلان الحزب رسمياً، فيما بعد، فى ١٩٩٢/٤/١٩ وكان الأمين العام المؤقت للحزب ضياء الدين داوود بعد موافقة محكمة الأحزاب بمجلس الدولة .

كان عليهم أن يندهشوا أن بيان ١٢ أغسطس لم يأت فيه كلمة (غزو) أو (عدوان) أو (سطو) بشكل صريح ودال، فبادر عدد من أولئك بتقديم طلب جماعى لخالد محى الدين رئيس الحزب يطلبون فيه أجازة من القيام بمسئولياتهم الحزبية لأنهم لايستطيعون القيام بمسئولياتهم الحزبية بتبنى وجهة نظر الحزب.

وكان من بين المنشقين من مثّل جيلاً قديماً بحكم أقدميته بمسئولياتهم الكثيرة، كما كان من بينهم جيلاً آخر، يتحدد زمنياً فى القيادات الوسيطة، فكما عرفنا إبراهيم سعد الدين وإسماعيل صبرى عبد الله وأبو سيف يوسف، كذلك عرفنا عبد الفتاح الجبالى وحلمى ياسين وعمرو يحيى.. وغيرهم[1].

على أية حال ، فقد بدأت الخلافات حين أرسل إبراهيم سعد الدين مقالته إلى صحيفة الحزب بعنوان (لص بغداد) فطلب منه أن يستبدل به عنواناً آخر (ليس غزواً فحسب.. وإنما سطو مسلح للكويت)، وحين نشر المقال فوجئ بحذف الجزء الأخير من العنوان ليصبح (ليس غزوا فحب..)، ومن هنا، آثر أن يتخذ موقفاً حاداً من انتمائه، فقد كان يؤمن أن هذا السطو إنما قام به الحكم العراقى لغزو الكويت ونهب ثرواتها ومدخرات العاملين فيها سواء من الكويتيين أو العرب وغير العرب.

كان يدرك جيداً أن أمريكا انتهزت الفرصة للتدخل، لكنه لم يتوان فى المقام الأول عن اتهام (حكام العراق) لمسئوليتهم الفادحة، رافضا فى الوقت نفسه مقارنه عبد الناصر بصدام بالشكل الذى كانت تطرح به المقارنة حينئذٍ من قبل البعض.

وقد خصص لإبراهيم سعد الدين عدد من المقالات أسماها (ردود على أقوال) راح يعبر فيها، منذ البداية، عن الرأى المخالف، على صفحات الجريدة التى انتمى إليها، وقد اختار لها عنوانات دالة لموقفه:

- الغزو ليس خطأ ولكنه خطيئة[2]
- حاكم العراق يخاطر بشعبه[3]

---

(١) *انظر تفصيل الاستقالة فى المصور ١٤ / ٩/ ١٩٩٠*

(٢) *الأهالى ١٥ أغسطس ١٩٩٠، و١٩ سبتمبر ١٩٩٠*

(٣) *الأهالى ٢٦ سبتمبر ١٩٩٠، وقد توجه الكاتب بعد ذلك بمقالاته إلى جريدة (الأهرام) لتوضيح رأيه ومواصلة التعبير عن موقفه .*

وكان على المستقلين أن يتعاملوا مع اتخاذ موقف أساسى من صدام حسين مع قضية الديموقراطية ذاتها، لارتباط الديموقراطية بنقيضها : الديكتاتورية، إذ لم تستطع الأقلية الانتفاع برأى الأكثرية من الاعتراف صراحة، بأن صدام حسين ديكتاتوراً، وهو ما كان يشوب بيانات التجمع فى الفترة الأولى، فهذا الطرح الديموقراطى داخل الحزب جزء من الطرح الديموقراطى خارجه .

انتقاد الديموقراطية كانت الملاحظة الاولى، أما الملاحظة الأخرى، فهى – كما أشرنا – تعريف الغزو، أو محاولة ربط فعل صدام بفعل زعيم عربى آخر فيتثنى رسم صورته على أنه (البطل العربى) الذى يتصدى للغرب، ومن ثمّ ، يضطر من يرى صدام، على هذا النحو / الرمز، أن يدافع عنه.

كان رفض المنشق هو رفض يقوم على غياب العوامل التى تؤكد على المقارنة، وغياب المبادىء التى تدفع إلى تأييد حاكم العراق، وهو مايفسر السؤال الذى طرحه ابراهيم سعد الدين على اليسار المصرى فى حزب التجمع حين قال:

– كيف تكونون ديموقراطيين وأنتم تدافعون عن السفاح صدام ؟[١]

وأضاف آخر – إسماعيل صبرى عبد الله – أن المشكلة ليست فى ذلك، وإنما هى فى هذه الظروف الموضوعية التى أدت إلى ظهوره – أى ظهور صدام حسين – ومن هنا، فقد ذهب الى أن أيديولوچية صدام – مهما تكن – لا تسوغ له سلوكياته الديكتاتورية أن يقتل الأبرياء، وهذا الموقف خلّفه موقف آخر، هو، أن الأسس المادية للنزاعات غير العقلانية فى الوطن العربى هى من جملة فشل الانظمة العربية لتحقيق تنمية اقتصادية واجتماعية فى كل قطر عربى، وإلى جانب الديكتاتورية والفشل فى التنمية لايعفى المثقفين الذين ينادون بالديموقراطية باللسان فقط.

وعلى هذا تحدد موقف إسماعيل صبرى عبد الله فى موقف ناقد لحزب التجمع الذى انتمى اليه، فقد آثر العداء الصريح لصدام حسين، وهو موقف لم يستطع الحزب معه، مع ترديده لأكثر من مرة برفض موقف صدام، التأكيد على خطأ النظام العراقى الكامل، أو وضعه فى سياقه المبكر على أنه المسئوول الاول عمّا آلت إليه الأوضاع العربية، وقد اتجه إسماعيل صبرى عبد الله إلى خارج صحيفة الحزب ليعبر عن رأيه فى صحيفة قومية، فيكتب بعنوان (أكاذيب صدام) متعرضاً لعديد من هذه الأكاذيب، منها، أن الكويت تتبع

---

(١) المصدر ، السابق .

سياسة أمريكا بحجة التحكم فى أسعار البترول، وزعم وجود حكومة وهمية قامت بثورة شعبية بالكويت وأن الحدود بين الكويت والعراق مصطنعة، وأن تحرير فلسطين يبدأ من احتلال الكويت.. وما إلى ذلك ممّا ردده العراق حينئذ.

ويلاحظ حرص د. إسماعيل هنا على توضيح رئيسى وعدة ملاحظات .

أما التوضيح، فهو أن موقفه تحدد لأن مثل هذه الدعاوى (يسميها الأكاذيب) قد خدعت عدداً كبيراً من المثقفين الذين أيدوا إما خوفاً من سيفه أو طمعاً فى ذهبه .

أما الملاحظات التى حرص أن ينهى بها مقالته، فأهمها:

١ - توضيح الرؤية تشير إلى ضرورة التفرقة بين صدام والشعب العراقى صاحب الحق الوحيد فى تغيير النظام الحاكم.

٢ - الإدانة بشدة للتدخل الأمريكى العسكرى المكثف .

٣ - المطالبة بانسحاب القوات الأمريكية فوراً .

٤ - إذا فشل الحل العربى فلابد من الشرعية الكونية متمثلة فى مجلس الأمن.

وقد كان المثقف المستقل هنا حريصاً فى حالة تدخل الأمم المتحدة ذكر ان تطلب الدول العربية فى حالة إقرار المجلس التدخل الا تشترك فيه أى من الدول دائمة العضوية[١] .

ونحن نعلم أن هذه الدول هى الدول العظمى: أميركا وبريطانيا وفرنسا.

* * *

أما محمد حسنين هيكل فإنه التزم الصمت، عقب الغزو لفترة، لم يلبث بعدها أن خرج عن صمته عبر الصحف والمجلات الغربية بوجه خاص فى صحيفة التايم[٢] ثم مجلة جون أفريقيا[٣] بما يغضب به أصحاب الخطاب الرسمى.

ولمَّا وُوجه بهجوم عنيف، عاد، فى الفترة التالية، إلى إعادة طرح رأيه، مع كثير من التطور الذى اتسق مع فكر المرحلة فى مصر وإن لم يتفق معه كثيراً .

كان رأيه الذى فصّله، وأثار عليه الكثيرين، هو مسألة موقفه من النظام العراقى، فهو لم يشر إلى هذا النظام بأكثر من سطر واحد، هو أنه (عملاً خاطئاً، وعلى العراق أن ينسحب)

---

(١) الأهرام ٢٠ / ١٩٩١/٨

(٢) *The Times (lndon), september 12,1940*

(٣) *Geon African, september 28, 1990*

راح بعدها، يسهب، طويلاً ، فى تفسير جذور ما حدث وبواعثه، وراح يتمهل عند التاريخ والجغرافيا بشكل أكثر تأملاً من غيره حينئذٍ ، ويمكن ايجاز أفكاره هذه فى ثلاث:

- خطأ زعماء القبائل.
- خطر الغزو الأجنبى
- إشكالية توزيع الثروة

ويعود هيكل، للتاريخ، ليرى، أنه بعد تحرر الأقطار العربية من الحقبة الإمبريالية وجدت انقسامات كثيرة ، توترات بين سكان الصحراء وسكان المدن، بين العناصر المحافظة والمتطورة أو الدستورية Constitution بين، القوى الرجعية والتقدمية، والصراع فى سبيل الاستقلال وامتلاك النفط مورس فى المدن (القاهرة، بغداد، دمشق، بيروت) لكن زعماء العشائر كانوا فى نهاية الأمر هم الفائزين به . لقد حرمت المدن من ثمار هذا الصراع .

وعلى هذا النحو، كان هيكل يقصد بوضوح زعماء القبائل فى الكويت والسعودية بوجه خاص ، هؤلاء الذين يمتلكون كل شيء .

وهو مايعنى أن هيكل، (بصراحة)، راح يحمّل دول الخليج والسعودية المسئولية فيما حدث، ويزيد النار ضراما حين يضيف إنه كان من الممكن أن نعثر على حل للأزمة فى الأيام الأولى للغزو، لكن الحل العربى فشل .

وهو إذ يحمل زعماء وسكان الصحراء خطأ التاريخ ، فإنه يحمّلهم خطأ الحاضر، إذ لم يستطيعوا اللحاق بحل سريع للأزمة، وإذا كانت مخاطر الأزمة الآن تهدد بحرب أهلية بين الأقطار العربية، فإن ذلك - خطر الحرب الأهلية - سيكون أفضل من التدخل الأجنبى أو الهيمنة الأجنبية .

الخطر الأمريكى أسوأ بكثير من الخطأ العربى ونتائجه .

ولانكون فى حاجة شديدة لندرك أن تحليل هيكل لجذور الأزمة وظواهرهاالحالية إنما لايتفق مع أصحاب الخطاب السائد، فالنظام المصرى يتحالف مع دول الخليج والسعودية بصراحة كاملة، ويرسل بجنوده إلى هناك، ولايريد أن يعلن عن حرب النفط بين الأقطار العربية، وهو يعلن بصراحة، عبر مؤتمر للقمة، أن الحل العربى قد فشل، ومن هنا، لايبقى غير القوة (الحل الأمريكى) .

أما إشكالية توزيع الثروة، فمن يريد أن يفتح باب الشر الآن .

باختصار، كان الخطاب المناهض كفيلاً بفتح أبواب النار عليه .

ومن هنا، توالى الهجوم العاصف على هيكل، الذى صمت طويلا، فالكلام الان سوف يتعارض مع الرأى السائد، وهو الرأى الذى تصنعه الأنظمة فى مصر وخارجها، وقد فتحت كل الصحف والمجلات العربية (حتى الأجنبية منها) للهجوم العاصف على هيكل ؛ قرأنا أعنف الحملات فى الصحف الخليجية بوجه خاص، وفى الصحف العربية، وبرز له أكثر مثقفى الخطاب الرسمى فى مصر، فتوالت كتابات عبد العظيم رمضان [1] وجلال كشك[2] والحمزة دعبس[3]، فالأول يمثل الخطاب الرسمى، والثانى يمضى فى هذا الاتجاه كذلك لكتاباته فى الوفد أو لعدائه لهيكل والفكر القومى، والثالث – حمزة دعبس – لانتمائه للخطاب الرسمى مضافاً إليه ولائه لدول الخليج ..

ومن الملاحظ أن أكثر المهاجمين له كان جلال كشك، وهو هجوم يعود الى موقفه الشخصى القديم من ثورة يوليو وكاتبها الأوحد: هيكل، ومن هنا، يمكن أن نفهم هجومه الممضى ضده فى (الوفد)– لسان حال حزب الوفد – ثم تطويره للهجوم وإعادة نشره ثانية فى كتاب صدر فيما بعد[4].

ولا نريد العود للإسهاب فى الهجوم الذى ناله هيكل، فهو يبرر بأنه لا ينتمى إلى الخطاب الرسمى، فضلا عن مواقف شخصية قديمة تحاول أن تعكس نفسها على الحدث بشكل خاطئ .

والمهم فى ذلك كله، أن هيكل – كعادته – لم يهتم بالرد على أى من هؤلاء، وإنما عاد ليحاور نفسه فى أكثر من موضع وأكثر من مكان، وقد كان حديثه لمجلة أكتوبر أهم ماحاول

---

(١) *أكتوبر* ٣٠/ ٩ / ١٩٩٠ .
(٢) *النور* ٢٦/ ٩ / ١٩٩٠ .
(٣) *الوفد* ٢٩/ ٩/ ١٩٩٠ .
(٤) *انظر : محمد جلال كشك، الجنازة حارة ..! يوميات مراقب لأزمة الخليج، بدون، ١٩٩١، وقد خصص له الفصل الأخير بعنوان (عودة الحاوى الطروب ..!) راح فيه يتهم هيكل فيه بأنه استخدم مافى جعبته لتحلية الغزو حين لم يبرئة ولايؤيده "حتى لايغضب الناشر الإنجليزى"، كما راح يتهم هيكل مستشهداً بعميل للمخابرات الأمريكية مثل مايلز كوبلاند، رافضاً ماذهب إليه هيكل من ادانة دول الخليج وتحديده الشرعية التى يجب أن تكون تعبيراً عن واقع الجغرافيا والتاريخ.. الخ، رافضا دعوته لإعادة تقسيم الثروة، ص٤٨٤–٤٩١ .*

فيه أن يطور فكره مع تطور الأحداث، لقد أكد أنه لم يرد شيئا بإبداء رأيه قط، اللهم إلا سلامة الأمة. أمن الأمة. وحدة الأمة، وهو مايريد القول معه بوضوح أنه لايسعى أكثر من التفكير بصوت عال من خلال جهده لتحليل مايحدث حوله بصدق مع الذات، ولم يلبث أن أضاف بصراحة موجعـــة: (–أنا أعرف أن البعض غضـب منى لأنى تكلمت عن المشيخات.. و.. وثروات البترول.. وقضية الثروة ، .

وما لبث أن عاد إلى أفكاره السابقة ليبلورها بشكل جديد، فالأزمة عنده لم تنشأ من الفراغ وإنما هى مطروحة من قبل، فى التاريخ، ومالبث أن عاد من الماضى الى المستقبل فتحدث عن نتيجة الموقف العراقى الذى تخطى به النظام الخط الأحمر خط أحمر دولى.

والواقع أن هيكل قصد من ذلك كله أن يبدى – فى الظاهر – تراجعاً عن موقفه الذى أثار عليه ماأثار من إدانة الغزو، فى حين أنه فى الحقيقة كان يعود لموضـــوعه الأثير من ربط الإدانة بالإرث التاريخى والجغرافى للعالم العربى بما أدى إليه هذا الواقع الاستعمارى من حـــدود أصبحت الآن مجــالات ملتهبة يجب التنبه الى جــذورها، ومن ثمّ، إلى نتاجها فيما هو آت[1].

إنه تكتيك لإظهار التراجع وتأكيد مايريده.

وهو ما تأكد صبيحة يوم الغزو الأمريكى على العراق، إذ انتهز فرصة دعوته لندوة بمعـرض الكتـاب، فـراح يتـحـدث عن الحق التـاريخى للعـراق الذى يخـتلف عن الحق الأسطورى[2]، مستّطرداً : أتصور أن العراق ارتكب خطأ الحسابات الخاصة بالمرحلة، مثل خطأ (جـمـيع الأطراف الأخـرى)، ومن هنا راح، بعـد لوم العـراق ضـمن لومـه للآخـرين (المساواة فى اللوم يعنى المساواة فى تحمل المسئولية) يعود لموضوعه لالقاء المسئولية الاولى عليها سواء فى حساباتها مع الغرب أو إيران أو فيما يتعلق بأسلوب العنجهية التى ألب عليها الأخرين.

---

(١) لخص هيكل رأيه فيما بعد – مجلة صباح الخير ١/١١/١٩٩٠ – فى الآتى :
١ – قلت إن الغزو (خطأ لايغتفر)
٢ – قلت إنه أدى (إلى انقسام الأمة العربية)
٣ – وقلت إنه (لازم يخرج .. لابد أن يخرّج)

(٢) يقصد هيكل هنا بالحق الأسطورى هو "دعوى أسطورية مثل إسرائيل، ودعوى تاريخية لم يتنازل عنها أصحابها وتمثل مصلحة حقيقية" ، وهذا يمثل امتداداً لفكره مثل مقالته الأولى فى صحيفة التايم، السابق .

وما يجب أن نشدد عليه هنا، وهو ماأشار إليه هيكل كثيراً وأغضب عليه الكثيرين، هو، أن الأمن العربى عنده لايقوم إلا على القيم الإنسانية والأمان والمطامح(١) أو على الإحساس بالضمان والامن(٢)، وهو مايعنى به شيئاً واحداً، هو، تمرد العراق على خرائط المستعمر، وضرورة الحصول على منفذ له على الخليج ، والعودة إلى حقائق التاريخ والجغرافيا التى تعنى – كما يشير هيكل دائماً – رضوخ الكويت للغزو.

وتظل دعوته إلى إعادة تقسيم الثروة هى جزءاً من خطابه العام.

ومن الملاحظ أن هذه الدعوة – تقسيم الثروة – لاتتنافر مع فكر هيكل العام، فهو ينتمى إلى الفكر القومى، الذى ينتمى – فى بعض أُطروحاته – إلى المعسكر الاشتراكى، وهو ماوجدنا نموذجاً واضحاً له فى الفترة الناصرية، إذ كانت الدعوة إلى العدالة الاجتماعية من أخص سمات الناصرية، على اعتبار أن الاقتصاد الاجتماعى العربى، يمكن – فى الدائرة الكبيرة– أن يكون وراء تحقيق الوحدة العربية، وتحقيق الظروف المهيأة لوجود الديمقراطية.

بل إن الديموقراطية تأخذ فى الغرب معنى سياسياً، فى حين أنها تأخذ فى الشرق العربى معنى اجتماعياً خالصاً .

وقد كان التيار القومى – الناصرى – أقرب الى (الخطاب اليسارى) من أى تيار آخر بحكم المرجعية الاجتماعية ويحاول أن يفسر الحاضر بها .

ورغم أننا لانعثر على انتماء (كادر) بين هيكل وحزب التجمع، فانه من التوافق فى الرأى أن نعثر على هذه العلاقة القائمة بين هيكل وحزب التجمع فيما يتعلق بعديد من الأفكار، وخاصة، قضية إعادة توزيع الثروة.

وربما كان الدليل على ذلك أنه فى حين نجد التجانس متسقاً بين هيكل ومثقفى الحزب فى موقفهم الواضح من الأزمة، مع اختلاف درجات التعبير، فإنه لايكون، كذلك، حين يتعلق الأمر بالجانب الاقتصادى حين يتعارض مع المثقفين المستقلين عن حزب التجمع من أمثال د. إسماعيل صبرى عبد الله.

---

(١) *The Times, I bid*

(٢) *أنظر : محاضرته فى معرض الكتاب* ١٩٩١ يوم ١١/١١

أيضا : الأهالى ١٦ يناير ١٩٩١

(الجدير بالذكر أنه عاد إلى توضيح رأيه أكثر فى كتاب أصدره فى ربيع١٩٩٢، بعنوان "حرب الخليج"، وهو يقول فى مقدمته إنه يقف "موقف المستقبل وليس موقف المحايد"، وهو ما يعزز وجهة نظرنا فى إدراجه فى إطار المثقف المستقل) .

ولعل ذلك يمثل خاصة الخلافات القائمة والمستمرة بين المثقفين أكثر منه تنافراً بين تفريعات متوالية من (خطاب) واحد .

وعلى أية حال، فإن أول من عارض هيكل فى دعوته الى تقسيم الثروة - كما ألمحنا - هود. إسماعيل صبرى عبد الله أحد المنشقين عن حزب التجمع.

إن دعوة هيكل فى ذلك أن معظم الدول العربية ينتج النفط أو يؤمن طرق مروره وشحنه، كالأنابيب والأقنية والطرقات، إننى أقترح إنشاء هيئة عربية لتوحيد هذه المصالح. لنكرس جزءاً من مواردنا للجغرافيا، وجزءاً آخر للتاريخ، حصة تذهب إلى البلد المنتج للنفط أو الذى يمر منه النفط، وحصة أخرى لهيئة عربية تنموية. وينبغى أن يتمثل الهدف فى إنجاز مصلحة عربية مشتركة فى خفض الحالة الراهنة من انعدام التكافؤ[١]، فاحترام الحدود، اذن، يجب عنده أن يتم بوسيلة التشارك أو المشاركة فى الثروات .

وإذن، فإن ذلك أثار المزيد من الغضب، فالشرعية التى يجب أن تُحترم عنده هى التى تقوم على تقسيم الثروة، والثروة التى لاتحمى أصحابها، يجب أن نستبدل بها المصلحة المشتركة عبر القيم والتطلعات الإنسانية.

وحين تتوالى أسهم الحقد ضد هيكل من أصحاب (الخطاب الرسمى) أو مثقفى الخليج ومنتفعيهم من (النفطيين)، فإن مثقفا نزيهاً مستقلا مثل د. إسماعيل صبرى عبد الله يختلف مع محمد حسنين هيكل بدون غضب أو مواقف شخصية، وهو غضب يبرره، الاقتناع الذاتى، أكثر من تصيد الكلمات والمواقف واجتزائها.

ورغم أن إسماعيل صبرى لم يذكر حسنين هيكل صراحة فى التعرض لهذه القضية، فإن توقيت الكتابة وطبيعة الرد واهتبال صحف الخليج الفرصة.. هذا وغيره يدعو إلى الجزم بانه كان يقصد الرد على هيكل تحديداً، فبعد أن يرسم تاريخاً اقتصادياً لهذه القضية، ووضعها فى السياق الاجتماعى الذى « ننادى به نحن الاشتراكيين » ، يؤكد أن « الثروة مهما يكن قدرها يمكن أن تستهلك كاملة من خلال تقسيمها كاملة، فيتساوى الناس فى الفقر بسبب تزايد أعدادهم دون أن يزيد إنتاجهم. ويزيد من عبث فكرة التقسيم أننا نتحدث فيما يخص

---

(١) النص هو :

The respect for borders. however arbitrary they may be. should be balanced by asharing of wealth. The Arab World shuld be coaxed out of its depression through clarity and conviction. not threats and intimidation. Only the Arabs are in a position to bring about a dialogue.

ويفصل هيكل مجمل أفكاره فى كتابه الذى صدر فيما بعد بعنوان "حرب الخليج - أوهام القوة والنصر"، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة ط١/١٩٩٢ .

الخليج عن ثروة هي في حقيقة الأمر التعبير المالي عن الاستنفاد التدريجي لمورد طبيعي نابض بطبيعته هو النفط .

وإذن، ما هو البديل، يسأل ويجيب بأنه « لا » يجب استثمار الجزء الأكبر من الفوائد في مشروعات إنتاجية توفر مع الزمن قاعدة مادية أهم من النفط نفسه .

وفي الواقع، فإن إسماعيل صبري هنا يريد أن يؤكد على حقيقة أبعد من توزيع الثروة، أو اعادة تقسيمها لتحقيق الأمان القومي، وإنما أراد أن يؤكد على أننا لا يجب أن « نتحدث عن توزيع الأموال مسوغين بالتالي أعمال الغزو والضم والنهب »[1]، ذلك، لأن سوء توزيع الثروة كان اتجاها مؤكدا داخل حزب التجمع نفسه من حيث هو قضية مفروضة[2]، كما كان رأيا صريحاً لهيكل ردده بشكل ما، غير أن الخلاف الحقيقي بين الاثنين – وكلاهما مستقل – هو رفض أن يكون الحديث عن الغزو مسوغاً بقضية توزيع الثروة.

كان هيكل يبرر للنظام العراقي فعلته .

وكان خصمه يرفض أي تبرير يكون من شأنه التشجيع على الغزو .

كان الأول يرى أن حقائق التاريخ والجغرافيا يجب الأخذ بها .

وكان الآخر لايرى أن تكون مثل هذه الحقائق ذريعة الآن لاكتساح الحدود، والاستيلاء على الثروات لاستنفار الغضب بين الشعوب العربية.

بَيْدَ أن ذلك كله يترك ملاحظة هامة، هي، أن هذه الأصوات التي لم ترفد الخطاب اليساري بقدر ماتفرعت منه دخلت في قضايا خلافية مع بعضها البعض، كما رأينا، بما يشير إلى أن القضايا الخلافية كانت أكثر ما يلاحظ في الأزمة منه في القضايا الجوهرية، لقد كان التباين الشديد، حتى بين تفريعات الخطاب الواحد تمثل خصيصة مميزة للمثقفين المصريين.

وهو مانشير إلى بعضه حين نعرض لمواقف أولئك المثقفين، ومن نفس الخطاب الواحد، في قضيتي: الديموقراطية، وفلسطين .

وهو مانتمهل عنده الآن .

* * *

---

(١) *القبس الكويتية ٢٥/ ٩/ ١٩٩٠*

(٢) *على سبيل المثال، انظر : الاهالي ٢٢/ ٩/ ١٩٩٠*

(١) الديموقراطية

ليست من المصادفة أن ينهار النظام الشيوعى فى حين يتردى الغزو العراقى فى آن معا، فكلاهما، زعم وجود الديموقراطية، فى حين أن الغرب الأوروبى كان يلعب على وتر هذه القيمة لكنه يلعب بمفهومه الخاص؛ فالديموقراطية الغربية لم تكن هى الديموقراطية الشرقية فى شرق أوروبا والاتحاد السوفيتى والعالم العربى، وإنما هى ديموقراطية تابعة لرغبة الغرب فى صياغة أنظمة إقليمية جديدة تهدف إلى إعادة رسم المنطقة لصالح الغرب.

وقد كان أبلغ مثال على ذلك هذا التداعى الذى خلفه الفهم الخاطئ لهذه الديموقراطية عندنا، والذى تمثل فى اثنين، فإلى جانب أزمة الغزو العراقى كانت أزمة جبهة الإنقاذ الإسلامى الجزائرى – فيما بعد – شاهدة على ثنائية الفهم للقيمة النيابية بين الشرق والغرب، فما من مرة يدعو فيها الغرب إلى الديموقراطية بالنسبة لنا إلا وتكون ممزوجة بمفهومه الخاص لها، فحين ذكر الغرب هذه الديمقراطية ذكر معها أشياء من قبيل الاعتدال فى السياسة الخارجية، واللجوء الى اقتصاد السوق، والدخول فى النظام العالمى الجديد.. وما إلى ذلك مما يعمل على إيجاد ديمقراطية من نوع غربى إذا جاز التعبير، ولم يخطر على باله أن هذه الديموقراطية بشروط الغرب يمكن أن تلد لنا حاكماً دكتاتورياً مثل صدام حسين، أو يغرى عوامل الوعى الاسلامى – على العكس – كما نرى فى الأصولية الجزائرية .

نصل من ذلك كله إلى حقيقة هامة، هى، أن (الخطاب اليسارى) أدرك هذه العلاقة الوثيقة بين الديموقراطية ودعوة الغرب لها فى الإسهام فى خلق النظام الديكتاتورى، على اعتبار، أن هذا النظام، هو الذى يخدم الأهداف الغربية، فالديموقراطية هنا كانت بمثابة إشكالية تسببت فى الغزو العراقى، وهى إشكالية تبدو أكثر وضوحا حين يمعن المثقف النظر، فيرى، أنها نشأت فى العراق، على سبيل المثال، ظاهرة تتصل بصدام حسين صديق الغرب ووكيله فى الحرب العراقية الإيرانية وبما يمنحه الغرب لنظمه حينئذ من إيعاز بوجود ديموقراطية، ومن هنا، فان قيمة الديموقراطية : الاعلان عنها أو فشلها، كان يتم بالاتفاق مع الغرب أو بالافتراق عنه .

الاتفاق معه حين يبرر الحاكم عندنا مايريد .

والافتراق عنه حين يخالف الحاكم مايراد منه .

وهنا تتصادم الإرادتان :

باختصار، فقد أدرك اليسار المصرى أن ممارسة الديموقراطية كصيغة لتعدد الأحزاب وممارسة التمثيل النيابي.. وما إلى ذلك، إنما ارتبط بموقف الغرب من الديموقراطية (الإمبريالية) التى يريدها، وهو مايفسر ارتباط الحاكم عندنا بالغرب لتكريس نظامه الداخلى وتأكيده، فبقدر تبعيته بقدر مايحقق قدراً مرضياً عنه من الديموقراطية.

وقد كان أول من تنبه إلى العلاقة بين النظام العراقى والرفض الغربى، هو حزب التجمع، فرغم أنه فى البيان الأول لم يحدد أسباباً معينة للغزو، اللهم إلا إذ استثنينا مطالبه باحترام شعب الكويت فى نظام الحكم الذى يرتضيه، وتلك إشارة تعى، بمفهوم المخالفة، رفض التبرير الديموقراطى العراقى المعلن للغزو، ولكن فى البيان التالى – ١٢ أغسطس – أشار إلى حتمية الديموقراطية قبل أن تنشأ المشكلات الناجمة عن العجز العربى، ومن ثمَّ، التدخل الغربى[١] .

وهذا الحس بقيمة الديموقراطية فى الخطاب اليسارى ربط بين الغزو وطبيعة الحاكم من حيث القيمة الديموقراطية، ففى البيان الذى أعلن عقب مناقشة الأمانة العامة للتجمع فى ٢٦ أغسطس نقرأ:

(– إن غياب الديموقراطية فى الوطن العربى هو سبب المصائب كلها لأنه يحرم الشعوب العربية من فرض رقابتها على حكامها ومن المشاركة الفعالة فى اتخاذ القرارات المصيرية ومن ثمَّ، فإنه يفتح الباب أمام المغامرات الفردية وطغيان النظم الاستبدادية ويساعد على تكريس واستمرار أوضاع التخلف التخلف الاقتصادى.. و.. وإن نضال الشعوب العربية من أجل حقوقها وحرياتها الديموقراطية أساس ضرورى لقيام نظام عربى جديد من أجل الدفاع عن استقلالها الوطنى..)[٢]

وكما ركزت صحف اليسار على قضية الطغيان، كذلك ركزت على القوى الأجنبية لارتباطهما ببعض، ومن هنا، فالتركيز على الطغيان كان يعنى التحذير من شرط وجوده:

---

(١) *الأهالى* ١٥ *أغسطس* ١٩٩٠

(٢) *الأهالى* ٥ *سبتمبر* ١٩٩٠ .

سلب التحرر الوطنى، فاللاشعور السياسى أدرك أن الديموقراطية التى ارتبطت بالأزمة إنما هى ديموقراطية الغرب وعميله صدام حسين(١) .

وماتنبه له المثقفون من قوى اليسار تنبه له المثقفون من الحركة الشيوعية، فبعد استطراد طويل على تحميل المسئولية للديكتاتورية فى عديد من البيانات والتصريحات، لم يفت هذا المثقف - الشيوعى - التأكيد على أن القضية المحورية هى الربط بين الغزو الأمريكى وأنظمة الحكم أنظمة حكم عشائرية غير ديموقراطية فى تلك المنطقة الحساسة من الوطن العربى(٢) .

والملاحظ أن الصلة الحميمة للديموقراطية يشارك فى الارتباط بها المثقف القومى، ولعل أبرز أولئك كان محمد حسنين هيكل كما رأينا، كما راح لطفى واكد يؤكد ، أنا ضد الأنظمة العشائرية القبلية ،(٣) وهو ربط بين حكام الخليج وحاكم العراق، كما المع الوجود الناصرية - محمد فائق - يصرح بأن الغزو العراقى للكويت فتح المنطقة كلها للغزو العراقى وراحت قضية فلسطين تدفع ثمنا فادحا نتيجة لسيطرة بسمارك العربى(٤) .

وفى حين رأى البعض العلاقة بين الطغيان والتدخل الأجنبى، فإن البعض الأخر ذهب إلى أبعد من ذلك، إلى أن ماحدث لم يكن، فى شكله العام، منح فرصة للغرب ليتسلل تحت مظلة الديكتاتورية، وإنما أكد حدوث تحالف بين الديكتاتور والغرب، وهو تحالف مخطط أصلاً ، فتنفيذ المخطط هنا يكون بوعى الطرفين - الديكتاتور والغرب - فما يحدث هو تنفيذ لمخطط سابق وضعته فى الأساس الولايات المتحدة، وأنها هى التى دفعت صدام حسين دفعاً، بطريقة أو بأخرى، إلى غزو الكويت(٥) وأن صدام حسين إنما ينفذ مخططاً أمريكياً موضوعاً سلفاً(٦) .

---

(١) حول الطغيان انظر على سبيل المثال مقالات لكمال القلش، الأهالى .
٥ديسمبر١٩٩٠ ، أيضاً أهالى ٣ ابريل ١٩٩١ ، وقد انتهت أمينة شفيق فى مقالها فى هذا العدد الأخير الى أنه قد "أثبتت التجارب الإنسانية أن الشعوب المقهورة من حكامها لاتقوى على مواجهة العدو الخارجى" .
(٢) انظر الملحق (بيان ٨) .
(٣) هذا ماصرح به لطفى وأكد فى لجنة الشئون العربية بمجلس الشعب، انظر : الأهالى ١٣ فبراير ١٩٩١ .
(٤) المصور ، ٩ نوفمبر ١٩٩١ .
٥) جلال أمين ، العرب ونكبة الكويت، مكتبة مدبولى ١٩٩١ص ٨٥
(٦) جلال أمين ، السابق ص ٥٨

ومهما يكن، فإن اليسار المصرى كان أكثر من غيره وعياً بشكل الديموقراطية التى تراد لنا، وعلاقاتها بنظرية (المؤامرة) التى تحدث البعض عنها، ويمكن تلخيص موقف (الخطاب اليسارى) من الديموقراطية على هذا النحو:

– إن الخطاب اليسارى راح يتحدث عن الديموقراطية فى أول الأمر على أنها مظاهر إجرائية تتمثل فى الاعتماد على الانتخاب بشكل يركز على اختيار ممثلى الشعب، والاهتمام بحكم الديموقراطية.. وما إلى ذلك، لكنه لم يلبث أن اكتشف العلاقة الحميمة بين غياب الديموقراطية ونجاح (المؤامرة الغربية).

– ومن هنا، تتحدد الديموقراطية التى يريدها لنا الغرب، وهى مايمكن أن يطلق عليها (الديموقراطية الإمبريالية)، أى الديموقراطية التى لا تسمح، إلا، بما يريده لنا، الغرب منها فقط.

– ثمة مظهر ثالث لهذا التصور، ونقصد به علاقة الديموقراطية بالاشتراكية، إذ كان اليسار – بحكم تراثه ومرجعيته – يهتم كثيراً بالقضية الاجتماعية، ومن هنا، كان من الممكن أن نلاحظ أن السؤال الذى كان يطرح بشكل مباشر دائماً، أو بشكل غير مباشر أحياناً، هو:

– لمصلحة من نريد الديموقراطية ؟ .

وكانت الإجابة دائماً تجيء على هذا النحو:

– للقطاعات الفقيرة المسحوقة حتى العظم المستغلة أبشع أنواع الاستغلال من طرف البرجوازية الوطنية التى أفرزها الاستبداد، ومن طرف البرجوازية العالمية

ومن الانصاف القول أن ذلك الفهم لم يتردد بشكل مستمر فى (الخطاب اليسارى)، وإن لم يخطأه هذا الخطاب، وهو مايميزه عن غيره.

(٢) قضية فلسطين

اتسمت القضية الفلسطينية منذ اللحظة الأولى للغزو العراقى بموقف سيء.

وقد زاد هذا الموقف سوءاً بعد عدة أيام فى مؤتمر القمة بالقاهرة – ١٠ أغسطس – إذ وضعت المنظمة فى موقف حساس للغاية بسبب رؤيتها لتلك الأزمة وخاصة من قبل الخطاب الرسمى، وبوجه أخص من مثقفى الدولة المضيفة للمؤتمر – مصر – وحليفاتها من العرب أو فى المعسكر الغربى.

كانت قضية فلسطين قد نالت اهتماماً مضاعفاً أثناء الأزمة فى العالم الغربى، إلى درجة أن الرأى العام الغربى كان يرى أنه لن يكون هناك استقرار إذا استمر تطبيق القانون الدولى بشكل اختيارى وفقاً لمنطق الأقوى[1]، بل إن الرئيس الأمريكى كان قد أعلن فى ذلك الوقت فى خطابه أمام الكونجرس أن قضية الشعب الفلسطينى تاتى فى مقدمة القضايا التى تهتم بها الولايات المتحدة الأمريكية.

وقد كان هذا الموقف العربى أو الغربى من القضية الفلسطينية يعكس تردداً فى موقف الخطاب اليسارى منذ فترة مبكرة.

كان الخطاب اليسارى قد اتخذ الموقف الراديكالى فى التعامل مع العالم الخارجى، فبعد رحيل جمال عبد الناصر ومجىء الشتاء العربى بهزيمة ١٩٦٧ ومذبحة أيلول / سبتمبر١٩٧٠ جعل القلوب العربية تحتضن المقاومة الفلسطينية وترى فيها البديل للصمود، ويلاحظ البعض أنه « سيُهيمن على الخطاب القومى العربى من ذلك الوقت نزعة يسراوية ترفض كل الحلول وترى فيها مسبقاً حلولاً استسلامية[2]

وهذا الموقف لن نخطأ فى عدم المصداقية التى سيتميز به موقف اليسار العربى فى هذه الأزمة فى موقفه من الخطاب الرسمى بوجه خاص، ذلك لأن وقوف الخطاب الرسمى فى صف المعسكر الغربى فى ذلك الوقت سيكون مسوغاً لهذا الخطاب اليسارى ليتخذ موقفاً مضاداً من الخطاب الرسمى.

ويمكن رصد الخطاب اليسارى من قضية فلسطين حين أعلن صدام حسين الربط بين الانسحاب من الكويت والانسحاب من الأرض المحتلة، فى حين رفض الرئيس الأمريكى هذا الطرح، وأعلن أمام الكونجرس الأميركى أن قضية فلسطين تاتى بعد الحلف الأمنى والحد من التسلح.. وما إلى ذلك.

وقد تعددت الخطابات العربية فى موقفهم من الطرح العراقى، على اعتبار أن ممثليها الآن أصبحوا محسوبين على أحد الأطراف الرئيسية فى الأزمة، ومن هنا، ارتبط موقف كل خطاب بالموقف الذى اتخذه.

---

(١) *يمكن أن نرى نموذجًا للرأى العلم الغربى فى صحيفة* *Le Figarou, Paris, -12-1990*

(٢) *محمد عابد الجابرى، الخطاب العربى المعاصر، السابق، ويمكن فى هذا مراجعة فصل (الخطاب القومى، – الوحدة وقضية فلسطين) لأهميته ص١١٦، ص ١٢٥ .*

فالخطاب الرسمى اختار عدم الربط .

والخطاب الإسلامى، ممثلاً فى حزب العمل، اختار أن يتحقق الانسحاب من الكويت (بالتزامن) مع انسحاب القوات الأمريكية على مراحل .

أما الخطاب الإسلامى الممثل خاصة فى (الإخوان المسلمين)، اتخذ أقصى درجات التمرد حين قبل الطرح، بل ودعا للجهاد من أجل فلسطين .

وهو ما اقترب منه كثيراً (الخطاب اليسارى)، وهذا الموقف الأخير زاد تمرداً بوجود القوات الامريكية بالسعودية ودول الخليج.

كانت قناعة الخطاب اليسارى أنه مادامت قضية فلسطين تلقى على المستوى الاعلامى تأييداً نظرياً، فى حين أنها لاتلقى أى اهتمام من القوات الغربية المسلحة، فلا بأس من الإفادة من طرح الرئيس العراقى .

كان الخطاب اليسارى يقتنع، بأن رفض مناقشة الرئيس الأمريكى التعامل مع قضية فلسطين الآن، وتأجيلها إلى مابعد تحرير الخليج ضرباً من الوهم، ففى الحوار الذى يدور بين رئيس تحرير صحيفة (الأهالى) وبين أحد الأمريكيين، يسأل الصديق الأمريكى فيجيبه (ولاحظ السخرية الممضاة فى الرد) أن:

(– هذه خطة مؤكدة سيتم تنفيذها عندما أصبح أنا رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية)[1]

ويلاحظ أن موقف اليسار يتبلور أكثر فى الرد على مثقفى الخطاب الرسمى ومثقفيه من الموظفين والنفطيين، فحين يرفض أحد هؤلاء – د. فؤاد زكريا – الربط بين الغزو العراقى والأرض المحتلة « النظام العراقى لم يدخل الكويت من أجل فلسطين، وإنما من أجل أطماع مادية خالصة »[2]، فإن فيليب جلاب يرد عليه أنه لم ينكر ذلك ولايستطيع أحد أن ينكره، لكن المنطق ينكر حسن نية المحتلين للأرض المحتلة.

وحين يذكر فؤاد زكريا – مهاجماً اليسار – رواية نوال السعداوى حين سئلت: لماذا لاتنسحب العراق من الكويت أجابت: ولماذا لاتنسحب اسرائيل من الأرض المحتلة، وراح

---

(١) *الأهالى* ٢١ / ١ / ١٩٩٠ .
(٢) *الأهرام* ٧ /٣ / ١٩٩١ .

يضع نفسه في موقف تفنيد الحجة العربية التي ترى ، أنه ليس من حق إسرائيل أن تدعى الدفاع عن حرية أى شعب بينما هى تحتل أراضى ثلاث دول عربية ،[1]

وحين يشير إلى زيف دعوة الكيل بمكيالين التى يتحدث عنها مثقفى اليسار، يعود فيليب جلاب مجيباً عليه:

(- يفترض أن كل من يطالب بالعدل إزاء الشعب الفلسطينى لابد أن يكون مؤيداً للعراق. وكل من يتهم الولايات المتحدة الأمريكية بأنها تفرق فى المعاملة بين معتد وآخر إنما يسىء إلى العراق .

نحن أيها السيد الدكتور - يقصد فؤاد زكريا - لانخشى من أن نسىء إلى العراق إذا آثرنا ضرورة معاملة العدوان الإسرائيلى مثل العدوان العراقى. ونحن لم نخترع هذه الحجة للأسف فقد ذكرها كتاب وسياسيون غربيون كبار من بينهم بعض كبار المسئوولين فى الغرب. وقد كانت الحجة من القوة بحيث أكد كل زعماء العرب ان العدل سيأخذ مجراه لكن ليس قبل اخراج صدام حسين من الكويت. أما موقفك فهو مدهش لأن رأيك فى المقال المذكور هو أن الهيئات الدولية والغرب لاتكيل بمكيالين لأن الجريمة العراقية تختلف عن الجريمة الاسرائيلية فالأولى جريمة قتل تستحق الإعدام كما تقول والثانية الإسرائيلية جريمة نشل كيس نقود تستحق ستة شهور فقط)[2]

وتصدى آخر - لطفى الخولى - لرئيس تحرير الأخبار الذى كان يخصص كل مقالات الجريدة وأبوابها ومانشتاتها الرئيسية للهجوم على شعب فلسطين ورئيس منظمة التحرير، وقد بلغ هذا الهجوم إلى درجة اتهام الشعب الفلسطينى - كما أشرنا - بأنه (طابور خامس) .. وما إلى ذلك من الترهات.

والواقع أن الهجوم على قضية فلسطين وشعبها الآن زاد لدى رموز الخطاب الرسمى، ويكاد لا يمضى يوم إبان الأزمة إلا ونقرأ فيه لأحد المسئوولين فى الصحف القومية، أو فى (هوجة) الكتب الموجهة هجوما متزايداً، مما أثار حيرة بعض مثقفى اليسار، لطفى الخولى، الذى راح يسأل هل اتهام الشعب الفلسطينى بالعمالة هو مجرد غطاء، ثم راح يضيف:

(- غطاء لما يدور فى كواليس البيزينس من منافسات مشروعة وغير مشروعة بين بعض رجال الأعمال المصريين الذين يدخلون فى دائرة صداقات الأستاذ إبراهيم سعده ولاذوا إليه بالشكوى فما كان منه إلا أن قام بالواجب وأكثر؟)[3].

(١و٢) *أهرام* ١٤ / ٣ / ١٩٩١ .

(٣) *الأهالى* ٢ أكتوبر ١٩٩٠ .

ويربط المثقف اليسارى هنا بين موقف صاحب (الطابور الخامس) وبين أصحابه من القطاع الخاص وحرية رأس المال وتدفقه عربياً وأجنبياً للاستثمار فى مصر، وهو مايصل منه إلى النتيجة الطبيعية فى هذا الموقف من أن المطالبة بتصفية أعمال الفلسطينيين فى مصر وبين تقويض كل أسس وضمانات رأس المال فى مصر.

بَيْدَ أن لطفى الخولى يسرع ليبرئ ذمة رجال الأعمال المصريين من الوطنيين أو المصريين الفقراء، مفسراً أن:

(القضية الفلسطينية هى قضيتهم المركزية)

وبعد أن يسهب فى مهاترات سعده يسأل متمهلاً : هل هذا كلام سياسى مسئول من كاتب مصرى، يرأس تحرير صحيفة أسبوعية كبرى مملوكة لمجلس الشورى، إحدى الهيئات داخل النظام الدستورى المصرى ؟ .

إن هذا – يجيب – يوحى بأن رأيه هو الرأى الرسمى، وهو مايصل به إلى طرح قضية أكبر، وأشمل، هى قضية عدد كبير من الكتاب الذين تخرجوا من مدرسة السادات المعادية للعرب.

والمثقف اليسارى يتعرض فى بقية هذا المقال، ومقالات أخرى تالية، لموقف مسئول عن (أخبار اليوم)، وهو موقف يصل إلى درجة بعيدة من الاتهام الذى يصنف – على العكس مما يتهم به إبراهيم سعده منظمة التحرير – فى دائرة المرتزقة .

والواقع أن قوى اليسار لم تتعامل هنا مع قضية فلسطين على أنها من أهداف الغزو العراقى، وإنما كان الربط بين القضيتين – الكويت وفلسطين – كمجرد آلية لكشف نوايا الغرب[1]، بل ذهب البعض – فى سبيل ذلك – إلى درجة القول أنه من ناحية الشرعية الدولية فإن القضية الفلسطينية هى الأولى بأعمال هذا المبدأ بشأنها .

* * *

(١) نيفين مسعد، *مجلة الدراسات الإعلامية* ٦٤ / سبتمبر ١٩٩١ ص ٨٩ .

ثالثاً :

الخطـــاب الإســـــلامـى

رغم أن الخطاب الاسلامى فى الأزمة يضم عدداً كبيراً من الخطابات التى ترفد فيه والتى تتفرع منه، فسوف نكتفى هنا بخطابين أساسيين:

١ - حزب العمل الاشتراكى - الإسلامى

٢ - جماعة الإخوان المسلمين

فضلا عن عدد كبير من الإسلاميين المستقلين من شتى التيارات...

ولا يعنى ذلك أن الاكتفاء بهـذه الخطابات يظـل انتفـاء وجـود خطـابات أخـرى وإنما اختيارنا لمثـل هذه الخطابات بوجه خاص إنما ينبع من قناعة أنهـا تعبر عن (خطاب إسلامى) يقترب فى توجهه من تصورات واضحة، تتوفر بياناتها والتعبير عنها بالقدر الكافى، ولأنه قد تم التحـالف بين هـذين الخطابين - العمل والإخـوان - عـام ١٩٨٧ حين تحول حزب العمل الاشتراكى إلى حـزب إسـلامى إذ استطاع الحصول على قانونية قيـام حزبه.

يمضى فى هذا السياق أن مثل هذه التصورات لم تكن متطابقة، إذ تميز البعض منها بالتطرف، والبعض الآخر بالاعتدال المتطور مع الأحداث، غير أننا فى نهاية المطاف أمام المجال الحيوى لمّا عرف بالإسلام السياسى.

يلى هذه الملاحظة الخاصة ملاحظة عامة، هى، مايلاحظ من كثرة انشقاق الخطابات وتباينها إلى تفريعات كثيرة، وإذا كان ذلك يميز خطابات أزمة الخليج، فإنه يظل أكثر تعبيراً عن الخطاب الإسلامى بوجه خاص، إذ يلاحظ أن بعض الإسلاميين من النخبة اتخذوا عقب الغزو موقفاً معيناً، وأخذ بعضهم موقفاً آخر، بل إن الموقف الواحد تغير عند البعض بعد مرور قرابة أسبوع واحد، حين بدأت طلائع الغزو الغربى، فتبدلت المواقف، وأعيد إنتاج الخطابات مع تطور الأحداث وتغيرها.

ومع ذلك، فنحن أمام خطاب إسلامى يقترب من التجانس إلى حد بعيد حين يتعلق الأمر بالتّمرد على (الخطاب الرسمى) الذى يعبر عنه العديد من المؤسسات الدينية كالأزهر والأوقاف ودار الإفتاء.. وما إلى ذلك من رموز الحزب الوطنى فى شتى المجالات.

وإذا كان التباين بين الخطابين الرسمى والمعارض يبدو أكثر وضوحاً فى درجة تأييد النظام الرسمى أو معارضته، فقد تبلور أكثر موقفه المتمرّد فى إدانة العراق، وإدانة – على درجات من الصد والهجر – القوات الامريكية.

فلنقترب أكثر من أول روافد الخطاب الإسلامى: حزب العمل.

* * *

١ – حزب العمل :

كان الخطاب الإسلامى لحزب العمل أكثر وضوحاً قبل الغزو العراقى وبعده، إذ كان أول من أيد صدام حسين قبل نشوب الأزمة العسكرية، وتحدد موقفه منذ البيان الأول فى أن «الغزو الأمريكى للأراضى المقدسة أصبح أخطر من القضية»[1]، أى، أخطر من قضية الغزو العراقى للكويت بالقوة.

وفى ضوء ذلك تحدد موقفه عقب تطورات الأزمة.

(١) *الشعب* ٢١ *أغسطس* ١٩٩٠.

كان أول ماطالب به هو الانسحاب المتزامن - القوات الأجنبية والعراقية - ورفض الحصار الاقتصادى للعراق، كما شارك بأبرز ممثليه - إبراهيم شكرى وعادل حسين - فى مختلف محلولات الوساطة الإسلامية حينئذ، كذلك مثلت صحيفة (الشعب) - لسان حزب العمل - الموقف المعارض للوجود الأمريكى فوق الأرض العربية.

وقد ذهبت فى ذلك إلى رفض ذهاب القوات المصرية لتعمل فى الأرض المقدسة تحت إمرة القوات الأمريكية، وراحت تتحدث عن خضوع مصر لشروط أمريكا للحصول على المساعدات الاقتصادية، وقد عبرت عن موقفها من النظام السائد إلى درجة عنيفة وصلت الى التطاول على الرموز القيادية.

وقد كان من أكثر المظاهر عنفاً ماتخذته الصحيفة، خلال أصحابها أو الموالين لها، موقفا عنيفاً مناهضاً من (فتاوى السلطان) - كما أطلق على هذه الفتاوى لتبرير تواجد القوات الاجنبية - وهو ماسنصل إليه تفصيلاً فى موضعه.

وقد يكون من المهم لنُدَلل على حدة لغة (مفردات) هذا الخطاب أن نشير الى حزب آخر من الأحزاب القائمة، وهو حزب الأحرار، فقد لوحظ أنه وإن أظهر ذلك الحزب تمرداً على النظام السائد يشير إلى الحقوق التاريخية للعراق فى الكويت وضرورة إعادة توزيع الثروة بين الأقطار العربية لخطورة ذلك على الخلافات العربية العربية.. إلى غير ذلك، فإن موقفه لم يخرج عن الخطاب الرسمى من تبنى قيادته لموقف صريح يدين الغزو العراقى للكويت ومطالبتها بالانسحاب الفورى، وهو ماشارك فيه بدرجات أحزاب وجماعات مناهضة أخرى من أمثال جماعة الإخوان المسلمين وتنظيم الجهاد وعدد كبير من المثقفين المستقلين.

صحيح أنه مع تطور الأحداث، وإعلان الأقطار العربية إرسال قواتها إلى السعودية لتقف تحت إمرة القوات الأجنبية استنفرت همم عديد من التيارات الإسلامية فى اتخاذ مواقف تقترب من مواقف حزب العمل، فقد ظلّ موقف هذا الحزب أكثر المواقف عنتاً وعنفاً فى مواجهة الغزو الغربى على الإطلاق.

ولقد كان موقف عادل حسين - وهو مثقف شارك فى الفترة الناصرية وعرف سجونها - هو أبرز ممثلى هذا الحزب، وهو موقف لانستطيع التعرف به أكثر الإمن خلال وجهات النظر المعارضة، إذ راح البعض يتمرد على الحزب ويدخل فى معارك خلافية حادة مع عادل حسين منذ الأيام الأولى ..

وقد كان أكثر أولئك رفضاً لطبيعة الغزو محمد سليم العوا الذى جاء رد فعله فى صحيفة (الشعب) منذ البداية، حين لاحظ أن رئيس تحريرها - عادل حسين - لم يشر من قريب أو بعيد الى إدانة يوجهها لغزو العراق كما لم يشر إلى الإصلاح التى يجب أن تنتهجها الدول العربية تصديقاً لقول الآية ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ﴾، وراح العوا يلوم ممثلى حزب العمل على تجاوز العدوان دون التصريح بالرأى المخالف لما يحدث مما يحول دون الاهتمام بقضية الاحتلال.. وما إلى ذلك من الرفض لقبول العدوان الباغى من العراق على الكويت(١).

والواقع أن الخلاف بين أبرز رموز الخطاب الإسلامى فى حزب العمل إنما يحدد موقف عادل حسين، وهو لايخرج عن أمرين:

- رفض التدخل العربى ضد العراق

- رفض التدخل الغربى أيضاً

وقد راح يؤكد فى أغلب كتاباته الأولى أن هذا التدخل الغربى ضد دولة مسلمة إنما هو أخطر من القضية الأصلية.

وحين يتصدى لعدد كبير من أقطاب الخطاب الإسلامى من أن العراق إنما هىٍ دولة علمانية، ومن ثمّ فإنه لايمكن أن نقيم اعتباراً كبيراً لكون التدخل الأجنبى يمثل خطورة ضدها، يجيب عادل حسين بأنه «حتى لوكانت القيادة دنيوية (علمانية) أو ملحدة، فإن دورها فى التمهيد لنصر الإسلام يكون مؤكدا إذا أراد الله أن يجعلها سبباً فى إضعاف الولايات المتحدة وحلفائها» .

ويسهب أكثر فى حقيقة صدام حسين الذى يقف على رأس هذه الدولة بقوله « لاأغفل أن صدام حسين (رغم خلافى الكبير معه) هو أخطر على أمة العرب والإسلام من بوش وشامير» .

---

(١) انظر مقالة سليم العوا، ورد عادل حسين فى نفس العدد من صحيفة الشعب ٢١ أغسطس ١٩٩٠ ، وقد قال العوا :

- أنا الآن مع الكويت .. ولاأشعر قط أننى مع الوجود الأجنبى . وقد ألمح مراراً إلى الرأى المعارض من أن موقفه من العراق - فى المقابل - هو موقفه من دولة علمانية بعثية .

بيْد أن ذلك لايجب أن يجعلنا نغفل أن عادل حسين حاول ترديد مبررات الغزو العراقى من التواصل الجغرافى مع الكويت وفساد السياسة النفطية لآل الصباح والتشجيع الأمريكى المستتر الذى كانت الكويت تعمل به قبل الغزو، وبهذا لا يكون غريباً أن يصل إلى الفرض القائل أن النظام العراقى إنما تعرض لاستفزازات كانت تشير من ناحية العراق إلى التلهف دون جدوى للحصول على منفذ على الخليج وتثبيت الاقتصاد العراقى بتثبيت أسعار البترول، وهى كلها تجاهلتها الكويت تماماً، ولذلك لم يكن غريباً أن تكون النغمة العالية فى إعداد صحيفة (الشعب) فكرة إعادة توزيع الثروة العربية وتوجيه التخريج الشرعى لها[١].

وهذا كله كان أكثر اتساقا مع موقف صحيفة (الشعب) وتفسيراً لمواقفها، ومن ذلك تأييد الربط بين غزو الكويت والقضية الفلسطينية حين رددها النظام العراقى، كذلك يفسر ترديد فكرة المؤامرة الغربية على العراق، فالغرب كان قد سلح العراق لإجهاض إيران، وقد تم له ما أراد، فإنه توجه الآن إلى العراق ليهتبل أية فرصة للقضاء عليه فلو لم يحدث الغزو لكان الغرب افتعل ازمة يصطدم بسببها مع العراق[٢].

وهذه الفكرة المحورية التى ترددت فى بغداد ترددت طيلة أشهر الأزمة وبعدها فى صحيفة (الشعب) أو عبر عديد من أصوات حزب العمل بشكل يلْفت النظر مما يشير إلى أن المبررات العراقية كانت هى المبررات المكررة فى حزب العمل الإسلامى.

وسوف نضطر للتمهل (مرة أخرى) أمام الخطاب المنشق على حزب العمل لتأكيد خطاب هذا الحزب بشكل عكسى، وخاصة أن أهم المنشقين عنه – حسن درة – لم يكن من أصحاب بيان (الإسلاميين المستقلين) الذى صدر إبان الأزمة ليمثل خطاباً آخر فى التيار الإسلامى بقدر ما كان رد فعل للموقف الرسمى لحزب العمل.

وعلى هذا يمثل المهندس حسن درة أهم الأصوات المغايرة لحزب العمل فى تنويعات حزب العمل نفسه وليس اللاغية له.

وقد بدأ الانشقاق على حزب العمل حين نشرت مذكرة قدمها رئيس حزب العمل (بالتحالف مع الإخوان) وليس بها إدانة صريحة للعدوان العراقى، وهنا اعترض حسن درة،

---

(١) انظر مقالة محمد حلمى مراد، الشعب ٢٨ / ٨ / ١٩٩٠

(٢) الشعب ٢١ / ٨ / ١٩٩٠.

وأصدر بياناً منفصلا يعبر عن رأيه فى الأزمة، وهو رأى، أصبح لاينتمى لحزب العمل أو لتوجه جماعة الإخوان.

ويمكن فهم موقف حسن درة خلال موقفه العام الذى مثل ضفيرة تتكون من فرعين اثنين، إحداهما فى مواجهة حزب العمل والأخرى فى مواجهة جماعة الإخوان، وكلاهما يرفض استبعاد القوات الأجنبية دون المطالبة من صدام بسحب قواته.

وما يهمنا هنا الآن هو موقف حزب العمل.

لقد جاء رفض حسن درة للمذكرة التى قدمها رئيس حزب العمل لمؤتمر القمة العربى انطلاقا من كونه نائب رئيس الحزب، وقد تبلور هذا برفض فى بيان مالبث أن نشر فى اليوم التالى – ١٥ أغسطس – وقد سجل فيه الآتى:

١ – لم تدن العدوان العراقى الغاشم فى أى بند من بنود المذكرة، ولم تطالب بعودة الحق الى أصحابه، وفى هذا اعتداء صارخ على أحكام الله.

٢ – المذكرة تطالب بحفظ كرامة الأطراف المتصارعة بحيث يشعر كل طرف أنه حصل على جانب مما يتمسك به، إذ أن أى تسوية مرضية تتطلب تقديم تنازلات متقابلة.

معنى ذلك أن هذا الحزب عند أحد أعضائه السابقين وافق وأقر بالأمر الواقع الذى فرضه هذا الطاغية بالبطش والبغى والعدوان .

٣ – المذكرة تطالب باستبعاد القوات الأجنبية من المنطقة العربية.. باعتبارها تدخلاً أجنبيا والمدهش حقاً أنها لم تطالب الطاغية الباغى بسحب قواته.

وعلى ذلك، ففى حين طالب بالدعوة لسحب قوات الغزو لئلا يقع العرب فى محظور مساندة الباغى، فإنه وقع فى محظور آخر، إذ رأى أن مواجهة هذه القوات لايكون إلا بتدخل القوات العربية والأجنبية وهو ما بدا ضد صدام حسين على اعتبار أن ذلك التدخل يجىء إنطلاقا من ميثاق الأمم المتحدة، من جانب، وتأكيداً لقرار جامعة الدول العربية وبيان منظمة المؤتمر الإسلامى من جانب آخر، وكأنه يضع هذا التدخل معياراً عن حسن نية القوى الغربية وفى مقدمتها القوات الأجنبية، ويضع المؤتمرات العربية فى خانة الإرادة الحرة التى دفعت بها لاتخاذ مثل هذه القرارات، وهذا غير صحيح.

إن الإلتزام بالقرارات الدولية – ونحن نعرف أن الولايات المتحدة الأمريكية وراء قرارات الأمم المتحدة – والالتزام بالقرارات العربية – ونحن نعرف أن الإرادة العربية ليست حرة تماماً – أقرب من التسرع فى الحكم على الواقع، فليس الإلتزام بهذا أو ذاك كما يرى

تعبير (الشرعية الدولية)، فلم تعد هـذه الشرعية تؤسس على وعى وحرية فى اتخاذ القرار بأيـة حـال.

والواقع أن المثقف المسلم المعارض للخطاب الذى ينتمى إليه لايرى غضاضة فى الاستعانة بالقوات الأجنبية لرد الحقوق المغتصبة وإعادة الحق لأصحابه الذى اغتصبه هذا الطاغية . وهذا الموقف هنا لايتمثل فى فرد واحد وإنما فى أكثر من فرد مما يتحول التعارض داخل (الخطاب) الواحد إلى (خطاب) جديد لايؤكد الخطوط الأساسية فى الانتماء الأول، بقدر مايتمثل خطوطاً أُخرى تضيف إلى هذه الخطوط لتصنع لوحة جديدة.

وهو موقف يقترب من موقف المثقف المستقل وإن كان يمضى فى السياق الذى اعترض عليه وليس ضده بأية حال .

ومهما يكن، فإن هذا الخطاب الأخير يقترب بنا من بقية الخطابات الأخرى .

وباختصار، فإن حزب العمل اتخذ موقفاً حاداً من الغزو العراقى، إذ راح يؤيد الموقف العراقى فى أول الأمر، ثم راح يغلو فى هذا الأمر أكثر حين تدخلت القوات الأجنبية بحيث يصل بهذا الموقف الى أقصى درجات التمرد على النظام السائد ومن ثمّ تأييد النظام العراقى، وكانت الممارسة فيها تعبر عن قدر كبير من ذلك، بمشاركته فى المؤتمر الذى دعا إليه النظام العراقى قبل الحرب .

٢ - الإخوان المسلمون :

كان الإخوان قد أقلعوا عن العنف منذ بداية السبعينيات من هذا القرن، وأيدوا وجهة نظر الدولة للاندماج فى (اللعبة) السياسة الجديدة، حتى إذا ما جاءت حرب الخليج، كان من الطبيعى أن يؤيد الإخوان هذا النظام، خاصة وأن الجماهير فى مصر كانت تميل الى موقف هذا النظام بفعل عوامل كثيرة أشرنا إليها.

وهذا يفسر موقف الإخوان أول أيام الأزمة من الميل لإدانة الغزو العراقى أكثر من الميل للاعتراض على الوجود الأجنبى[1]، وقد زاد الاعتراض على الوجود الأجنبى حين بدأ

(١) البيان الأول للإخوان فى الأيام الأولى، وأيضاً تصريحات قادة الإخوان ، انظر - على سبيل المثال - ماقاله الهضيبى فى جريدة القدس ١٩٩٠/١/٣١ بالنص :

- إذا كان هناك سارق "يقصد الولايات المتحدة" فى المنزل لأن ابنى فتح له الباب فهل يجب أن أؤنب ابنى وأترك السارق ؟ أم أطارد السارق ثم أهتم بابنى" ؟

أيضا : السفير ١٩٩١/٧/٢ مقالة هامة لدلال البزرى .

القصف الجوى على العراق، فبدا موقف الإخوان أكثر ميلاً لإدانة العدوان الأجنبى وطالبوا بسحب القوات المصرية من الخليج والسعودية.

وعلى هذا، فبينما بدأ الإخوان مغرقون فى القطرية أول الأمر، منحازين إلى النظام السائد فى مصر، تحولوا مع تطور الأحداث إلى (عروبيين) يتحدثون عن قضية فلسطين، وضرورة الجلاء الأجنبى وإن لم يخففوا الوطأة فى هجومهم على الغزو العراقى.

لقد كانت مواقف الإخوان تميل إلى ذلك مع أنهم كانوا لايرون فى العراق غير دولة علمانية، بل إنهم حملوا القوميين ماحدث، فأزمة الخليج عندهم هى «ثمرة خبيثة لشجرة القومية العربية» [1].

ويمكن فهم موقف الإخوان من تحليلهم للغزو على أنه مؤامرة ومخطط أجنبى يعود أساسا إلى «عوامل الوهن الكامنة فى المجتمعات الإسلامية، باعتبار أن تلك العوامل – مثل الفساد والتبعية والتجزئة ... إلخ – قد ساعدت على وقوع الأزمة ومن ثمّ على تنفيذ المؤامرة ونجاح المخطط.. الذى تبناه على المستوى الخارجى الاستعمار والصهيونية، وعلى المستوى الداخلى الابتعاد عن الاسلام والاستبداد والتجزئة..الخ» [2].

على أية حال، فإنه بالعودة إلى بيانات الإخوان الأولى نرى المطالبة بضرورة انسحاب العراق من الكويت وإعادة الشرعية وضرورة محاولة إيجاد حل عربى معبر يحول دون التدخلات الأجنبية المتوالية، كما دعوا فى بياناتهم المتوالية إلى ضرورة البحث عن نقاط التقاء جديدة يمكن التباحث حولها حفاظاً على الوحدة العربية والكيان العربى الذى أصبح مهدداً بشكل غير مسبوق نتيجة للوجود المكثف للقوات الأجنبية فى المنطقة[3]»، وإجمالاً فإنه يلاحظ أن موقف الإخوان بعد فترة كافية من الغزو الأجنبى تحدد فى الآتى:

- إدانة العراق
- سحب القوات الأجنبية
- سحب القوات العربية
- الهجوم على العدو الصهيونى[4]

---

(١) الشعب ٢٨ /٨/ ١٩٩٠.

(٢) المؤتمر السنوى للبحوث المقدمة إلى مركز الدراسات بجامعة القاهرة، تحت إشراف د . على الدين هلال، من بحث د . إبراهيم البيومى غانم ص١٧، ١٨

(٣) على سبيل المثال انظر : البيان الرابع للإخوان، أيضا : الأهرام الدولى ١٧ / ١١/ ١٩٩٠

(٤) انظر : نداء الإخوان بجريدة الشعب : ٢٢/ ١/ ١٩٩١.

ومراجعة بيانات الإخوان ونداءاتهم المتوالية ترينا أن الميل لإدانة صدام حسين لم يحل دون اتخاذ موقف صارم أكثر غلواً منه فى الفترة التالية، وهو ماأوقع حركة الإخوان العالمية فى تناقض قطرى مع حركة الإخوان فى مصر – كما سنرى – إذ تباينت مواقف جماعات الإخوان على مستوى العالم مما أشار إلى أن الموقف الاخوانى من الأزمة فى مصر كان فى الجوهر قطرياً ينطلق من مجموع التقاليد الفكرية والسياسية التاريخية للإخوان(١)

وعلى أية حال، لنقترب أكثر من إدارة الأزمة على المستويين الداخلى والخارجى:

– **المستوى الداخلى :**

لوحظ من البيان الأول للإخوان أنهم اعترضوا على الغزو العراقى وأدانوه، اذ نقرأ فى هذا البيان الأول أن الجماعة لاتقر استخدام القوة فى العلاقات بين الدول العربية، وهى تعارض كل تدخل عسكرى بين دولة عربية أو مسلمة ضد دولة أخرى(٢).

وعلى ذلك ترددت دعوتهم فى الفترة الأولى إلى الدعوة لانسحاب صدام حسين، لأن موقفه سوف يؤدى الى التدخل الاجنبى، وهو ما تنبأوا به على اعتبار أن نظرية (المؤامرة) الصليبية الصهيونية هى ماتسيطر عليهم.

ومن أجل هذا لوحظ نشاطهم فى حضور وساطات، ومركزاً على من يكيل بمكيالين فى الأزمة، فالشرعية الدولية فى خدمة إسرائيل وليس العراق، والتأرجح بين التأكيد على عدوانية التدخل الأجنبى وقبول فكرة الربط بين قضاياالمنطقة كما دعا اليها العراق مما جعلهم يقعون فى شرك القبول المشروط بالتدخل الأجنبى، وهكذا نجد رؤية الإخوان متأرجحة بين مقتضيات المثالية السياسية التى يؤمنون بها والتى عبروا عنها بالرفض المبدئى للتدخل الأجنبى، وبين مقتضيات الواقعية السياسية التى كان عليها الواقع، وقد عبروا عنها بقبولهم لفكرة الربط بين قضايا المنطقة وهو أمر يقضى بالضرورة تدخلاً أجنبياً(٣)

ويلاحظ أن موقف الإخوان من مسألة اشتراك قوات مصرية كان مشروطا أن تكون ضمن قوات عربية وإسلامية بعيدة عن التدخل الأجنبى، غير أن التدخل الاجنبى جعلهم يتراجعون ويرفضون تدخل القوات العربية الإسلامية بما فيها القوات المصرية من المرفوض

---

(١) *التقرير الاستراتيجي ، السابق* ص ٣٠٢

(٢) *بيان الإخوان، ١١ أغسطس* ١٩٩٠

(٣) *المؤتمر السنوى ، السابق* ص ٢٣ ، ٢٤

رفضاً كاملاً إرسال أى قوات، عربية بصفة عامة أو مصرية خاصة، لأنه يكون من المُسلَّم به أن وضع القوات العربية فى المنطقة سيكون وضع التابع للقوات الأمريكية وحليفاتها الأجنبية التى لها حق التصرف واتخاذ المبادرة دون أى اعتبار للقوات العربية عامة والمصرية خاصة(١) وقد كان الإخوان أكثر القوى تخوفاً من القوات الأجنبية بوجه عام.

لقد كانت المعارضة أساساً ضد القوات الأجنبية لا العربية أو المصرية وحين نشبت الحرب كان موقف الإخوان مختلفاً تماماً عن موقف حزب العمل، ففى حين اتفقوا معهم على خطورة الغرب وسياسة (المؤامرة)، فإنهم اختلفوا عنهم فى الدعوة إلى (الجهاد) ضد الكفار، وهو الشعار الذى ألهب حماس كثير من قوى التيارات الإسلامية.

لقد كان موقفهم أكثر اعتدالاً ووعياً بخطورة الحرب، حتى إنهم وجهوا نداء إلى الرئيس مبارك بسحب القوات المصرية من الخليج(٢)، وطالبوا بإيقاف حرب تدمير العراق من المنطقة العربية والإسلامية، ونبهوا إلى قوة العراق التى فى سبيلها إلى التدمير يجب أن نستدرك لها الى الحل الدائم والحل السريع(٣) انتظاراً لحربنا مع العدو الصهيونى على اعتبار أن القوة العراقية هى جزء من القوة العربية فى معركتنا مع إسرائيل وتحرير فلسطين، وإذن، فإن الوعى بخطورة الحرب ضد العراق على مصير القضية الفلسطينية هو أهم ما يميز جماعة الإخوان المسلمين .

- المستوى الخارجى :

ويبدو أن موقف إخوان مصر وتناقضهم إبان الأزمة انعكس فى علاقتهم بإخوان الكويت، وقد كان ذلك انعكاساً سلبياً .

كان وراء هذا الغضب من إخوان الكويت يعود إلى أن بيانات إخوان مصر وإن كانت تميل إلى إدانة صدام فإنها تدعو إلى رفض الوجود العسكرى الغربى فى الخليج، وهو ما اعتبرته جماعة الإخوان فى الكويت تحالفاً مع قيادة بغداد(٤)، وقد كان مظاهر هذا كثيرة من أهمها استقالة أبرز رموز الإخوان فى الكويت - إسماعيل الشطى - من رئاسة مجلة

---

(١) *انظر بيان الإخوان بالقاهرة ١١/ ٨/ ١٩٩٠.*

(٢) *نداء الإخوان بالشعب فى ٢٢ / ١ / ١٩٩١*

(٣) *الشعب ٨ / ١ / ١٩٩١ مقالة لمصطفى مشهور*

(٤) *جريدة الحياة اللندنية ٢ يناير ١٩٩٠.*

(المجتمع) الناطقة بلسان الإخوان فى الكويت فضلاً عن تجميد التنظيم القطرى للإخوان بالكويت من التنظيم العالمى للإخوان.

والواقع أن موقف «اخوان» مصر فى حد ذاته لم يكن عليه شبهة خاصة فى الفترة الأولى من الأزمة، وإنما تبلور هذا إلى خلاف حاد على أثر انتهاء العمليات العسكرية حين اتهم المرشد العام «لاخوان» مصر صراحةً بمساندة العراق بإعلانه لوفد الوساطة بين الكويت والعراق فى٢ سبتمبر١٩٩٠، وبعض بيانات الإخوان التى تطالب الحكومة المصرية باتخاذ «موقف منحاز من العراق»[١]، وما صاحبه من حجب الأنظار عن مأساة الكويت ومالإلى ذلك فى البيان الطويل الذى كان كله اتهاماً «لإخوان» مصر[٢]، ومالبث أولئك الأخيرون أن أصدروا رداً مناهضاً[٣] جاء فيه: «إن بيانات الإخوان لم تطلب أبداً اتخاذ موقف منحاز لصالح العراق، وإنما طالبث بالحفاظ على قوة العراق وثروة الكويت لحاجة الأمة إليهما وباعتبار جيش العراق درعاً من دروع الأمة، وحتى لاتترك لأمريكا ماتريده من جعل دولة الكيان الصهيونى هى أقوى فى المنطقة/ أما تحرير الكويت فلم يكن الإخوان فى يوم من الأيام ضده، بل اعتبروه مطلباً اسلامياً .

كذلك يشير الرد الى عدم مسئولية «إخوان» مصر عن «إخوان سوريا» أو الأردن بل عدم مسؤلية «الإخوان» المصريين المركزيين عن تصريحات أى وفد لهم خارج مصر فهى لاتزد على أن تكون «تصريحات فردية» .

ونحن نميل إلى أن موقف الإخوان المصريين لم يكن مع صدام قط – ونحن نصدق المستشار الهضيبى فيما بعد–[٤]، وانما كان الخطر الاكبر الذى يحذرون منه دائما هو العدو الأمريكى (وكثيراً ماصرحوا بتخوفهم من الحروب الصليبية ونظرية المؤامرة..الخ)، فهو الذى جاء بصدام وهو الذى اصطاده ثم ورطه، وهو الذى دفع مأمون الهضيبى ليقول صراحة: « فلنجاهد من أجل إعادة الكويت ٢٠ سنة ولاتدخلها أمريكا ولاتطأ قدم أجنبى واحد أى مكان على الأرض العربية [٥].

---

(١) *صوت الكويت* ٢٠ / ٧ / ١٩٩١

(٢) *السابق، وهو يعنى اتهاماً للتنظيم العالمى للإخوان ككل وأنه فقد قدرته على السيطرة على أعضائه .*

(٣) *صوت الكويت* ٩/٨/ ١٩٩١ *وكان الرد من صلاح عبد المقصود رئيس تحرير مجلة "اللواء" الإسلامية .*

(٤) *روز اليوسف* ، ٢٩ / ٧ / ١٩٩١

(٥) *السابق* ١ / ٢ / ١٩٩١

وقد زادت الفجوة بين «الإخوان» فى مصر و«الإخوان» فى الكويت أن العلاقة بين التنظيمات القطرية وقيادة التنظيم الدولى ليست علاقة ولاء كامل وإنما تتمتع بمرونة.. وهو ما جعل القيادة المصرية للإخوان لا تستطيع السيطرة على القيادات الفرعية الأخرى فضلاً عن أن الإسهام الفعلى المالى لجبهة الإخوان الدولية كانت لقيادات سعودية وكويتية خليجية أكثر منها مصرية، ومن هنا فإن (الخطاب الإسلامى) الذى يمثله إخوان مصر وقع فى حيرة التأييد أو المناهضة فى حين أن الولاء القطرى غلب عليه فاتخذ موقفاً رسمياً خاصة فى أول فترات هذه الأزمة.

وعلى هذا النحو، زادت الاتهامات بين الخطاب الإسلامى فى مصر والخطاب الإسلامى فى الكويت مما أدى الى الانفصام بينهما ومما أدى - بدوره - إلى تعميق الخلاف القطرى بين الجماعتين.

على أن الذى يهمنا هنا هو خطاب جماعة الإخوان فى مصر، إذ بدا موقفه أقل بكثير من الحزب الذى تحالف معه - حزب العمل الاسلامى - كما أعلن مرشد الجماعة لأكثر من مرة أن تفسير الأزمة يقتضى الإشارة إلى بعد المسلمين عن تعاليم دينهم، فهو هنا لم يكن ليدين الكويت أو العراق، وإن بدا التحول رويداً رويداً الى إدانة حاكم العراق لطغيانه الذى أدى الى تدمير المنطقة العربية لا العراق وحدها، وهو ما ظهر فى البيانات الأخيرة حين بدا أن فعل صدام حسين يتحول إلى الحماقة أكثر منه إلى المخاطر التى تتعرض لها المنطقة العربية.

وينعكس الوعى مع الخطاب الإسلامى بعد ذلك عبر مستويين، أولهما، موصل للآخر، الأول، حين يصبح الموقف مستقلا عبر عدد من الشخصيات التى تعكس الموقف الفردى، ولايلبث هذا الموقف أن يتحول - فى الوقت نفسه - إلى موقف جماعى تعبر عنه بيانات (الإسلاميين المستقلين) كما أعلنوا عن أنفسهم إبان الأزمة.

وسوف يكون علينا أن نتمهل عند الموقف الفردى لدى عدد من المثقفين قبل أن نصل إلى الموقف الآخر، الجماعى .

أولاً – الموقف الفردى :

تفاوتت اتجاهات هذا الموقف بين التطرف الشديد (حزب العمل) أو الاعتدال الشديد (الإخوان)، وقد كان أبرز هؤلاء على سبيل المثال أسماء من أمثال: محمد سليم العوا، أحمد بهجت، حسن درة، فهمى هويدى.. وغيرهم.

وعلى هذا النحو، فنحن أمام اتجاهات متباينة، تُعبر عن الخطاب الإسلامي بشكل يمثل ارهاصات كيفية فيما بعد.. أن صدام حسين عند حسن دره هو: «طاغية، سفّاح، متسلط، خائن لأمته، وعروبته.. التهم واغتصب بكل الوقاحة والتبجح جارته المسالمة، وسطا على مقدرات شعبها وشرّد أهلها، وجعلها هذا الشيطان الباغ إحدى محافظات وليمته...»[1] إلى آخر هذه التعبيرات التى تعكس موقفاً مستقلا عن الخطاب الإسلامى السائد، سواء حزب العمل أو الإخوان أو حتى تنظيم الجهاد.. وراح آخر يعلن رفضه مع حزب العمل – كسلفه – ويدعو إلى قتال «الفئة الباغية، لكف العدوان»[2]، وراح يدخل فى جدل طويل مع معارضية متسائلاً كيف يجوز لنا أن نغفل واجبنا فى قتال الفئة الباغية وراح عبر منابر صحفية كثيرة يعرض لرأيه فى افتئات صدام حسين على أهل الكويت، متناولا كل التبريرات التى خرج بها صدام حسين مفندا لها من الوحدة العربية الى قضية الثروة منتهيا من طغيان القائد العراقى إلى مايؤدى اليه، وهو أنه بفعلته بغزو الكويت إنما أتى بالجيوش الأجنبية، فالاهتمام الخارجى بالمنطقة هو اهتمام مشبوه لاشك فيه وإنما الهدف الحقيقى الوحيد المعلن والخفى هو تحقيق مصالح الغرب وأطماعه»[3].

معنى ذلك أنه فى حين يدين صدام الغزو الأجنبى فى آن واحد، ولايربط بين السبب والمسبب بالضرورة وإنما يشير إلى التقاء الرغبات التى أشعلها أولاً النظام العراقى.

ويتوقف أحمد بهجت أكثر عند صدام حسين الشخصية الديكتاتورية التى كان قد تنبأ بكثير مما أتت به قبل هذا الغزو حين تحدث طويلاً عن خصائص الشخصية الاستبدادية، حتى إذا مابدأ الغزو كان أول من عارضه رافضاً غزو العراق للكويت.. تماماً مثل رفضنا أن يتحول العالم إلى غابة[4].

---

(١) *المصور، ٨ فبراير ١٩٩١*

(٢) *محمد سليم العوا، العبث بالإسلام فى أزمة الخليج، الزهراء للإعلام العربى، القاهرة ١٩٩٠ ص ٣١*

(٣) *السابق، ص ١١٧*

(٤) *الأهرام ٤ أغسطس ١٩٩٠ وهو يقول، حين يهاجم من يتحدث عن القوات الأجنبية أن الإمبريالية :*

(– لم تتدخل فى الخليج، أن الذى تدخل هو العالم كله شرقه وغربه وشماله وجنوبه بما فيه من إمبرياليين وشيوعيين ومسلمين ومسيحيين ومتدينيين وغير متدينيين.. و.. أن ماتفعله جيوش الإمبريالية للأسف.. =

على أن هجوم الكاتب على الطاغية أوقعه فى محظور الصمت أو الدفاع عن الوجود الأجنبى وأهدافه فى المنطقة العربية، فهذا الوجود الذى جاء على أحدث آلات الترسانة العسكرية الغربية.. جاء «لقتال الباغى» ، منفقاً مساحات كبيرة فى الهجوم على من يتحدث عن الإمبريالية .

وحين كتب إليه البعض رافضاً الاستنجاد بالإمبريالية راح يذكره بألا يغض الطرف عن السبب المنشئ والتدخل، وراح يتحدث عن الإخوة الذين أهدروا القانون الإلهى لقتال الباغى(1) .

وقد حرص فهمى هويدى منذ بداية الأزمة على التحليل الموضوعى مظهرا ميلاً كبيرا إلى ادانة العراق فى السياق الاسلامى الذى أختاره(2)، ولم يتردد تحت عنوان (سفر الالتباس) من أن يعرض لكثير من القضايا التى كانت تلقى كثيراً من الاهتمام لمابها من اعتدال يليق بجريدة الاهرام التى كان يكتب بها، مّما تّبلور أكثر فى البيانات لتى شارك فى صياغتها والاسهام فيها ونشرها بهذه الجريدة، كما سنرى.

ثانيا- الموقف الجماعى .

٣ - إسلاميون مستقلون :

كان يمكن، فى الخطاب الإسلامى، تمييز عددٍ من المثقفين الذين لم يلبثوا أن كوّنوا خطاباً متميزاً خاصاً بهم، تبلور أفراده منذ الأربعينيات فى مصر،(3) حتى اذا ماكانت أزمة

= *أقل بشاعة مما يفعله جيش صدام حسين فى الكويت.و .. أن صدام حسين يرتدى عباءة الإسلام ويلعن الإمبريالية ونظامه أسوأ من الإمبريالية والإسلام برىء منه)*
(الأهرام ١٣ أغسطس ١٩٩٠)

(1) *ويكمل (.. أو كانوا لايستطيعون تنفيذه فماذا يكون الحل؟ هل يقبل الإخوة ظلم القريب ولايستعينون بالغريب؟ إن هذا تكليف بما هو فوق الطاقة) انظر: الأهرام ١٧ أغسطس ٩٠*

(2) *ومقالات فهمى هويدى منذ البداية كانت تشير إلى مثل ذلك، انظر - على سبيل المثال مقالة (مصارحة واجبة) الأهرام ١٤/٨/، و(زمن الاجتراء) ٩/ ١٠ / ١٩٩٠*

(3) *كان أحمد كمال أبو المجد قد بلور أفكار هذا التيار عام ١٩٨١ فى بيان بعنوان (نحو تيار إسلامى جديد) عند عدة أفكار التقى عندها عدد كبير من المفكرين الإسلاميين ثم عاود نشر أفكار هذا البيان بشكل أكثر تحليلاً ومستوح من أحداث الأزمة وما جد من أحداث، ونشر ذلك بالفعل فى كُتيب بعنوان (رؤية إسلامية معاصرة/ إعلان مبادىء) دار الشروق، القاهرة ١٩٩١، وقد مثّل رموز أغلب هذا التيار المسلمين المستقلين.. والواقع أن هذا التيار لم يلتفت إليه بالفعل بشكل عملى، اللهم إلا، عبر بعض المقالات المتفرقة مثل التى نشرها فهمى هويدى بأهرام ٣٠ / ٧/ ١٩٩١ .*

الخليج حتى آثروا الاعتدال فى اتخاذ الموقف بعيداً عن غلو (حزب العمل) أو تردد (جماعة الإخوان) فى فترة من الفترات، ومالبثوا أن أصدروا بياناتهم بشكل جماعى تحت عنوان (الإسلاميين المستقلين).

لقد أصدر هذا التيار أكثر من بيان، وسودت تصريحات أصحابه صحف ومجلات وندوات وكتيبات مالبث أن لعبت دوراً حيوياً فى الأزمة، لم تحل، دون، الاستقلال والتميز.

ويمكن أن نشير إلى عدة ملاحظات عن هذا التيار قبل أن نفرغ الى (الخطاب) الذى عبر عنه أثناء الأزمة.

لقد توالت بيانات هذا التيار أثناء الأزمة حتى وصلت إلى ثلاثة بيانات(١) جاء فى كل بيان توصيفاً لهوية هذه الجماعة، فقد أطلقوا على أنفسهم مرة «علماء الأمة ومفكريها وذوى الرأى فيها، وفى بيان ثان.. ومثقفيها، وفى بيان ثالث يسمون أنفسهم «أهل الحق والعقد» مما يشير إلى إحساسهم بدورهم «فى الأزمة» وأعين بما يجب أن يكون رد فعل المثقف العربى المعاصر الذى يتحدد ليس طبقياً وإنما فكرياً بما يقترب به من المثقف (التقليدى)(٢).

إن هذا المثقف الذى ينتمى – أساساً – للنسق الدينى فى المجتمع يقف بين المثقف اليمينى والمثقف اليسارى، أو الخطاب الرسمى والخطاب المعارض، ومن هنا، فإنه فى حين يسعى للتغيير متلمساً الفكر الأيديولوجى العقيدى يحاول أن يقف بمعزل عن (الهيمنة) الرسمية.

إن هذا المثقف الذى ينتمى إلى مؤسسات دينية ومدنية، لكنه يدرك وظيفته النابعة من الموقع الذى يقف فيه.

---

(١) البيان الأول، الأهرام ٢١/٨/ ١٩٩٠ (ملحق رقم ٥)
البيان الثانى، الأهرام ٢٩/١/١٩٩١ (ملحق رقم ٦)
البيان الثالث، بيان مخطوط بعنوان (بيان للناس فى أزمة الخليج) (ملحق٧)

(٢) المثقف التقليدى عند جرامشى (خاصة فى دفاتر السجن) يقترب كثيراً من هذا المثقف المستقل هنا، فهم يمثلون إلى حد كبير استمرارية تاريخية، وفى الوقت نفسه استقلالية عن "الفئة الاجتماعية المسيطرة"، وهم وإن كانوا يحتكروا بتعبير جرامشى" لزمن طويل بعض الخدمات الهامة، مثل الأيديولوجية الدينية أى الفلسفة وعلوم ذلك العصر.." فانها تشكل الآن فى مصر فئة عريضة تنتشر فى كثير من المؤسسات وتحرص على قدر من (الاستقلال) تسعى معه أن تكون مستقلة عن الدولة.

ونظرة عجلى إلى أسماء هؤلاء ترينا أنهم يتولون - بالفعل - المناصب العالية فى مؤسسات دينية وعلمية وفلسفية[1] .

هذه ملاحظة، والملاحظة الأخرى أنه ينتمى إلى هذه الجماعة التى تنتمى إلى النظام السائد وظيفياً فى مصر أو - حتى - فى بعض دول الخليج، أو ينتمى إلى بعض الجماعات الإسلامية الفاعلة فى الأزمة فمنهم من كان فى (حزب العمل)، وخرج عنه، ومنهم من هو عضواً فى جماعة (الإخوان) ولم يخرج عليها، غير أن مراجعة مواقف أولئك أثناء الأزمة ترينا أنهم آثروا جميعاً أن يلعبوا دوراً مستقلاً إلى حد كبير مما انتموا إليه وظيفياً أو فكرياً..

وعلى هذا النحو، فإن موقعهم على خريطة (المثقف التقليدى) لم تكن مطلقة، وإنما يصنفوا - فى التحليل الأخير - إلى هذا النمط من المثقفين المستقلين إلى حد بعيد.

ويلاحظ أنهم كانوا فاعلين فرادى أو جماعات فى الأزمة فالبيان الأول لهم صدر عقب تجمع القوى الأجنبية فى السعودية عقب الغزو - تحديداً فى ٢١ أغسطس ١٩٩٠ - بينما صدر البيان الثانى والعدوان الأمريكى الغربى على أشده -٢٩ يناير١٩٩١ - بينما صدر البيان الثالث بعد تدمير المنطقة العربية واستنزاف قوتها الصاعدة فى المشرق العربى - بيان ١٢فبراير١٩٩١ .

وهو مانلاحظ معه أن التطور فى الموقف استتبعه تطور فى اعادة انتاج الخطاب تبعاً لتغير الأحداث وتبدلها.

إنهم فى البيان الأول يشيرون بالاستنكار إلى الغزو العراقى وطريقة تغيير الحكم ويتحدثون عن جذور الخلل العربى وإهدار قيمة الشورى.. وما إلى ذلك وينهون بيانهم بهذه العبارة الدالة:

---

(١) *لنتأمل قليلا بعض هذه الاسماء :*

- *محمد الغزالى*
- *يوسف القرضاى*
- *محمد سليم العوا*
- *حسن شافعى*
- *حسن رجب*
- *أحمد حسن الصاوى*
- *محمد المعلم*
- *أحمد عادل كمال*
- *مصطفى الشكعة*
- *أحمد هيكل*
- *أنور الجندى*
- *سعيد إسماعيل على*
- *فهمى هويدى*
- *حسن نوح*
- *عبد الودود شلبى*
- *أحمد رائف*
- *أحمد كمال أبو المجد*
- *أحمد بهجت*
- *صلاح عبد المتعال*
- *محفوظ عزام*
- *عائشة عبد الرحمن*
- *محمد عمارة*
- *فريد عبد الخالق*

.... وغيرهم .

(– هذه قولة حق، ندين بها العدوان العراقى على الكويت ونعلن إصرارنا على رده بكل السبل، وندعو إلى عمل عربى إسلامى خالص لمحاصرته وتغيير المنكر الذى تورط فيه.. كما ننبه بها إلى مخاطر التدخل الأجنبى الذى حذرت منه وحاربته كل القوى العربية والاسلامية المخلصة الواعية.. ونحمل المعتدين المغامرين المسؤولية التاريخية من وقوعه.. كما ننبه فى النهاية إلى ضرورة اقتلاع جذور العوج من حياتنا.. باحترام حريات الأفراد والشعوب، وصيانة حقوقهم وتمكينهم من المشاركة – بالشورى – فى إدارة شؤونهم، وتصفية كل صور الظلم السياسى والاجتماعى والاقتصادى، فى ممارسة السلطة وتوزيع السلطة على السواء)[١].

وراح البيان الثانى يكرر ماسبق مع استطراد اضطر إليه كاتب هذا البيان نتيجة للعمليات العسكرية التى كانت تجاوز التحرر إلى التدمير، نقرأ:

(– إذا كانت القوات الأجنبية تباشر اليوم عمليات عسكرية تتجاوز مهمة تحرير الكويت لتصل إلى تدمير العراق، فإن واجبنا الوطنى والتزامنا العربى والإسلامى يفرضان علينا أن نسعى إلى خروج تلك القوات من أرضنا فور تحرير الكويت أو فور التوصلإالى اتفاق بأنهاء القتال..)[٢].

ودعا البيان إلى تكوين قوة سلام عربية إسلامية لتحل محل القوات الأجنبية، على أن تقيم حاجزاً بين الكويت والعراق تحت مظلة جامعة الدول العربية، وقد دعت القوات العربية لتلعب هذا الدور، وقد شدد البيان فى نهايتة على الجو الخانق الذى أصبحت فيه الدول العربية وهذه (الفتنة العمياء المظلمة) التى اختلطت فيها الأمور .

وقد غلب على البيان الثالث الطابع الإسلامى الخالص لوجود عدد كبير من الإخوان المسلمين فيه، مع ميل شديد للوم صدام وشعاراته الزائفة، وفى اتخاذ الإسلام دثاراً لإخفاء إجرامه وعدوانه وتبرير ظلمه وبغيه كما لم تكن القوات الأجنبية غير ثمرة من ثمرات فعلته[٣].

---

(١) الملحق رقم (٥)

(٢) الملحق (٦)

(٣) الملحق (٧) وقد كان من أبرز من وقع على هذا البيان الأخير: صالح أبو رقيق ، وسليم العوا ، وصلاح عبد المتعال ، وأحمد رائف .

وعبوراً فوق استطرادات طويلة فى (خطاب) المسلمين المستقلين، يمكن الإيجاز حوله حين نقول إنه خلص للآتى:

١ – ادانة العراق

٢ – الدعوة لحل عربى إسلامى

٣ – الحل العربى البديل للتواجد الأجنبى

٤ – إهدار قيمتى: العدل والشورى

٥ – الدعوة إلى الانسحاب الفورى من الكويت: القوات العربية أو الغربية

والملاحظة التى لايمكن اغفالها هنا أنه وإن أدانت هذه البيانات العراق، فإنها لم تتردد فى إدانة القوات الأجنبية كذلك، غير أننا نلاحظ أن التركيز على إدانة صدام كانت أكثر من التركيز على استعداء القوات الأجنبية على العراق، وقد صرح عديد ممّن كانوا قد وقعوا على البيان الأول أو الثانى، فيما بعد، أن المسؤولية الاولى تقف عند صدام فهو المسؤول عنها ومنهم سليم العوا وحسن درة وعديد ممّن كانوا قد أنتموا إلى الخطاب الرسمى، وقد كان أبرزهم فى ذلك خالد محمد خالد، فبمجرد، أن صدر البيان الأول الذى يدين فيه الطغيان بقدر مايدين التدخل الأجنبى حتى غضب خالد محمد خالد غضبة كبرى، وكان مبعث الغضب بشكل خاص البند الأول من البيان الأول الذى راح يتحدث عما فعله صدام، وسماح بعض الدول العربية بدخول قوات أجنبية على أنه جريمتان: جريمة الغزو العراقى وجريمة التدخل الأجنبى، أو على حد تعبير خالد محمد خالد نفسه حين اعترض على البيان ولما يمض يومان على نشره:

(.. البيان توهم أن هناك جريمتين:

الأولى: غزو صدام الكويت

الثانية: تدخل القوات الأجنبية

إذن – هناك جريمة، مجرمها صدام !!

وهناك جريمة أخرى مجرموها الذين سمحوا للقوات الأجنبية باقتحام بلادهم..)(١) .

---

(١) *الأخبار* ٢٣ / ٨ / ١٩٩٠ .

وعلى ذلك، فإن مثقفاً كبيراً مثل خالد محمد خالد يدين صدام الى الدرجة التى لاتجعله يرى خطورة القوات الأجنبية التى كان لابد أن تأتى بصدام، أو، بغيره، فراح يعلن رفضه للبيان وسحب توقيعه عليه، وراح يبرر لتدخل القوات الغربية الأرض العربية سواء للذين سمحوا لها ذلك – دول الخليج والسعودية – أو الذين أوعزوا إليها بذلك – الولايات المتحدة الأمريكية–، فبعد الغزو الذى لم يتحرك جيشاً عربياً واحداً للتصدى له نقرأ لخالد هذه الكلمات الغريبة:

(.. امتطت أمريكا ثبج البحر والجو، وسارعت إلى السعودية أولاً لتمنع الكارثة.. وبعد الاستقرار النسبى لقواتها لم تشأ أن تكون وحدها فنادت إليها الدول الأخرى التى جاءت قواتها فى موكب إنقاذ نبيل وشريف..)(١)

أى رد فعل ذلك من مثقف مسلم واع له تاريخ طويل فى التصدى للقوى الداخلية الظالمة والقوى الغربية المتحالفة معها؟.

إن ما قاله خالد محمد خالد فى هذا الموقف يُغرينا إلى حد اجتزاء بعضه لنرى إلى أى مدى خاض بعض المثقفين المستقلين فى ضباب التيه ولم يستطيعوا أن يتبينوا أغراض القوى الغربية التى اهتبلت الفرصة ليعود (الاستعمار الجديد) إلى المنطقة العربية، يقول:

(.. أى بأس فى وجود القوات الدولية..

أى بأس ما دام خلاص المنطقة متوقفا على مجيئها ووجودها؟!

أى بأس ياحكام.. ويا أقلام.. ويادعاة.. وياصحافة.. ويامعارضون؟!)(٢)

* * *

---

(١) *السابق* .

(٢) *السابق* .

(١) حرب الفتاوى

الواقع أن حرب الفتاوى تمثل أكثر المشاهد مأساوية فى (الخطاب) الإسلامى بوجه عام، وهو خطاب تابع فى مصر للخطاب العربى ويعبر عنه، حيث كانت تعقد المؤتمرات وتعلن البيانات بين مثقفين وعلماء، أحدهما، ينحاز صراحة إلى العراق والآخر، الى الخليج والسعودية .

أحدهما، ينتمى للخطاب الرسمى .

والآخر للخطاب الإسلامى واليسارى .

وقبل أن نصل إلى أرض المعركة لابد من تسجيل ملاحظات عامة.

أول هذه الملاحظات، أنه لايهمنا هنا ماهية القوى الإسلامية من حيث المرجعية، بقدر مايهمنا ظواهر الخلاف بينهما فيما يمثله من تناقض (الخطاب) فى داخل مصر.

نعرف ذلك عبر تلك الفتاوى التى ظهرت وتجمعت وتراكمت عن أزمة الخليج حول قضية استعانة المسلم بغير المسلم، ورغم ماسنواجهه من قضايا أخرى فرعية مرتبطة بها مثل كيفية فض المنازعات بين المسلمين أو قضية الثروة.. وما إلى ذلك، فإن مايهمنا فى المقام الأول هو القضية الأولى: شرعية الاستعانة بغير المسلمين . وسوف نحاول الاقتراب من هذه القضية رغم مايواجهنا من كلا الطرفين: المؤيد والمعارض من سباق استنفار عدد الفتوى بشكل معين وبإجابات معينة، يسهل التعرف عليها مسبقاً والترويج لها مقدماً..

فالمرجعية فى هذا تكون على الجانب المصرى أيضاً.

وإن ظل التركيز علي الخطاب المصرى تركيز على الجزء دون الكل فى المحيط العربى، لكنه الجزء الذى يمثل تشابكاً عضوياً فى المحيط العربى يمثله ويعبر عنه فى آن معاً .

وهو ما يصل بنا إلى الملاحظة التالية .

لايهمنا من عشرات المؤتمرات والبيانات والآراء التى نلتقى بها إلا القدر الذى يضع يدنا على الخطاب المصرى فى الأزمة لوضوح هذا الخطاب وتيسر أدواته لدينا أكثر من غيره واضعين فى الاعتبار أن التعامل مع هذه المادة الوفيرة التى بين أيدينا يقترن بالتعامل مع « الدليل دون المقتضى والشروط، وكأن الإسلام أتى ليجيب عن تلك الواقعة بينما يغيب عن الواقعات الأخرى سواء فيما يتعلق منها بتقويم النظم السياسية وتأسيسها أو طرق إسناد السلطة وتداولها أو حركتها السياسية أو تأسيس عناصر الإنكار والرقابة عليها[1].

وثالث الملاحظات ، وأهمها، إنه يمكن أن نوافق البعض ملى أن التحرز فى الفتوى إن كان واجبا فى فتاوى الافراد فانه أوجب والزم فى فتاوى الامة، يتحرى حال التعقد والتشابك لقضايا الامة ومن ثم لفتاويها، التى تعد مع جوانبها وتفاعلها، محددات موضوع الفتوى والتساؤلات المطروحة بصددها؟ وهل تلك التساؤلات الصحيحة المفضية إلى الرأى والصواب؟ أم ان تلك الأسئلة قد حكيت بصيغة تفرض الجواب..[2] إلى غير ذلك مما يمكن أن يقع تحت عنوان فقه الفتوى كعملية تخريج للحكم الشرعى لواقعة، وهو مايصل بنا إلى خطورة الفتوى مما يتطلب معه مواجهة شاملة لحرفية طلب الفتاوى من النظم السياسية، حينما تكون فى مصلحتها متطلبة بشكل معين، لتؤدى إليها بشكل معين[3].

وهو مايدفع النظام السائد إلى تحويل الافتاء إلى « وظيفة رسمية » يستطيع أن يحصل منها على ما تريد بالكيفية التى يريد.

وهو مايقترب بنا أكثر من أرضية هذه الحرب .

ولأن أى حرب تقوم دائماً بين طرفين، فإن أحد الطرفين يكون هنا هو النظام السائد، والآخر الخطاب المعارض .

---

(١) د. سيف الدين عبد الفتاح، عقلية الوهن/ دراسة فى أزمة الخليج، دار القادة، القاهرة١٩٩١ وقد جاء رد المؤلف من وجهة نظر إسلامية خالصة حين قال: "هذه الفتاوى الفورية التى صدرت بعد الغزو العراقى للكويت والمؤتمرات التى دبجت للتأييد الدينى وإضفاء الشرعية، تأتى حيث اختلفت المواقف والاتجاهات بصدده ومارست أقصى درجات التعسف فى الاستناد إلى أدلة أو تأويلها وإن شئت الدقة إليها ، بحيث لا يطمئن كثيراً الى مقولاتها إذ لا يتعلق الموقف بواقعة مفردة وإنما بواقع أمة "(هامش١٤ص٧٠) .

(٢) السابق ص ٢٤ .

(٣) السابق ص٢٢ ، ٢٣ .

وتكون القضية واحدة، تتحدد حول قضية:

- شرعية الاستعانة بالقوات الأجنبية.

وتتبلور أكثر حول الشكل التالي:

- البعض قال بجواز الاستعانة إذا مادعت الحاجة
- والبعض الآخر قال بغير ذلك

في جانب يقف الخطاب الرسمي وأدواته: مثقفوه وعلماؤه في الأزهر ودارالإفتاء ووزارة الأوقاف ومثقفوه من أمثال الشيخ الشعراوي والشيخ الغزالي وخالد محمد خالد.. وغيرهم كثيرون .

وفي الجانب الاخر يقف الخطاب المناهض: حزب العمل، جماعة الاخوان المسلمين وعدداً كبيراً من ممثلي الإسلام السياسي بشتى تياراته .

وقد دخل المعركة، بشكل متقطع من آن لاخر، عدد كبير من المثقفين الاسلاميين الذين عبروا عن آرائهم في شتى وسائل التعبير المتاحة.

ومن التبسيط للأمور أن نقسم الموقف من الغزو الاجنبي هنا بين مؤيد ومعارض، وانما هو نهج لجأنا إليه للتعرف على الخطوط الرئيسية في لوحة سيريالية تنتمي لأكثر أحداث العصر الحديث غموضاً وإبهاماً ، والتي استخدمت فيها ألواناً ونصوصاً ورموزاً لانهاية لها لتأكيد هذا الرأي أو ذاك، بالحق وبالباطل، وكثيراً ما اقتحم هذه اللوحة عديد من حروف جديدة حاولت أن تعيد رسمها (خطاباً) ثالثاً حاول أن يلتزم بشيء من الاعتدال على الصورة كيلا تتحول إلى لون واحد يصعب فهمه أو تأويله .

واتساقا مع محاولة فهم اللوحة، ومحاولة قراءتها، سوف نحيل القارئ هنا إلى طرفين اثنين:

- الخطاب الرسمي
- الخطاب المناهض

وتتحدد مفردات القراءة أكثر عبر فقهاء النظام السائد والخطاب الإسلامي، ففقهاء السلطة وفقهاء المعارضة، وبلغة أحد المشاركين (بين أحكام القرآن وفتاوى السلطان)(١) في الجانب الإسلامي .

---

(١) مجلة عالم الكتاب، مارس ١٩٩٢ العدد ٣٣، العدد الخاص، الرابع، هيئة الكتاب، القاهرة، دراسة د. مصطفى حسام الدين (أزمة الخليج في الكتابات والأبحاث العربية) ص ١٢٩/ ١٤٥ .

وقد يكون من المفيد أن نشير إلى أن الخطاب الإسلامى (=الرسمى) المؤيد للتدخل الأجنبى كان إطارا للنظام ومعبراً عنه ومبرراً له، حتى إن كثيراً من صحفيى الصحف القومية ومجلاتها اتخذوا من فتاوى هؤلاء تكأة للتعويل عليها فى تأكيد الخطاب الرسمى.

وباختصار، فقد وجد كل خطاب أن حكمه على الوجود الأجنبى هو الحكم الأصوب، ومن ثمّ، ينتفى عن غيره الشرعية التى يستطيع أن يحكم بها ضده، وتؤكد إحدى الدراسات أن قضية استعانة المسلم بغير المسلم نالت المرتبة الثالثة فى كم المقالات الموقعة التى نشرت فى الدوريات التى تم رصدها عن المقولة الدينية فى هذه الأزمة، إذ شهدت الكتابات عن هذه القضية أهم الخلافات وأعمقها وأكثرها حدة بين المؤلفين المؤيدين والمعارضين من مختلف الاتجاهات والتيارات حتى وصلت نسبة الإسهام إلى (١٨,٥٤ ٪)[١].

نصل الآن إلى بعض من صور هذه الحرب .

* * *

أولاً: الخطاب الرسمى :

كانت القضية المطروحة هى: الموقف من التدخل العسكرى الأجنبى، وكان الموقف الرسمى للنظام هو تفهم دوافع هذا التدخل التى حدت بالكويت والسعودية إلى طلب هذا التدخل، وكان الحل لموضوع هذا التدخل هو الانسحاب العراقى .

وباختصار، تبنت السياسة المصرية التدخل العسكرى خاصة أمام الإصرار العراقى على الموقف العنيد، ومن هنا، تحركت كل مؤسسات الدولة الدينية والمدنية لتأكيد هذا الموقف .

* أعلن الأزهر فى أكثر من مرة أنه « لا ضير » فى الاستنجاد بالشعوب الأخرى، وقد ظل يردد فى الفترة الأولى عقب الغزو العراقى أن « القول بانتهاك الأرض المقدسة بدخول القوات غير المسلمة أرض المملكة العربية السعودية غير صحيح، لأن هذه القوات إما مسلمة أو معاهدة وقد جاءت لرد العدوان »[١] .

---

(١) *تردد هذا كثيراً فى البيانات الأولى للأزهر: انظر على سبيل المثال بيانى* ١٠ و١٢ *أغسطس* ١٩٩٠ .

وقد ظل الأزهر طيلة التواجد الأجنبى يردد هذه الأفكار بألفاظ مختلفة، وفى أكثر من بيان وجهه إلى الأمة العربية والإسلامية نقرأ:

« .. إن الادعاء بأن القوات الوافدة قد دنست الأرض والمحرمات ليس صحيحاً لأنها وافدة بإذن أصحاب هذه البلاد، ولرد العدوان عنها.. والاستعانة بمثل هذه القوات أمر مشروع فى الإسلام..و..

القول بانتهاك الأرض المقدسة بدخول القوات غير المسلمة أرض المملكة العربية السعودية غير صحيح، لأن هذه القوات إما مسلمة أو معاهدة وقد جاءت لرد العدوان»(1)

* وراحت **وزارة الأوقاف** تعلن فى بياناتها وكتبها الكثيرة التى صدرت خصيصاً للأزمة أن:

أقصر طريق لحسم النزاع هو الاستعانة بالدول غير الإسلامية التى تملك القدرة المطلوبة فسارعت هذه الدول وشاركت فى المساعدة »(2) .

* وقريباً من هذا ماراحت تردده **دار الافتاء**، إذ أعلنت لأكثر من مرة جواز التدخل العسكرى عند الضرورة:

« .. إن وجدوا عون إخوانهم المسلمين غير كاف لدحر العدوان المرتقب لهم أن يستعينوا بغير المسلمين، إذ الضرورات تبيح المحظورات كما أن من المقرر شرعاً أن الضرورة تقدر بقدرها.. والذين يقدرون هذه الضرورة وحدودها هم أولو الأمر فى كل أمة.. »(3)

وإذا كانت المؤسسات الرسمية والدينية خاصة أجازت التدخل الأجنبى، فكان من الطبيعى أن يشارك، فى المقدمة، موظفو الدولة ومثقفوها فى الخطاب الرسمى وفى مقدمتهم الشيخ محمد الغزالى والشيخ متولى الشعراوى.. وغيرهم مما ملئت به الصحف والدوريات وأجهزة الإعلام المرئية والمسموعة »(4).

---

(1) بيان الأزهر ١٩٩٠/٨/٢١.

(2) قضايا ومفاهيم (٣) الذى صدر عن سلسة لوزارة الأوقاف ١٩٩١ ص ٧٥

(3) بيان دار الافتاء ١٩٩٠/٨/٢١.

(4) نستطيع أن نورد مشاركات كثيرة لتكريس الخطاب الرسمى من قبل المؤسسة الدينية خاصة، من أبرزها: محمد الطيب النجار وأحمد عمر هاشم والشيخ الغزالى، وهيئة كبار العلماء التى كانت تدلى بدلوها فى ذلك من آن لآخر وعديد من رموز هذا الخطاب الأخرى .

وربما كان الشيخ الشعراوى أكثر ممثلى الخطاب الرسمى فى المؤسسة الدينية الذى راح يكرس لهذا الخطاب مستخدماً الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.. إلى غير ذلك مما يؤكد به وجهة النظر التى يتبناها، وقد راح يؤكد حكم الإسلام فى الاستعانة بغير المسلم على هذا النحو :

« .. يكون حجتنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتصرفاته، وهو الداعى إلى الله والمبلغ لنهجه، هو أول واحد ينفذ حينما هاجر إلى الطائف ليلتمس نصيبه ثم عاد إلى مكة، أوجد أحدا يجيره ؟ لم يجد أحداً، فاستجار بكافر هو المطعم بن عدى ، وأجاره المطعم ووقف موقف الرجولة الإنسانية، ولم يعتد عليه، ولذلك قال له خصوم رسول الله :

أنت مجير له أم تابع؟ قال أنا مجير.. قالوا: رضينا بجوارك ولن نعتدى عليك، إذن فرسول الله حين اضطرته الظروف دخل فى جوار كافر.

وعندما لم تكن عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عدة للقتال استعان بصفوان ابن أمية الكافر.

وحينما أراد أن يهاجر استعان بدليل يدله على الطريق وهو ابن أُريقط الكافر أيضاً.

إذن تقدير المسألة تقدير موقفى.. »[1]

(١) ويضيف الشعراوى: " الذين يشجبون تدخل الدولة الأجنبية والاستعانة بها ويقولون إنه لا يحق الاستعانة بدولة كافرة - كما يقولون - سوف نناقش الامر معهم من الناحية السياسية ونقول لهم: أنتم الآن تشجبون أى تدخل من دولة أجنبية فى مسألة إسلامية.. ولكن ماالذى دفع المسلمين إلى الاستعانةبتدخل الدول الأجنبية.. لقد جاء هذا التدخل من أننا المسلمين ارتبطنا مع العالم الخارجى غير المسلم فى منظمات دولية لها قوانين تحكمها، لذلك يجى الشجب والرفض لامعنى له لأن الذين يرفضون الآن، لماذا لم يرفضوا الانضمام إلى عضوية هذه المنظمات، ولماذا قبلوا وأقروا أننا جميعًا أعضاء فيها وارتضوا أحكامها وأهدافها، فهذه المنظمات تقف إلى جانب المظلوم حتى يحصل على حقه.

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أدى هذا الحق قديمًا حينما قال: لقد شاهدت دار عبد الله بن جدعان حلف الفضول، شاركت فى حلف الفضول - وحلف الفضول جماعة بعدما شقت الجزيرة العربية بحرب الفجار وقف الفضيل محمد بن عبد المطلب وهو عم الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - وساعدته هاشم وبنو زهرة وبنو أسعد على العهد لنصرة المظلوم حتى يرد إليه حقه.. وقال رسول الله قولته التى تضع الحق فى نصابه لقد شاهدت فى دارين جدعان حلفًا مايسرنى به حمر النعم ولودعيت إليه فى الإسلام لأجبت إذن رسول الله أقر فعلاً هذا الفعل وهو إن يتجمع الناس على الظالم ويقفوا مع المظلوم حتى يردوا إليه حقه - ورسول الله لم يستعن فقط - فاذا انتصر جمعوا نصيبًا من ماله للذى ساعده ولو كان كافرا .

وتتعدد المشاهد التى يوردها الشيخ الشعراوى للتدليل على ذلك، ومع تراكمها تتوالى ردود الأفعال المناهضة، فيستبدل بالخطاب الأخير أدلة أخرى، ويحاول تطويعها لتأكيد أن الاستعانة بغير المسلم هو الوجه الآخر للنفاق السياسى الذى يقدم الرأى قبل الأزمة لا أثناءها ، وللسلطان وليس للقرآن.

واذا كان الخطاب الأول مثّل رؤى إسلامية رسمية فى الغالب، فإن الخطاب الآخر مثّل رؤى إسلامية حزبية (كحزب العمل) أو غير حزبية (الإخوان) أو رؤى إسلامية تنتمى إلى اتجاهات إسلامية متنوعة كما سنرى .

ثانياً: الخطاب الإسلامى :

تعددت الاجتهادات وتحددت عند رؤى – كما أشرنا – تحاول أن تدخل إلى حمى (حرب الفتاوى)، وقد كان فى مقدمة أصحابها حزب العمل.

كان موقف حزب العمل متسقاً مع موقفه العام منذ البداية، أن عادل حسين – المسئول عن صحيفة الحزب « الشعب » – لم يعد ليهتم بمشكلة احتلال العراق للكويت عقب الغزو العراقى، وإنما رأى أنها أصبحت لا تهم غير «المؤرخين»[١]، وحين تبين تهديد العراق راح يصيح «أيها المسلمون»..[٢] مستنفراً جماعة المسلمين المؤمنين أن الأرض العربية يهددها الأجانب، ومن ثمّ، فان الاستنفار هنا يرفض الاستعانة بالوجود الغربى الصليبى – تاريخياً – والمتحالف مع أعضائه من الغربيين – معاصراً –.

ومن هنا، تحدد موقف مثقفى حزب العمل الآن فى رفض الفتوى الإسلامية الرسمية ورموزها، وقد كان أهم من عبر عنها مجدى أحمد حسين – ابن المجاهد القديم أحمد حسين – فراح يكتب فيها أكثر من مرة، ويجاهر عنها أكثر من مرة قبل أن يودع المعتقل رهن المحاكمة، وقد توالت كتاباته وحماسه إلى درجة أنه بلور القضية

= رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى أسرى بدر جاء ابن مطعم بن عدى الذى أجار الرسول – صلى الله عليه وسلم – وكان له دالة بسبب موقف أبيه مع رسول الله ، فذهب ليستشفع فى أن يطلق أسرى بدر من الكفار، فماذا قال الرسول – صلى الله عليه وسلم – ؟ قال له : لو كان جدعان أو مطعم بن عدى – أبو الذى يستشفع – حيًا فاستوهبهم لوهبته إياهم، إذًا الذين يتشدقون بالإسلام بأن هذه المسألة ضد الإسلام، نقول لهم راجعوا النفس.. »

(آراء الشيخ الشعراوى فى حرب الخليج، الكتاب العالمى، القاهرة ١٩٩١، ص ٧٩/٨١)

(١) الشعب ١٤/٨/ ١٩٩٠

(٢) الشعب ٢٢/١٢/١٩٩٠

كلها فى كتاب حاول فيه أن يعرض لوجهتى النظر من وجهة نظر (الخطاب الإسلامى) المعارض.

ورغم أن مجدى حسين عرض لبعض القضايا التى كانت تثار حينئذ مثل فض المنازعات بين المسلمين والعدالة الاجتماعية بين أقطار الثروة وأقطار الفقر.. وما إلى ذلك فإن قضية شرعية الاستعانة بالمشركين كانت من أهم القضايا التى تعرض فيها للخطاب الرسمى وهذه الفتاوى باسم الدين التى تتوالى « فى وسائل إعلامنا.. تحرف الكلم عن موضعه »[1]

ولايخلو من معنى أن يذكر أن عظمة التشريع الإلهى وضعت للتعامل مع مواقف كثيرة مثل هذا الموقف – أزمة الخليج – والذى « تكرر فى كل عهود تراجع الحضارة الإسلامية.. خلال الغزوات الصليبية، وخلال فترة الانهيار بالأندلس.. حيث تحالفت إمارات مع الاستعمار الصليبى ضد إمارات إسلامية أخرى »[2]، وراح يربط بين مثل هذه الفتاوى وماتعودناه فى حياتنا من « الاعتماد على صندوق النقد الدولى والبنوك الصهيونية.. ونصائح الولايات المتحدة..[3]، مما يضع مثل هذه الفتاوى الرسمية فى السياق الغربى المتحالف معها .

ورغم أن التصدى لكثير من رموز الخطاب الإسلامى تحتاج إلى صفحات كثيرة، فسوف نكتفى هنا بالإشارة إلى أن الكاتب رفض قضية (استدعاء القوات الأمريكية)فهل يمكن تصور أن ترفض السعودية ودول الخليج الطلب الأمريكى « وكل النظام الأمنى والعسكرى فى السعودية والخليج قائم على التعاون الوثيق مع الجيش الأمريكى »[4]، ويتوقف عند موقف خالد محمد خالد الذى يقول إنها ليست قوات (أجنبية) وإنما هى قوات (دولية) بما يعنى ذلك أنهم أهل كتاب قائلاً :

« إن الموقف القرآنى لم يتحدث عن أهل الكتاب ككتلة واحدة.. وإنما فرقت عشرات الآيات بين صنفين من أهل الكتاب.. ولانقصد التفرقة العامة بين اليهود والنصارى ولكن أيضا التفرقة بين نوعين من أهل الكتاب من زاوية التقوى.. ولابد من

---

(١) مجدى أحمد حسين، *أزمة الخليج بين أحكام القرآن وفتاوى السلطان، دار الشرق الأوسط*، ١٩٩٠ ص٥ .

(٢) *السابق* ص٣١ .

(٣) *السابق* ص ٣١/٣٢ .

(٤) *السابق* .

الإشارة إلى ذلك حتى لايفهم أحد أن معاداة الاستعمار الأمريكى تعنى معاداة أهل الكتاب من أهلنا فى مصر »[1]

وحين يعرض لرأى البعض من أن العراق هو سبب مجىء القوات الأجنبية يرد:

« نعم إن غزو الكويت كان السبب.. ولكن بمعنى الذريعة والحجة.. فقوات الانتشار السريع معدة منذ أواخر التسعينيات للتدخل واحتلال حقول النفط.. وإن هذه القوات عندما تأتى فإنها تأتى فى إطار أهدافها ومخططاتها..الخ »[2]

لقد طوف بنا طويلا عند جوانب القضية كما عرفت فى ذلك الوقت فراح يسأل خالد محمد خالد الذى رحب بالقوات الامريكية كثيراً « من أين أتيت بكل هذه الثقة بالأمريكان؟»[3] وراح يسأل المفتى الذى تحدث عن أولياء الأمور على أنهم الواعون بشؤوننا أى حكام هم هؤلاء ياسيدى المفتى؟ »[4]، وراح يقول لشيخ الأزهر الذى يتحدث عن معاهدة بيننا وبين الأمريكان « هل اختلط الامر على مشيخة الأزهر فخلطت بين السعودية وإسرائيل؟ [5]، ثم راح يلخص ما بدأه بهذه العبارة:

« إننا حقاً أمام أخطر غزوة تاريخية فى تاريخ الإسلام..الخ »[6]

وقد شغل مجدى حسين طويلاً بمحاولة الرد على (فتاوى السلطان) من خلال السنة النبوية والقرآن الكريم والأحداث المعاصرة بما يعكس الخطاب السياسى لحزب العمل الذى انتمى إليه.

وراح أكثر من مثقف ينتمى إلى حزب العمل يتصدى لمثل هذه الفتاوى، التى تدعو إلى الاستعانة بالقوات الأمريكية، فالإسلام يرفض ذلك وتتوالى الأمثلة حين أفتى الائمة أبو حنيفة ومالك وابن حنبل بتحريم ذلك حرمة مطلقة فان الامام الشافعى اشترط لإجازته ألا يكون المسلمون قلة، وألا يخشى انضمام غير المسلمين للأعداء »[7]

---

(١) *السابق* ص ٣٤
(٢) *السابق* ص ٣٩
(٣) مجدى حسنين، *السابق* ص٤٣
(٤) *السابق* ص ٤٤
(٥) *السابق* .
(٦) *السابق* ص ٤٦
(٧) *الشعب* ١٩٩٠/١٢/١١ وهو د. عبد *الرشيد* صقر .

ومن البدْهى أن يكون ذلك رأى جماعة الإخوان المسلمين الذين كانوا متحالفين مع حزب العمل، وتسجل لنا بياناتهم وتصريحاتهم المتوالية، ومنذ الفترة الأولى، ذلك الرأى.

إن البيان تلو البيان كان يصدر ليؤكد على أن الجماعة:

« تعارض بكل قوة التدخل الأمريكى فى أزمة الخليج أياً كانت الأسباب التى تتذرع بها حكومة الولايات المتحدة الأمريكية والجماعة تعارض وجود القوات الأجنبية فى منطقة النزاع وتطالب بانسحابها على الفور فوجودها أمر مرفوض على جميع المستويات وبكل المعايير..[1]

ولا نريد أن نسهب أكثر حول موقف الإخوان، لنصل إلى أصوات أخرى كثيرة فى الخطاب المعارض عبر كتابات إسلاميين كثيرين مستنيرين وأكثر وضوحاً وراديكالية من غيرهم من أمثال نصر أبو زيد وحامدأبو حمد ومحمد أحمد خلف الله .

لقد كان نصر أبو زيد أول من تعرض لهذه الفتاوى، ووجد أنه بإعلانها والإصرار عليها من قبل الخطاب الرسمى « تتبدى الطبيعة التواطئية التبريرية للأنظمة السياسية واضحة..و.. ألاحظ من ذلك أن يتحرك رجال الدين من المؤسسة الدينية – الازهر – ليضيفوا على الوجود العسكرى الاستعمارى صفة دينية شرعية، فينكشف التواطؤ والتبرير الذى يمارس باسم الدين »[2].

وهو يتعرض بوجه خاص لكل من المفتى وشيخ الازهر .

ففى معرض دفاع المفتى عن وجهة النظر التى تجوز شرعاً لحاكم فيفرض القوة الغاشمة على ولايته، يخالف المفتى فى المصدر الذى استدل به، وإن اتفق معه فى عدم مشروعية ماحدث من احتلال للكويت، وهو مايغلو فيه المفتى ليصل منه إلى تعزيز وجهة نظر القوى التى ترى أن الشريعة أوجبت على أولياء الأمور فى كل دولة إسلامية أن يتخذوا جميع الوسائل المشروعة ، لحماية أمن بلادهم ولصيانة أرواح أهلها وأموالهم وأعراضهم عند الضرورة، كما من وجدوا أن عدد إخوانهم المسلمين غير كاف لنحر العدوان المرتقب لهم أن يستعينوا بغير المسلمين إذ الضرورات تبيح المحظورات.

---

(١) *بيان الإخوان المسلمين، القاهرة* ١٦/ ٨/ ١٩٩٠ .

(٢) *الأهالى،* ١٢ سبتمبر ١٩٩٠ .

ويعلن الكاتب صراحة أن تلك الفتوى بها صفة تبريرية تواطئية لخدمة أهداف النظام السياسى بإعطاء مشروعية دينية لتوجهاتها.

أما شيخ الأزهر الذى لايرى أن استدعاء القوات الأجنبية غير شرعى بحجة « إنها وافدة بإذن أصحاب الأرض ولرد العدوان عنها » ، فيذهب الكاتب هنا إلى أن هذا الخطاب الدينى لا يعطى مشروعية دينية لوجود القوات الأجنبية فى الأرض العربية بل يجعل « التحالف مع الأعداء – معاهدتهم – أمراً مقبولاً من منظور الدين والعقيدة » .. أن يكون معيار المشروعية لها وسندها هم أصحاب الأرض طبقا لبيان شيخ الأزهر وأولى الأمر وأهل الحل والعقد طبقا لفتوى دار الافتاء وإذ هم الذين يقررون دون استفتاء الشعوب مدى الحاجة إلى القوات وحدودها »[1]، وخاصة أن الاستعانة بالقوات الأجنبية الآن هو استعانة بأحدث ما ابتكره العقل الغربى من مبتكرات تكنولوچية وإمكانات عسكرية تحمل أهدافاً عسكرية استعمارية خالصة.

وواجه الشيخ الشعراوى ألمع وجوه الخطاب الرسمى ، الكثيرين ممن يرون فى افتئاتاً على الحق، وهو افتئات عمد لتبرير النظام السائد فى المقام الأول، إذ إن ما يفعله الشيخ هنا هو إفتاء « على الطريقة الامريكية »[2]، فبعد أن ناقش حامد أبو حمد حقيقة الطائفة الثالثة التى يجب أن تصلح بين الطائفتين المتقاتلتين[3] يتوقف أكثر عند قضية الاستعانة بغير المسلم حول قياس استجارة الرسول بكافر، فيرى فى ذلك مغالطات لا يدرى « كيف استوعبها بهذه الصورة » ، ملخصاً رأيه فى أن مصالح الغرب تتعارض جذرياً مع مصالحنا، ضارباً أمثلة كثيرة من بينها موقف الغرب من سلمان رشدى، والغرب يحشد الان أساطيله وقواته لتحرير الكويت :

---

(١) الأهالى السابق

(٢) الأهالى ١٩/ ٩ / ١٩٩٠

(٣) السابق، يقول حامد أبو حمد: – يرى الشيخ أن المسلمين أصبحوا ثلاث طوائف: الطائفتان المتقاتلتان والطائفة الثالثة التى يجب عليها أن تصلح بينهما. وهذا التقسيم كما هو واضح يعتمد على الآية المعروفة فى سورة الحجرات "وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ..الخ "ولكن الطائفة الثالثة قد اختلفت على نفسها فى رأى الشيخ – لأن بعضها تحيز إلى فئة وبعضها امتنع. وبعضها تحفظ وبعضها لم يحضر. ومن ثم لم يبق للفئة الثالثة غير أنها ذات الموقف الإيمانى الحقيقى وهى مصر . ويرتب الشيخ على ذلك دعوة القوات الأجنبية ولا أدرى كيف غاب عن الشيخ إن الدعوة فى الآية موجهة إلى جماعة المؤمنين".

- « ولم تسأل نفسك: لماذا لم يفعلوا ذلك بالنسبة لفلسطين، أو لبنان أو الأراضى العربية التى احتلت عام ١٩٦٧ »[١].

ويقترب من هذا الرأى أكثر محمد عمارة، فبعد أن يؤكد أن القوات العراقية ليست فى وضع الفئة الباغية يشير إلى أن الحديث عن جواز استعانة المسلم بغير المسلم - بعد ضرب أمثلة كثيرة - يشير إلى أن ذلك كله صحيح « ولكن هذه الاستعانة مشروطة بوجود الضرورة.. والضرورة تعنى عجز المسلمين عن القيام بالأمر فهل جربنا الحل الإسلامى الخالص.. صحيح أن فقهاء القانون الدولى الإسلامى قد صنفوا الدول والأوطان إلى مسلم ومعاهد ومحارب.. لكن الواقع الدولى الراهن فيه.. جديد، لم يعرفه عصر هؤلاء الفقهاء الذين قسموا العالم والشعوب هذا التقسيم.. فكل دول العالم المعاصر بحكم عضويتها فى الأمم المتحدة.. وتوقيعها على مواثيقها.. والتزامها بهذه المواثيق، هى جميعاً دول معاهدة ، أى بيننا وبينها عهود ومواثيق - وبعد أن يضرب أمثلة أخرى - ولذلك فأنا أدعوا العلماء والمفكرين إلى تأمل، المعيار القرآنى، الذى حدده المولى سبحانه وتعالى لأمتنا لكى تلتزم به علاقة (المعاداة) و(الموالاة) والذى تحدثت عنه الايات سورة « الممتحنة » فلعلها تفيدنا فى هذا الامتحان.. فإن الذين يقاتلوننا فى الدين.. ويخرجوننا.. من ديارنا.. هؤلاء لايمكن أن يكونوا أهل عهد وميثاق وموالاة .

وهو مايعود منه ثانية ليتحدث عن الحل العربى الإسلامى الخالص.

ويصل الخطاب المناهض إلى أقصاه عند مثقف إسلامى هو محمد أحمد خلف الله، وقد فصّل موقفه فى عديد من الكتابات[٢]، وخاصة حين يتعلق الأمر بقضية الاستعانة بالقوات الأجنبية، فقد رأى أن غزو العراق للكويت « ليس من المحرمات، فدار الإسلام دار واحدة ودولة واحدة والعمل فى سبيل توحيد ما كان من قبل واحداً بالقضاء على التجزئة لايمكن أن يدخل فى باب الحرام »[٣]، أما رأيه فى قضية شرعية الوجود الأجنبى فهو يسهب حوله مرة، ثم يوجز مرة أخرى، فى المرة الأولى، يرى، أن من يرى استعانة السعودية بالأمريكان أمر جائز، وأن أصحابه يهرفون، ودليله أمران:

---

(١) السابق

(٢) انظر على سبيل المثال: الأهالى ١١/١٣، ١٢/٢٦/ ١٩٩٠، ١/٢/ ١٩٩١.

(٣) الأهالى ١/٢/ ١٩٩١ (انظر الملحق ٨)

« الأول، من الأمرين: إنهم يعرفون ان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد فعل ذلك بحكم الضرورة القصوى. ضرورة الحياة والموت ولم يفعله أبداً على أنه السنة التي يتبعها الناس والتي تجيز لهم ممارسة الحياة على أساس منها.

والثاني، من الأمرين: – إنهم يعرفون قطعاً أن الكتاب مقدم على السنة من حيث الأدلة الشرعية وإن السنة تهمل حين تكون معارضة للكتاب، وإن عمل الرسول – صلى الله عليه وسلم – في واقعة الهجرة لايثبت أبدا أمام الآيات القرآنية القطعية الدلالة ، الواردة بعد رد التكليف – مثل قوله تعالى:–

« لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء » وقوله تعالى ومن يتولهم منكم فإنه منهم »[1]

ويلخص محمد خلف الله موقفه أكثر بأن قواعد الأصوليين لا تخرج عن اثنين:

١–دفع الضرر مقدم على جلب المنفعة

٢ – اختيار أخف الضررين

والمقدمة الأولى تعنى أنه إذا دعت الضرورة إلى اتخاذ موقف معين فى حالة بعينها – حالة يكون فيها جلب المنفعة مساوياً تقريباً لجلب الضرر – فإن الموقف الإسلامى يكون مع دفع الضرر وليس مع جلب المنفعة.

إن دفع الضرر هو الذى له الأولوية عند الاختيار ومقتضى هذا أن دفع الضرر الذى تجلبه الحرب فى أزمة الخليج هو الذى له الأولوية.

أى أن موقفنا يجب أن يكون ضد الحرب وفقاً للضرر، ولايكون معها فى جانب جلب المنفعة.

والمقولة الثانية، تعنى، أنه فى حالة التأكد من إلحاق ضررين بالمجتمع من حيث يقع، ونريد تفادى أحدهما بالأخر فإن الموقف يكون من اختيار أخف الضررين تفادياً للضرر الأكبر.

---

(١) ويوجز خلف الله رأيه هنا من الوجود الاجنبى فيرى بأنه:

"ليس فى الاسلام أبداً الاستعانة بغير المسلم على ضرب المسلم ومحاربته وإنما الذى فيه الاستعانة أن الإسلام يعلى ولا يعلى عليه.. (و).. إن كل النصوص الدينية الواردة فى القرآن الكريم إنما تدور حول المصالحة أولاً بين المتقاتلين فإن عجزت المصالحة كان التعاون فى قتال الباغى والتعاون بين المسلمين وليس بين المسلمين وغير المسلمين.."

وهذا يعنى، فيما يخص أزمة الخليج، أن الضرر الذى وقع إلى الآن هو أخف الضررين بالنسبة للحرب التى يمكن أن تضر العراق والكويت والسعودية ودول الخليج والدول المشاركة فى الحرب.

إن الأصولية الفقهية فى أزمة الخليج هى مع الإسلام وضد الحرب فى كل الحالات.

والمهم أن د. خلف يشدد أكثر من غيره على أن من قال بعكس ذلك لا يجهلونه، بل يعرفونه جيدا ويقولون به، لماذا؟ يجيب: « مجاملة للسلطان! إن لم يكن منافقة »[1]

* * *

غير أنه بين المؤيدين للاستعانة بالأجنبى- الخطاب الرسمى-، والمعارضين له - الخطاب الدينى - ، ثمة خطاب ثالث يختار مكانا وسطا بينهما، وإن كان فى رأيه يميل الى الرأى المعارض، وهذا التيار يمكن أن نجد تعريفاً له فنقول عنه - كما كان يسميه أصحابه - باليسار الإسلامى.

واليسار الإسلامى تيار تعود جذوره إلى فترة حكم الرئيس أنور السادات، وكانت مظاهر فكره تتحدد أساساً فى مهاجمة الإخوان المسلمين وسياسة النظام السائد معا، خاصة فى فترة تحول هذا النظام إلى الولايات المتحدة الأمريكية فى السبعينيات، ويمكن أن نشير منه إلى ثلاثة رموز من مثقفيه يمثلون أبرز رموز هذا التيار فى التعبير عن موقفه من أزمة الخليج: حسن حنفى، محمد عماره، طارق البشرى[2].

وقد كان هذا التيار يرى « إدانة صريحة للغزو العراقى على الكويت.. ويرفض الاعتراف بضم الكويت أو الحاقها »[3]، كما يرى أن مناط الأمن والفزع هو الذى يجب التنبيه إليه أولاً، فقاعدة الظلم والعدل هى القضية التى يجب أن نشير إليها بالبنان مرة أخرى إلى المتهم الوحيد هنا وهو الغزو الغاشم ويقصد به الغزو العراقى[4]، كما يرى آخر

---

(١) *الأهالى* ١٣ نوفمبر ١٩٩٠

(٢) انظر: *أحاديث مجلة روز اليوسف بالقاهرة مع حسن حنفى وعديد من رموز اليسار الإسلامى فى* ١٢ يوليو، ٣٠ *أغسطس* ١٩٧٦

(٣) محمد عماره، *الوفد* ١٠/٥/١٩٩٠.

(٤) فهمى هويدى، *الاهرام* ١٨ / ٩ / ١٩٩٠.

أن التواجد الأجنبى فى الخليج ليس هدفه تحرير الكويت، فظاهرة الوجود الأجنبى أكبر من ذلك[1]، يرى ثالث أن التصدى للغزو الغربى يمنع كارثة أشد هى التدخل الأجنبى، وفى ضوء ذلك، يلاحظ أن الرأى الغالب أن حالة عدم وجود الحل العربى هو الذى يترك الحبل للوجود الأجنبى، وهو ما يبدو من تحليل الكثيرين لتحليل الكارثة .

ونصل إلى أقصى درجات التخوف من الغرب لدى أحد رموز التيار، حين نجد أن حسن حنفى يفسر تدخل الولايات المتحدة الأمريكية بأنه تدخل متعمد، وخاصة، بعد رحيل عبد الناصر حين زادت ظواهر هذا التدخل، ثم فى بعض نظم الجزيرة العربية باستثناء اليمن.

ويذهب إلى أن هذا التدخل تم بإيعاز هذه النظم حيث إن الحلف الرئيسى لها ، هو الغرب، صحيح أنه أقيمت علاقات فى النهاية مع الشرق ومع الصين ومع الاتحاد السوفيتى وأخيراً مع إيران، لكن يبدو أن الأمان بالفعل فى الغرب، وأمريكا بالذات، وفى وجود قوات أجنبية ،[2] .

ومن هنا يرى أن الشرعية الدولية التى حصلت عليها أمريكا للتدخل فى الخليج كانت شرعية مزيفة، قدم لها مؤتمر القمة العربى "Cover" المظلة العربية فى حين أن دورها المزدوج – بالنسبة للكويت وفلسطين – كان مؤكداً، وأن انحياز بعض المثقفين لهذه الشرعية إنما يمثل دفاعاً عن فقهاء السلطان ، .

وهنا يصل حسن حنفى إلى أولئك المثقفين الذين يدافعون عن فتوى جواز التدخل الأجنبى، فيرى – صراحة – أنهم فقهاء الحاكم ، لعملهم بالخليج وتكوين ثروتهم فى الخليج ،[3] وإن اغفل أن عدداً ليس هيناً من فقهاء الحكام أولئك لم يخرج من مصر، ولم

---

(١) *الأهرام ٢٥ /٩ /١٩٩٠.*

(٢) *طارق البشرى، ندوة نوادى هيئة تدريس جامعة القاهرة، فبراير ١٩٩١، أيضا انظر إلى تلخيص لها فى جريدة الشعب ٥ /٢ /١٩٩١.*

(٣) *جريدة الحياة اللندنية، حوار مع حسن حنفى فى ٥/ ٤/ ١٩٩١، وقد جاء العنوان الذى وضعه محاوره: مقاتلة الغرب وتعدد مستويات القضية.*

يأكل خبز الخليجيين، ومع ذلك، فقد كانوا أكثر إيثاراً للتدخل الأجنبى وتأييداً للموقف الرسمى من سواهم.

وهو مايصل بنا إلى أن الخطاب الرسمى (الدينى) كان فى أغلب رموزه مؤيداً منافقاً مبرراً فى غير حياء، تابعاً فى غير تردد، فتخريج الحكم الشرعى لدى علماء الدين ومؤسساته لم تكن ليغيب عنها الحقائق كلها، ومع ذلك لم يترددوا عن تأييد السلطان فى حضور عدو تاريخى جاء بهدف التدمير لا التحرير، ومن هنا، فان الخطاب الدينى الذى بدا تابعا للنظام السائد ظهر متشدداً أحيانا أكثر منه محايداً حين كانت المؤتمرات تعقد فى العربية السعودية ودول الخليج الأخرى، ويبذل فيها من الوعود ويظهر فيها من الدلائل مالا يستطيع الخطاب القطرى أن يخالف فيه الحكم الشرعى، فآثر الخطاب الدينى فى مصر أن يكون قطرياً - تابعاً للنظام السائد -، متحيزاً - تابعاً لدول التحالف، وهو ماحدد الملامح العامة لحرب الفتاوى بين المؤيدين لشرعية الوجود الأجنبى والمخالفين لها.

كانت حرب الفتاوى قد أنتجت:

١ - الكشف عن الصفة التبريرية

٢ - الكشف عن الزيغ التشريعى

٣ - الكشف عن النفاق للنظام السائد

٤ - افتقاد الوعى فى استنفار غُدد الفتوى

٥ - إغفال الخطر الغربى

٦ - الدخول فى عصر التيه العربى

وهو ما نجد علامات أخرى له فى التوقف عند قضيتى الديموقراطية وفلسطين .

(٢) الديموقراطية

لا يمكن فهم العلاقة بين السلطة السياسية والخطاب الإسلامى فى مصر إبان الأزمة دون أن نشير إلى عدة ملاحظات أساسية، منها، أن المثقف فى هذا الخطاب عرف الغربة Alienation ، وهى الغربة التى حالت بين تأثر هذا المثقف بالتراكم الإسلامى الذى عرف إبان فجر النهضة والذى تمثل فى الاجتهادات الفكرية التى عرفت فى ذلك الوقت، إذ كانت عملية « الارتداد إلى الذات أكثر مايميز موقف المثقف الجديد، وكانت عوامل الارتداد الى الذات تتراكم، تدريجياً، وبصورة غير ملحوظة. ولم تكن الأسماء اللامعة مثل الأفغانى ومحمد عبده وحسن البنا والمودودى وسيد قطب.. وغيرهم إلا إشارات مركزة لهذا « التراكم الكمى » الذى مالبث ان انقلب إلى تغيير نوعى فى حركية المجتمعات العربية والإسلامية »[١]، وهو مانجده فى المجتمع المصرى مما كرس لقيم تقترب من الشورى بمعناها السلفى أكثر منه إلى المعنى المعاصر للديموقراطية.

وقد أسهم فى ذلك فى مصر بوجه خاص - وهذه هى الملاحظة الاخرى - ان النظام كان مركزياً - كما أشرنا - ومن ثمّ، كان من الطبيعى أن نلاحظ تأثر المرجعية لدى الخطاب الإسلامى به إلى حد كبير، فقد كانت العلاقة وثيقة بين المثقف والنظام التابع له منذ كان الكاهن فى مصر القديمة حتى تطور إلى العالم والفقيه والمثقف الإسلامى.

ومن هنا، يمكن القول أن التعامل مع أى حدث، كان يعنى من ناحية، أن ممارسة السلطة السياسية كانت نوعاً من إعادة إنتاج السلطة المركزية من طرف واحد: الدولة، ومايرتبط بها من آليات تؤثر فى المجتمع المدنى أو الدينى، ومن ناحية أخرى، كانت العلاقة الجدلية بين الحاكم والمثقف تتحدد لدى المثقف فى هذه التبعية التى لم يستطع أن يخلص منها هذا الأخير.

وعلى هذا النحو، كان من السهل أن يلاحظ المؤرخ أن الخطاب الإسلامى كان يتوزع بين من يرى أن الديموقراطية هى الشورى بمعناها الإسلامى، ومن يرى أن

---

(١) الحياة ، لندن ٣١ يناير ١٩٩١ وهو ماتنبه إليه محمد عبد الجبار بصدد تعرضه لبعض أفكار ألين تورين فى مقالة بعنوان (الإسلام والديموقراطية ركنا المستقبل العربى والمقابلة بينهما خاطئة) .

الديموقراطية تمثيلا مُركبًا بين الديموقراطية الغربيـة والشورى الشرقية فى امتداد متمازج، وهو مايمكن ان نرصد معه عدة اتجاهات للخطاب الإسلامى يمكن إيجازها فيما يلى:

١ – صورة الطغيان

٢ – صورة الشورى

٣ – العدل وتوزيع الثروة

٤ – الديموقراطية الغربية

ولانعتقد أن أيًا من اتجاهات هذا الخطاب فى فهم قضية الديموقراطية تخرج من هذه الاتجاهات .

فلنخرج من الإجمال إلى التفصيل .

نلاحظ فى بيانات الإخوان الحديث عن كثرة ترديد العود إلى الشورى الدينية ورد الظلم وإعادة العدل، وتبلور رويداً رويداً المفهوم الإسلامى فى الفكر الإخوانى فى الأزمة حول مفهوم (الطاغية) التى كرست له وسائل الإعلام المرئية والمقروءة منذ اليوم الأول لتصف به صدام حسين ، فى حين أن حزب العمل رغم تأييده للعراق منذ اليوم الأول لم يستطع ان يظل على غلوائه من تبرئة الزعيم، وراح ممثلوا الحزب يتحدثون، ومع تطور الوقت، عن ضرورة تأييد العراق وعدم الإشارة كثيراً إلى شخص صدام حسين مؤثرين دعم الشعب العراقى بصدام أو بغير صدام[1] إذ ظهر أن رمز الطاغية بدأ يكتسب أبعاداً كثيرة فى الخطاب الرسمى الذى استحوذ على مساحات شاسعة فى الخطاب الإسلامى، وخاصة مالاحظناه من أن رئيس تحرير الصحيفة المعارضة – الشعب – راح يرى أن الهجوم على رمز الاستبداد، كما حدث، فى فترة عبد الناصر، دون التنبيه إلى قيم التحرر التى يحارب من أجلها، ومن هنا، فإن تأييد حزب العمل (المعارض) لصدام حسين يظل من قبيل تأييده للجهاد ضد الاستعمار، ذلك لأن أمريكا هى العدو الأول، الآن.

---

(١) الشعب ٥ مارس ١٩٩١ وكان مقاله بعنوان (لم يكن دفاعنا عن صدام .. ولكن حاولنا دحر المؤامرة ضد جيش العراق)، وهو مارنده عادل حسين فى جريدته فيما بعد كثيراً .

ومن هنا، اتفقت مواقف الخطاب الإسلامى مع عديد من الخطابات المتصارعة داخل هذا الخطاب وخارجه.

وعلى هذا النحو، فقد كان الحديث عن الديموقراطية فى أزمة الخليج إعادة إنتاج للمواقف من هذه القيمة عبر الموقف الفردى أو الجماعى، وعلى ذلك، لاحظنا الاختلاف فى الموقف من الديموقراطية، ففى حين كانت الديموقراطية تعنى عند البعض - حزب العمل - الطغيان (=صدام حسين) كانت عند البعض الآخر - بعض المستقلين - وسيلة الشورى العصرية المضمونة النجاح[1]، « وهى وسيلة ليست نابعة من تاريخنا الإسلامى والعربى، ومن هنا، « فلسنا ملزمين بها »[2]

وهو مايتحدد به أكثر موقف الإسلاميين المستقلين.

ويلاحظ أنه فى الحديث عن جذور الكارثة ذكرت بيانات أولئك المستقلين أن افتقاد قيمة الديموقراطية (الخطيئة الكبيرة)، وهى خطيئة تفرعت إلى خطيئتين يحددهما البيان الأولى على هذا النحو:

الخطيئة الأولى: السكوت على الظلم والإغضاء عن الانتهاكات العديدة للحرية فى حياتنا داخل أقطارنا، وفى ممارستنا تجاه بعضنا البعض. إن تكريم الإنسان واحترام حرياته وحقوقه ركن ركين فى حضارتنا الإسلامية. ومع ذلك، فإن أكثرنا فى اندفاعه وراء حلبات المصالح والمعارضة، والملاءمات السياسية العابرة ، قد أغمض عينيه عن صور منكرة من صور إهدار الحقوق والحريات، واستباحة كرامة الأفراد والأقليات، وإذلال المخالفين والمعارضين.. حتى فى أهون القضايا وأصغر الأمور. ونسينا أن الظلم ظلمات. وأننا حين نقبله لغيرنا ، فلن يكون من حقنا أن نرده عن أنفسنا .

الخطيئة الثانية : إننا أهدرنا قيمة أخرى كبيرة من قيم حضارتنا العربية الإسلامية وهى قيمة الشورى التى يشارك بها الناس مشاركة حرة وحقيقية فى إدارة شؤونهم. استناداً إلى أن الناس سواسية. وأن تصرف الواحد فى المجموع ممنوع. فكان أن ارتفعت الزعامات فوق الهامات وأحيط الحاكم الفرد - فى كثير من البلدان - بقدسية وثنية تدمر الإحساس بالكرامة وتذكى كل قيم الاستبداد والطغيان .

---

(١) محمد سليم العوا، *السابق* ص ١١٧

(٢) محمد أحمد خلف الله، *الأهالى* ٢٣ يناير ١٩٩١

إن المغامرات العدوانية التى تتورط فيها بعض الأنظمة العربية. والقرارات المزاجية التى تنتقل بها أنظمة أخرى من النقيض إلى النقيض. ماكان يمكن أن تقع وأن تدفع ثمنها عشرات الملايين من العرب والمسلمين، لو كانت أمورهم شورى بينهم. ولو قامت فيها مؤسسات مسئولة أمام شعوبها.)[١]

وهو ماتأكد فى البيان التالى من أن الكارثة:

(ما كانت لتقع قط لو أن أمور العرب والمسلمين كانت تدار على قاعدة الشورى واحترام حقوق الناس.)[٢]

كذلك راح البيان الثالث يكرر إلى أن ما حدث إنما يعود إلى « عدوان وظلم لامبرر له »، وقد تركز البيان على قيمة الظلم التى كان المسلمون يعلمونها، ويعلمون أن مايفعله الآن إنما يقصد به « البقاء على ظلمه وشغل الناس عن جريمته »[٣]

ويلاحظ أن أصحاب هذا التيار الأخير إنما يمثلون تياراً عريضا فى الخطاب الإسلامى، يسعى إلى (اليقظة) الإسلامية، مستلهمين القيم الأولى فى الإسلام، ومن هنا، كان الربط بين الشورى والواقع الدامى لايخلو من استجابة لروح العصر من أنه إذا أردنا الارتقاء فيجب أن يقترن ذلك بالشورى التى هى جزء من الإسلام بشكل عام وليست منفصلة عنه، وأهم مظاهر هذه الشورى كان حكم الفرد،[٤] وأن الطريق الى الوصولإالى ذلك هو قتال حكم الفرد الباغى[٥].

---

(١) ملحق (٥)

(٢) ملحق (٦)

(٣) ملحق (٧)

(٤) *وقد ردد سليم العوا لأكثر من مرة أن "حكم الفرد هو السر وراء تخلف الأمة، وراء تحريك الجيوش فى الاتجاه الخاطئ، ووراء تبديد الثروات فى غير ما أحل الله الانتفاع بها فيه.."(سليم العوا، السابق ص ٢٠).*

(٥) *وقد سعى العوا للرد على أساتذة جامعة القاهرة حينئذ ليؤكد أنه ليس هناك فئتان تقتتلان كما جاء فى بيان الأساتذة وإنما هناك "فئة باغية ظالمة هاجمت بليل فئة كانت آمنة مطمئنة"، وبذلك استبدل العوا بالآية: « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما "بالآية" فقاتلوا التى تبغى حتى تفيء إلى أمر الله"، وهو مايفهم معه دعوته للقتال.*

انظر رسالة خاصة من سليم العوا إلى أحمد بهجت نشرت فى كتاب الأخير: طاغية البعث فى مياه الخليج، الزهراء للإعلام العربى، القاهرة ١٩٩٠ ص ١٨٤، ١٨٧.

وقد شغل أحمد بهجت - أحد ممثلى هذا التيار - بقضية الطغاة والحاكم المطلق طويلاً ، فهو يرى أن الطاغية يعتبر نفسه هو الممثل الوحيد للشعب، وهو مافعله الحاكم العراقى حين تحرك بعد خسائر إيران « لسفك دم المسلمين فى الكويت »[١]، وهو فى هذا لايحمل الطاغية وحده وزر خطأ إنما يحمل الشعوب أيضا، فالمسئولية لا تقف عند الحاكم فقط، « وإنما على الجميع » ، وهو بهذا يلفت نظر الجيش العراقى إلى مسئوليته عما يجرى[٢]، ولذلك نجد فى الخطاب الإسلامى عند أحمد بهجت نموذج لخطاب أغلب الإسلاميين.

وحتى أكثر الإسلاميين تشدداً مع الغرب[٣] يفسر جزءاً كبيراً مما حدث بأنه لايوجد ديموقراطية فى عالمنا العربى، فالعراق عنده « كل شىء فيه يخضع لقرار السلطة سواء إعلان الحرب مع إيران. أو قرار غزو الكويت »، كما لاحظ ان ترتيب الاولويات بعد لتحرير الكويت كانت : أولاً : الامن، ثانياً: التعمير، ثالثاً : الديموقراطية، مع أن القضية الأولى هى الديموقراطية .

ولكن، هل يستبدل هذا الشرق - الذى لم يتأثر بالغرب نيابياً - بالديموقراطية، القوة، من منظور إسلامى للتغيير؟

يأتى الجواب من أصوات كثيرة، فأكثر الإسلاميين رفضا لشرعية الوجود الأجنبى فى الأرض العربية يربط بين أسلوب الوصول إلى الحكم وبين استخدام القوة[٤]، فمادمنا فى تاريخنا الإسلامى/ العربى لا نملك هذه الأداة: الديموقراطية، فإننا لانستطيع أن نجعل من الشىء الغائب الأداة السياسية للحكم. (و) .. يجب أن نعرف أولاً قيمة هذه الديموقراطية، بشكل سليم لنتخذ منها مقياساً لما نقوم به من عمل ثم الحكم على هذا العمل، وهو بهذا يربط بين القوة والديموقراطية حتى ليصبحا شيئاً واحداً يجب أن نعرف أن تاريخ الاسلام والمسلمين قد قام على القوة فيما يخص الولاية، وضم إقليم إلى إقليم.

---

(١) *الأهرام* ١٨ *أغسطس* ١٩٩٠

(٢) *الأهرام* ١ سبتمبر ١٩٩٠

(٣) حسن حنفى، *انظر الحياة، السابق* ٥ *أبريل* ١٩٩١

(٤) محمد *خلف الله*، *الأهالى* ٢٣ يناير ١٩٩١

والحاصل أن المثقف الإسلامى هنا يصل إلى نتيجة غاية فى الخطورة لتبرير الواقع، فإن حساب صدام حسين، لابد، أن يتم بالمنظور الإسلامى التاريخى، فمادامت قد اختفت الآن قيمة الديموقراطية فيجب أن تنتفى قيمة رفض غزو العراق للكويت بالقوة، وهو مايصل بنا – بالتبعية – إلى أن المرجعية التاريخية – لا الواقع المعاصر – هى هدفنا الذى يجب التنبه إليه .

الأكثر من ذلك خطورة أن الخطاب الإسلامى هنا لا يرفض الديموقراطية كقيمة إيجابية (غربية)، وإنما كقيمة سلبية ليست نابعة من تاريخنا الإسلامى.

على أن الخطاب الإسلامى يخفف من غلوائه عند آخر.. حين يتوقف أمام الغضب من محاكاة الغرب فى كل مايأتى، وهو مايعود بنا إلى تأثر مفهوم الشورى عندنا بعملية التغريب أو الصدمة الحضارية إذ تحولت الشورى الآن إلى مفهوم غربى يرتبط بالمرجعية الغربية ووسيلتها: القوة، ونجد أنفسنا مندهشين أمام من يقول « هم يقولون إن استخدام القوة يأت مجافياً لروح العصر. الحقيقة أن الأمر يتوقف على الظروف. فاستخدام القوة مازال متبعاً ومألوفاً فى عالم اليوم. وهو أحد الأدوات المستخدمة فى العلاقات الدولية »(١) .

وكأن مثقف حزب العمل الإسلامى يريد أن يقول لنا إننا لا يجب أن نصدق مايقوله الغرب من أن بسمارك العربى (يقصد صدام) لاينبغى أن نستخدم أسلوبه الآن، فكل شىء مسموح لنا مادام نابعاً من عالمنا نحن لاعالم الغرب.

وعلى هذا النحو، يعود المثقف الاسلامى الى منطقه الأصولى ليبرر لنا مايحدث فى العالم العربى ويفسره حسب منطقه .

ومن هنا، تتعدد مفاهيم الديموقراطية فى الخطاب الإسلامى وتتحدد عند كل فرع منه حسب انتماءاته، فمرة يتخذ الخطاب الإسلامى من الطاغية وحكم الفرد الباعث الأول لما نحن فيه، ومرة يصل الخطاب الإسلامى إلى أقصى درجة راديكالية له فيرى ان الديموقراطية هى القوة التى يمكن أن تكون بدلاً من الشورى أو تعمل فى إطارها.. إلى غير ذلك مما يمنح مصداقية العود إلى الأصولية مرة أخرى فى مواجهة الغرب

---

(١) مجلة *المستقبل العربى* ٦ / ١٩٩١ ص ١٧٦

(وانظر ندوة الخليج وتداعياتها على الوطن العربى، وقد عقدت بين ٢١ – ٢٢ ابريل ١٩٩١) .

وتحديه، لقد أصبح مفهوم المستبد العادل الآن « غير مسكوت عليه » ، وأصبح وجوده مرهوناً بوجود الغرب فى المقام الأول أو فى تواز معه، وأصبح التاريخ الآن هو الملاذ وليس مواجهة حاكم العراق أو التمسك بالتقاليد الدولية المعاصرة.

لقد تبلور الان تيار جديد، تيار يعكس الارتداد من فترة الاقتراب من الغرب فى السبعينيات الى الكفر به فى الخمسينيات والستينيات، من الارتداد إليه إلى الارتداد عنه، كانت القناعة المؤكدة الآن، هى، أننا لايجب أن نهتم كثيراً بالديموقراطية السياسية (الطغيان) بقدر مانهتم بمواجهة الديموقراطية الغربية التى تريد أن تمنحنا كيفيات مصلحة خاصة بها.

ولم يعد ليخلو من معنى أن الواقع الجديد الذى أفرزه الغزو دفع البعض لرفض التراجع عنه، واستعادة الوعى لدى حزب العمل كانت تعنى الارتداد إلى فكرة العالم الإسلامى الذى يتعارض مع العالم الغربى وقيمه، وهو مايمكن معه أن نلاحظ الخطاب الذى تردد كثيراً حينئذ من أن «الديموقراطية كنظام للحكم يفرض طرح قضية مصدر السلطة بشكل الدولة» هذا فى حين ان تصور (النظام الأمثل) للحكم فى التصور العربى الإسلامى هو النظام الذى يقيمه المستبد العادل وليتحقق من خلاله مايريد، على اعتبار أن صدام حسين صورة من صور الاستبداد الذى لابد أن نضيف إليها صفة العدل حين يتعلق الأمر بإصلاح أمور خاطئة سواء لو تعلق الأمر بالداخل أو بالخارج.

إنه الاستبداد المسكوت عنه بفعل خطر معلن عنه .

وبهذا نكون قد دخلنا عصر التيه العربى حين لم نستفد بالغزو فى تطوير الشكل الديموقراطى (=الغربى) أو قيمة الشورى (=الشرقية)، ورحنا نفهم الديموقراطية فى إطار/تحدى الغرب والمخاوف منه، والشورىَ فى إطار افتقاد الوعى بالتراكم التاريخى والنفاذ إلى المكونات الأساسية فى تاريخنا .

(٣) قضية فلسطين

يمكن القول إن الخطاب الإسلامى هو « الوجه الآخر للخطاب النهضوى العام، ومن ثم، فإن المفاهيم والتصورات الأيديولوچية فيه تتحدد فى وعيه الآخر بالواقع.. الواقع/ الماضى لايستحوذ عليه، وإنما يتشكل وعيه - فضلاً عن هذا الماضى - عبر الواقع/ الحاضر.

وقد كان أهم ماشكل هذا الوعى الآن قضية فلسطين، التى كانت أكثر الأحداث دراميـة ومأساوية فى هذا الخطاب، ويعبر أحد المثقفين المعاصرين عن هذا الواقع العميق العنيف الذى خلفه فى نفوس العرب جميعا انهزام جيوشهم السبعة وقيام إسرائيل، فيقول « لقد فوجئ الوعى العربى به مفاجأة كبرى، ولذلك صارت كلمة (الكارثة) وحدها القادرة على التعبير عن شعور العرب إزاء ما حدث، وكما يرفض الناس عادة التصديق بآثار الكوارث العظمى، عندما تمسهم هذه الكوارث مساً عميقاً، فقد (رفض) العرب كارثة فلسطين. ولكن مع شعور بالذنب كان من القوة والعنف بالشكل الذى جعل ذلك (الرفض) يتحول إلى (رفض) للذات[١] » ، ((نقد) لها[٢] . وفى الجانب الآخر أفرز رفض الآخر/ الغرب الذى يتهيأ دائماً لصنع (المؤامرة) الصهيونية الأمريكية، وهى التى تشخص قصة الصراع العربى - الإسرائيلى فى أحد وجوهها.

وفى مصر بوجه خاص، اتسمت ردود فعل الخطاب الإسلامى بالتأثر بالسلطة المركزية وهيمنتها، بحيث كان من الصعب ان نحلق فى آفاق النموذج الاسلامى فى التعامل مع الحدث المعاصر ، دون أن نلحظ أثر السلطة فى علاقتها برموز هذا الخطاب .

فى ضوء ذلك كله، تشكلت مواقف الخطاب الإسلامى، فى مواجهة الخطاب الرسمى وانطلاقاً من التعامل معه .

* * *

ومما سبق يمكن التعرف على مواقف الخطاب الإسلامى بتفريعاته التى سبق وأن أشرنا إليها، وسوف نتوقف خاصة عند قضية الربط بين انسحاب القوات العراقية

---

(١) محمد عابد الجابرى، *الخطاب العربى المعاصر*، دار الطليعة بيروت، ط٢/١٩٨٥ ص ١١٧

(٢) انظر : *نقد الذات فى الرواية الفلسطينية* ، مصطفى عبد الغنى ، دار سينا ، القاهرة ١٩٩٣.

وقضـية فلسطين، وهو أهم ما اتسمت به حركة الأحداث من قضـية فلسطين طيلة فترة الزمن .

كـان الرئيس العراقى قـد أعلن عن مبـادرته فى ١٢أغسطس التى ربطت بين الانسحاب العراقى من الكويت وانسحاب القوات الإسرائيلية من الأرض المحتلة(١)، وكـان الموقف الرسمى (المصرى) يتلخص فى أن احتلال الكويت مشكلة عربية – عربية، بينما يمثل الاحتلال الإسرائيلى للأرض العربية مشكلة عربية – إسرائيلية، وأن المساواة بين الاحتلالين تقوم على تصور خاطئ ، وأن الربط بين القضيتين لن يحل أيهما، وأن حقيقة الأمر أن الرئيس العراقى قد احتل الكويت من أجل البترول وليس من أجل فلسطين، أما ربطه بين القضيتين فلم يقصد به سوى كسب جماهيرية بين العرب لخدمة أغراضه من احتلال للكويت بينما هو عاجز عن تحرير فلسطين .

وبناء على ذلك يكون من الطبيعى أن يسعى الخطاب الرسمى إلى رفض الربط بين غزو الكويت وقضية فلسطين (حزب وطنى وموظفيه وحزب الوفد، ورموزه الإسلامية التابعة) فى حين يقف فى الصف الآخر الخطاب الإسلامى (حزب العمل والإخوان وعديد من المثقفين المستنيرين..) .

كيف طرح الخطاب الإسلامى موقفه المعادى للخطاب الرسمى والمؤيد للربط بين الخليج وفلسطين؟

وبدهى أن هذا السؤال يتفرع من السؤال الجوهرى: ماموقف الخطاب الإسلامى من الآخر/ الغرب؟

ستكون الإجابة عن السؤال الأخير – عرضاً – فاتحة الإجابة عن السؤال الأول – الربط – لنتعرف، أكثر، على حركة الخطاب الاسلامى حينئذ.

---

(١) فى ١٢أغسطس أعلن الرئيس العراقى عن مبادرة جاء فيها:

١- إعداد ترتيبات انسحاب قواته وفق مبادئ واحدة لانسحاب إسرائيل فوراً وبلا شروط من جميع الأراضى المحتلة فى فلسطين وسوريا ولبنان مع انسحاب سوريا أيضًا من لبنان والبدء فى تطبيق كل ماصدر من قرارات لمجلس الأمن .

٢- انسحاب القوات الأمريكية فوراً من السعودية والقوات الأخرى وأن تحل محلها قوات عربية وفقًا لما يحدده مجلس الأمن باستثناء القوات المصرية .

٣- تجميد جميع قرارات المقاطعة والحصار ضد العراق .

سيكون حزب العمل أول من يتخذ الموقف المناهض لعدم الربط – بين الخليج وفلسطين – وهو موقف ينبع – في الأساس الأول – من فلسفة الخطاب الإسلامي وحركته، وهو ما لخصه أبرز مثقفي هذا الحزب، حين قال عادل حسين « الجهاد ضد أمريكا والصهاينة هو فرض عين.. »[1]، بما يحدد أكثر طبيعة هذا الموقف .

وكان أول تعبير حاد عن هذا الموقف حين زار الرئيس بوش مصر، وأجرى مباحثات مع الحكومة المصرية ، تلاها مؤتمر صحفي أكد خلاله الرئيسان – مبارك وبوش – على ضرورة الانسحاب العراقي بدون شروط مسبقة. وقد تعهد بوش علناً بضرورة البحث عن تسوية للقضية الفلسطينية بعد أن تتم تسوية أزمة الخليج، وحينئذ راح رئيس تحرير صحيفة الشعب يتعجب من إصرار القيادة المصرية من أنه لامجال للربط ثم متسائلاً موجهاً الخطاب إلى الرئيس بوش: « كيف نصدقك ياسيد بوش وانت تعلم أن القرار صادر منذ ربع قرن دون أن تبذل الولايات المتحدة جهداً لتنفيذه ؟ إن من يسمعك يتصور أن الجهود الأمريكية كانت (مقطعة بعضها) إلى أن جاءت أزمة الخليج فتعطلت المساعي، ولذا فإنه يكفي أن تقول سنعود الى القضية بعد الانتهاء من الخليج.. لكي نصدقك؟ » .

وبعد أن يُذكر الرئيس بوش بوعود الرئيس كارتر السابقة الكاذبة يضيف: وأنتم الآن تفعلون الشيء نفسه، تعدون السذج بأنكم ستتحركون من أجل تحقيق الانسحاب الإسرائيلي إذا خرجتم من حربكم الحالية ظافرين لاقدر الله.. وكل عاقل يدرك أنه إذا كتب لكم النصر ستعود المنطقة للضياع والاحباط، وسيهدم الصهاينة الأقصى، وهو يدعو أي عربي أو مسلم بضرورة الاستفادة بالمأزق الأمريكي فيرفض مساعدة الأمريكيين إلا إذا ساعدونا في تحرير القدس والأرض الفلسطينية »[2].

ولأن أمريكا لا يعنيها غير تدمير العراق وتحقيق أهدافها بالسيطرة على المنطقة العربية ، تتوالى بيانات حزب العمل بإدانته هذا الموقف واستقدام القوات الأمريكية بشكل مستمر .

---

(١) *الشعب،* ٢٧ نوفمبر ١٩٩٠ .

(٢) *الشعب* ٢٧ نوفمبر ١٩٩٠

ولا تكاد تبدأ الحرب وتظهر أطماع أمريكا، فإن الربط بين الخليج وفلسطين يستبدل بالانسحاب المتزامن بين العراق والقوات المتحالفة مع أمريكا، ويطالب حزب العمل بمؤتمر دولى « يسعى لتطبيق القرارات الدولية المتعلقة بفلسطين »(١).

وحين تتعقد الامور وتدخل الحرب شهرها الثالث تتوالى بيانات الحزب وتصريحاته ، فتتعجب من إصرار الرئيس مبارك على الربط بين الخليج وفلسطين متفقا فى ذلك مع الولايات المتحدة، خاصة، وقد جاء فى خطاب الرئيس أنه والملك فهد حصلا على وعد من بوش بأنه سيتدخل لحل القضية الفلسطينية بعد انتهاء حرب الخليج إن لم ننتزع من الولايات المتحدة حقوقنا ومصالحنا القومية فى هذه اللحظة فلا أمل فى تحركها إذا قدر لها أن تنتصر على القوة العربية الممثلة فى العراق »(٢).

وتنتهى الحرب بانتصار أمريكا وحلفائها، ولانسمع وعود بوش السابقة، ويتساءل مثقفو الحزب الإسلامى « انتهت العملية الآن ، ولن يطلع صدام بطلا إذا أعلنتم موقفا واضحا من القضية الفلسطينية.. فلماذا الصمت ؟.. طبعا لن يستجيب الرئيس بوش لهذا المنطق..و.. لن تحصلوا على شىء بعدها.. لفلسطين أو غير فلسطين »(٣)

ورغم أن جماعة الإخوان أقل غلواً فى التعبير عن موقفها، وتمسكا بفلسفة (الجهاد) ضد المؤتمرات الغربية، فإنها كانت أكثر وضوحاً وتماسكاً فيما عبرت عنه، ومراجعة بيانات الإخوان فى ذلك الوقت يمنحنا قناعة الميل الشديد من قبل أولئك فى التعبير عن موقفهم، وهو موقف مناقض للخطاب الرسمى متوائم مع الخطاب الإسلامى العام.

ورغم أن موقف الإخوان تحدد فى أنهم لم يطالبوا بالربط أثناء احتلال العراق للكويت، فإن هذا الموقف تبلور، أكثر، عقب الغزو الأمريكى، وقرب انتهاء الحرب وبعدها، ونستطيع أن نوافق على أن موقف الإخوان يعكس « ذكاءً سياسياً وواقعية ملحوظة ، خصوصاً عند تكرار التأكيد بازدواجية الموقف الأمريكى والغربى من مسألة فرض الشرعية فى الكويت بالمقارنة بفلسطين، فإن دعوة الإخوان تركزت للقياس الإيجابى على الحجة القائلة بفرض الشرعية فى الكويت لفرض الشرعية الدولية فى

---

(١) *السابق، أيضًا، أنظر الشعب* ٢٢ يناير ١٩٩١

(٢) *السابق، أيضا:* ٢٩ يناير ١٩٩١

(٣) *الشعب* ٥ مارس ١٩٩١

الحالة الفلسطينية أيضاً، وفى نفس الوقت فقد اختارت قيادة الإخوان شكلاً واقعياً يقوم على مؤتمر للدول الموقعة على اتفاقية چنيف الرابعة والخاصة بحماية المدنيين وقت الحرب، وطلب فرض الشرعية فى الكويت بالمقارنة بفلسطين، بدلاً من الخوض فى جدل عقيم حول ضرورة اتخاذ مجلس الأمن لقرار فورى يفرض الشرعية بالقوة ، وهو الأمر الذى أدركت هذه القيادة عدم واقعيته وعدم واقعية القول بالربط بين مسألة الكويت والمسألة الفلسطينية »[1]

وهذا الموقف تبلور أكثر عقب الحرب إذ رددت بيانات الإخوان أن لاينبغى أن تنسينا هذه الفرصة قضية شعب فلسطين والمسجد الأقصى الأسير..و.. هل تستطيع الشرعية الدولية إصدار قرار فورى بمنع هجرة اليهود السوفيت إلى الأرض المحتلة؟ وهل تستطيع كذلك أن ترغم العدو الصهيونى الغاصب على إيقاف عمليات السحل والقمع والطرد والإبادة الذى يقوم به ضد الشعب الفلسطينى الصابر على أرضه »[2]

وعلى ذلك، كان على الإخوان ان يطالبوا أمريكا وحلفاءها « بأن يتعاملوا مع القضية الفلسطينية بنفس المستوى الذى تعاملوا به مع قضية الكويت[3] كما ردد مصطفى مشهور أحد قادة الإخوان.

وقد كان من شأن هذا الموقف أن تحدد موقف الإخوان فى مصر إزاء التسوية المزعومة بعد الحرب، والتى راح يعمل بها وزير خارجية أمريكا، فقد راحت الجماعة تدعو إلى «الجهاد » وترفض مثل هذه التسويات التى لا تدعو إلا إلى تصفية القضية الفلسطينية، ويلاحظ أن هذا الموقف استمر أثناء عقد عدة لقاءات ومؤتمرات من مدريد إلى واشنطن إلى موسكو إلى واشنطن مرة أخرى..وهلم جرا. حتى شهدت (أوسلو) النهاية الدرامية للقضية باسم غزة - وأريحا أولاً.

وقريباً من هذا الموقف تحدد موقف الإسلاميين المستقلين، انطلاقا من ضرورة التنبه لمثل هذا التدخل الأجنبى، خاصة إذا كان سجله حافلاً بالتنكر السافر للحقوق العربية والعدوان المستمر على مصالحنا «والكيل بكيلين مختلفين فى تعامله مع قضايانا

(١) *التقرير الاستراتيجى، السابق* ص ٧٠٣ - ٨٠٣
(٢) *بيان الإخوان، القاهرة مارس* ١٩٩١ *وقد نشر بجريدة الشعب فى ٥ مارس* ١٩٩١
(٣) *الشعب* ١٢ *مارس* ١٩٩١

وفى مقدمتها قضية فلسطين »[1]، وهو تردد فى البيانات التالية، فنقرأ عن ترديد آثار هذا الغزو على قضية فلسطين أن « من الإساءة البالغة لقضية فلسطين حين زعم أنه احتل الكويت بدعوى تحرير فلسطين، وخلط بينها وبين عدوانه على قطر عربى شقيق، فحقق لإسرائيل من المكاسب والمبررات مالم تكن تحلم به وأعطاها التأمين السياسى والمادى والعسكرى مالم تكن تتوقعه »[2]

بيد أن ثمةً عدداً آخر من المثقفين المستنيًرين رأوا أن التركيز على أن خداع الغرب هو أقرب الى الصواب من الحديث عن حلول أثناء الحرب أو بعدها أو الانشغال بقضايا فرعية، وهو ماتمثل فى اهتبال الجماهير العربية لقول صدام حسين أنه يريد تحرير فلسطين فراحت تؤيده تأييداً كاملاً، فقد فسر حسن حنفى مثل هذا الموقف بأنه يعود إلى طبيعة المناخ عقب كامب ديفيد وبعد إخراج مصر من الساحة العربية، وشهادة فعل الغرب باستباحة القيم العربية مما أدى لضياع فلسطين « فحين تأتى القيادة العراقية لتقوم بهذا الدور الغائب فى العالم العربى، وكثير من التأييد الذى تم للعراق بالفعل، ترى أنه فى النهاية لأن الرئيس العراقى يتكلم عن فلسطين »[3]

ويردد آخر مثل ذلك وإن بدت لهجته أكثر عنفاً وضيقاً، فما دام المماطلة والتسويف فى تنفيذ مقررات الشرعية الدولية هو ماتفعله إسرائيل بإذن من أمريكا فى الساحة العربية « فلماذا لانصدق صدام حسين فيما يذهب إليه من ربط القضية الفلسطينية بقضية الكويت أو أزمة الخليج »[4].

وعلى ذلك، يمكن القول هنا أن الخطاب الإسلامى كان أقرب إلى الخطاب السياسى الغاضب، وأنه فى تصوراته أستند إلى المرجعية فى التعامل مع الغرب، وسيطرت عليه فكرة (المؤامرة) الأمريكية – الصهيونية، وإن لم يقلل من خطر التواطؤ الداخلى فى التصدى للرئيس العراقى دون أن يستند – هذا التواطؤ الداخلى – إلى مصداقية يتعامل بها مع الغرب حيث عكست المماطلة والتسويف الموقف الأمريكى الإسرائيلى أكثر مما هى من جانب صدام حسين من حيث الشرعية الدولية، وهو ماتكرر كثيراً فى أدبيات هذا الخطاب.

* * *

(١) *البيان الأول، ملحق (٥)*

(٢) *البيان الثالث، ملحق (٧)*

(٣) *الحياة اللندنية ١٥ أبريل ١٩٩١*

(٤) *هو محمد أحمد خلف الله ، وهو ماردده فى كثير من كتاباته الأخرى حينئذ .*

رابعاً :

جماعات المصالح المثقفة

جماعات المصالح المثقفة هى تجمع أفراد من ذوى المصالح الاقتصادية أو السياسية .. إلى غير ذلك، بهدف واحد، اتخاذ موقف محدد للتأثير فى صانع القرار السياسى .وهذا التجمع غالباً مايكون ذا صبغة تنظيمية، بصفة رسمية، أو بصفة غير رسمية(١) .

وفى إطار هذا الفصل، فإن تحليل خطابات المصالح فى أزمة الخليج يستوجب منا التوقف عند فرعين رئيسين من الخطاب، على هذا النحو:

(١) حول جماعات المصالح انظر:

- مصطفى كامل السيد، السياسة والمجتمع فى مصر - دور جماعات المصالح فى النظام السياسى المصرى ٥٢/١٩٨٤ ، القاهرة، المستقبل العربى ١٩٨٣

- أحمد فارس عبد المنعم، جماعات المصالح والسلطة فى مصر، دراسة حالة لنقابات المحامين والصحفيين والمهندسين ٥٢ - ١٩٨١ رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسة ١٩٨٤

- محمد أحمد إسماعيل على، دور المثقفين فى التنمية السياسية، دراسة نظرية فى التطبيق على مصر، ج١ ،ج٢ وقد كانت فى الأصل رسالة دكتوراه، طبعت بالقاهرة بدون، ص١٠ ٢٠

- أمانى قنديل، النقابات المهنية فى مصر وأزمة الخليج، بحث مقدما إلى المؤتمر السنوى الخامس للبحوث السياسية الذى ينظمه مركز البحوث والدراسات السياسية بالقاهرة فى المدة بين ١٤ - ١٦ ديسمبر ١٩٩١ .

- الجامعة

- النقابات المهنية

وسوف نُلاحظ هنا أن فهم خطاب جماعات المصالح يتشكل عبر التغييرات التى يمر بها المجتمع المصرى (أولا)، ورد فعل هذا الخطاب على ماتسفر عنه أزمة الخليج (ثانيا).

* * *

١ - الجامعة :

يرتبط مفهوم جماعات المصالح وتطوره بتغييرات عديدة فى المجتمع المصرى.

وهذا يبدو منذ البداية بالتطور السياسى والاجتماعى للنظام السائد، وهو التطور الذى تحدد فى مصر، خاصة، بقيام ثورة ١٩٥٢، وتبنى فلسفة الدمج التنظيمى والايديولوجى والوظيفى مكان القوى والأدوار والمؤسسات السياسية والاجتماعية والفكرية فى المجتمع، وهو مايعنى أن النظام الجديد لم يسمح لهذه الجماعات أن تلعب أى دور مؤثر فى القرار السياسى، وإنما اكتفى بسياسة (الولاء) واستبدل بها أى موقف آخر.

وقد تحدد هذا التطور أكثر مع تطور المجتمع المصرى، وبوجه خاص فى السبعينيات، مع إعلان تبنى النظام السياسى الجديد لسياسة الانفتاح الاقتصادى ثم التعددية السياسية، فتمتعت هذه الجماعات بحرية أكثر وإن كان فى إطار لون من ألوان الحرية المقيدة أو المراقبة.

ولم يقتصر الامر على التبعية السياسية فقط، وإنما تعداه إلى الخضوع العضوى لإرادة الدولة، فتعتمد مالياً على إعانة تقدمها لها وتفقدها استقلاليتها بالتالى[١]

أضف إلى ذلك أن عديداً من هذه الجماعات كانت فى نشأتها الأولى تدين إلى أوامر رسمية، أو ظروف مريبة أسيرة لتناقضاتها الداخلية، وعلى سبيل المثال، فرغم أن نقابة الصحفيين تخضع فى الغالب لصفوة تابعة للنظام السياسى، فإن صفوة أخرى فيها، وإن تكن اقل تأثيراً فى معارضة هذا النظام، مما ينشأ عنه نجاح النقيب الذى يعود إلى إلحاح النظام السياسى على أن يمثل أحد أنصاره موقع نقيب الصحفيين،[٢]، كما أن نقابة المهندسين قبل طغيان العنصر الإسلامى فيها لم تستطع أن تكون فى موقف مستقل من الدولة بحكم تأثير

(١) التقرير الاستراتيجى العربى، السابق ص ٤٩٨

(٢) النقابات والمجتمع، نشرة عن نقابة التجاريين، بدون، ص ٥

الدولة عليها ممثلاً فى السيطرة على قيادة النقابة؛ وهو ماسعت الدولة ليكون أمراً واقعاً، فى بقية النقابات، الأكثر من ذلك مايلاحظ من أن الموافقة على تأسيس النقابات المهنية الخاصة بالمهندسين والمعلمين قام على شرط عدم ممارسة أى أنشطة سياسية(1).

على أن أهم التطورات التى أثرت فى حركة الجماعات، على المستوى البنائى، كان لعلاقتها – كما سنصل إليه – بالتيار الإسلامى بوجه عام، إذ لوحظ أن غلبة هذا التيار كان لافتا للنظر فى الجماعات التى كان لها الدور الفعال فى أزمة الخليج، فمنذ انتخابات عام ١٩٨٧ استطاعت جماعة الإخوان المسلمين إحراز انتصارات عديدة فى النقابات المهنية (خاصة منها: الاطباء، المهندسين، الصيادلة)، كذلك لم نعدم تأثيراً إسلامياً فى نقابة الصحفيين وإن لم يكن على مستوى الرموز النقابية البارزة وإنما على مستوى الأفراد .

ويمكن أن نذكر هنا مايلاحظ – كذلك – فى غالبية نوادى هيئات التدريس واتحادات الطلبة داخل الجامعات.

والعلاقة هنا طردية.

فكلما زاد تأثير التيار الإسلامى داخل هذا الاطار زادت معارضة النظام، وعلى النقيض فإنه كلما قل التأثير الإسلامى بدأ التردد أو التأييد للنظام بشكل أكثر وضوحاً، وعلى هذا النحو فإذا تصورنا خطاً متصلاً يبدأ بالرمز «أ» فى أقصى اليمين يصل منه التأثير الإسلامى إلى درجته القصوى، فإن هذا التأثير يبدأ رويداً رويداً فى التلاشى كلما امتد هذا الخط ناحية اليسار فى الرموز«ب»و «جـ» حتى إذا ماوصلنا الى الرمز «د» يكون هذا التأثير قد انعدم نهائياً:

أ ب جـ د

وعود إلى بدايات هذا الخط، سوف نلحظ أن المثلث الذهبى للتأثير الإسلامى يبدأ عند الرمز « أ » ممثلاً فى نقابات الطب والصيدلة والهندسة، فإذا غذينا الخطو إلى الرمزين «ب» و «جـ» نكون عند نقابتى المعلمين والزراعيين، فإذا استمر السير إلى الرمز «د» نكون قد وصلنا عند انعدام الخط الإسلامى، ومن ثم الموقف المناهض عند نقابات من أمثال المعلمين والاجتماعيين والتشكيليين.. وغيرهم. وبالطبع سوف يكون علينا أن نلاحظ أن نقابة

(1) محمد إسماعيل على، *السابق* ج ٢ ص ٢٢٤

أيضا انظر:

El-``K-hatib, M.f, The working of parliamentary Institutions in Eygpt 1924-1952,ph. D,Department of Political Science University of Edin Bursh, 4-1959.

المحامين تتراوح فى موقفها بين الرمزين «ب» و «جـ»، كذلك يكون علينا أن نلاحظ – فى نفس السياق – كيف استطاع الإطار النقابى متحالفاً مع العناصر الجامعية أن يلعب دوراً أساسياً فى الأزمة، عند معارضة النظام، غير أن رد فعل الدولة المباشر سوف يكون – بالتبعية – حاضراً عند بداية هذا المتصل، فى حين أن رد الفعل غير المباشر سيبدو أكثر وضوحاً كلما انتقلنا إلى اليسار.

وهذه العلاقة بين المؤسسات والنظام تدين بالعام الذى سبق الأزمة مباشرة، فإن التقرير الاستراتيجى العربى لهذا العام – ٨٩ – انتهى إلى عده ملاحظات أهمها « ارتفاع درجة التسّيس بين النقابات المهنية بشأن قضايا الحريات والديموقراطية فى الوقت الذى ساد فيه الاعتدال فى تسيس القضايا المهنية والاقتصادية، وتم إرجاع ذلك الى ثلاثة عوامل متشابكة وهى: التيار الأيديولوجى المسيطر على مجلس النقابة، وثانياً، درجة مؤسسية النقابة من حيث مشاكلها الداخلية، وماتقوم به من خدمات وطبيعة العضوية، وثالثاً، طبيعة المهنة وظروفها».(١)

وقد يكون من المهم قبل ان نصل إلى ملامح هذا الخطاب على تباينه أن نشير إلى أنه لايهمنا تأثير القضايا المهنية الخاصة بالنقابات أو المطالب الفئوية والاقتصادية لأعضائها، أو حتى ربط هذه القضايا بالقضايا العامة إلا بالقدر الذى يصاغ به الخطاب السياسى من أزمة الخليج.

على أية حال فإن مراجعة أدوار هذه الجماعات سوف ترينا أن (الخطاب) السياسى لم يخرج عن تفريعات أربعة من النظام السائد، فإذا استبعدنا حركة الخط المتصل – فيما سبق – فسوف نبلور التصورات العامة خلال أربعة خطابات متفرعة من الخطاب السياسى الرئيسى على النحو التالى:

- الخطاب المعارض .
- الخطاب المؤيد .
- الخطاب المتردد .
- الخطاب المتحفظ .

* * *

---

(١) *التقرير الاستراتيجى العربى* ١٩٨٩ ص ٤٦٩، *أيضاً، التقرير الاستراتيجى لعام* ١٩٩٠ ص ٤٥١، *القاهرة ، جريدة الأهرام* .

لقد لعبت الجامعة من خلال نوادى هيئة التدريس والطلبة دوراً كبيراً فى أزمة الخليج، وهو مايعود - كما أسلفنا - إلى علاقة هذه القوى بالتيار الإسلامى، حيث لوحظ أنه يهيمن على هذه الساحة مناخ جديد تبلور فى اتخاذ موقف المناهضة للنظام.

ورغم أن الدور التقليدى لنوادى هيئة التدريس كما أريد لها كان الانصياع لرغبة الدولة لتصبح أكثر استقرارا فى سياق السياسات العامة(١) . فإن أزمة الخليج كانت دافعاً لتتخذ موقفا معارضاً للنظام، فراحت تسعى للخروج من الدور المرسوم لها إلى آفاق الاندماج فى الخطاب الآخر لتعبر عن المواقف السياسية الخاصة بها، وذلك ناتج عن الإحساس بقيمة الرموز الجامعية وأهميتها فى ضرورة التعبير عن القضايا العامة.

والملاحظ هنا، أن عدداً ليس بالقليل من أعضاء هذه النوادى من جامعات القاهرة أو عين شمس أو الإسكندرية أو أسيوط.. إلى غير ذلك من الجامعات الأخرى، فضلاً عن دخول بعض هذه النوادى فى علاقات تحالف مع بعض تيارات الخطاب الإسلامى المناهض، وخاصة، مع بعض النقابات المهنية من ذوى التوجه الإسلامى.

ويمكن تصنيف تصورات خطاب نوادى التدريس إلى عدة مواقف نختار منها ثلاثة: إدانة العراق وإدانة التدخل الأجنبى وإدانة موقف مصر وفيمايلى تحليل لهذه المواقف:

أولاً : لم تتردد بيانات هيئات التدريس عن إدانة الاحتلال العراقى، إذ أقر البيان الأول أنهم يحملون العراق المسئولية الكاملة عن كل مايحدث وعن الانتكاسات التى تترتب على ذلك(٢)، ومن ثمّ، دعوة الشعوب العربية والشعب المصرى لاتخاذ الإجراءات اللازمة تجاه الشعب الكويتى فى مصر، وحين تبدأ حرب تدمير العراق من قبل القوات المتحالفة بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية تصدر البيانات المتوالية من الجامعات الرئيسية فى مصر: القاهرة، عين شمس، الإسكندرية، وتدعو جميعاً - وقد انضمت إليها جامعة أسيوط - وذلك بعد إدانة العراق إلى التنبيه الى خطورة العدوان على العراق، وتتمنى « لو أن الدول العربية والإسلامية جيشت جيوشها لترد الظالم عن عدوانه وإبعاد حاكم العراق عن غيه وفاء إلى الله ولكن تنازع الحكام ففشلوا »(٣).

---

(١) توجد تجربة مُرة لنادى هيئة التدريس بجامعة القاهرة عام ١٩٨٤، حيث كان القانون ٣٢ لسنة ١٩٦٤ يخول للسلطات فى مصر - من خلال وزارة الشئون الاجتماعية - برفض الترخيص له عندما أوعزت السلطات لوزارة الشئون لتحذير مجلس إدارة النادى ذى التوجه اليسارى والناصرى حينئذ لضرورة عدم التدخل فى الأمور الوطنية والقومية بحجة أن قانون الجمعية لا يسمح به.

(٢) البيان الأول، القاهرة، وقد نشر بجريدة الأهرام فى ٢٧ سبتمبر ١٩٩٠ .

(٣) بيان جامعة القاهرة، فبراير ١٩٩١، الملحق (٩) .

في حين راح يؤكد بيان آخر - أسيوط - على أن الضحية فى الحرب الآن هو شعب العراق مؤكداً على « رفض الشارع العربى والإسلامى لاحتلال العراق للكويت »[1]، وهو فى ذلك كله يرفض أن يتحول الأمر إلى مجزرة لشباب العراق.

ويلاحظ أنه مع استمرار تدمير العراق تتقلص مساحة إدانة العراق أو تتوارى إلى موقف التركيز على إدانة القوات الأمريكية والتحذير منها.

ثانياً : إن الواقع العربى أصبح ميئوساً منه بعد أكثر من أسبوعين من بداية الغزو الأجنبى، وذلك هو الذى جعل البيان الثانى لأعضاء هيئة التدريس بجامعة القاهرة يصل إلى يقين أنه قد انتهزت أمريكا والتحالف الأوروبى الغربى الفرصة فنزلوا بجيوشهم إلى المنطقة بدعوى حماية المملكة العربية السعودية وتحرير الكويت.

وقد راح هذا البيان ينبه إلى الغرض الأساسى للتحالف على هذا النحو:

(أ) حماية المصالح الاقتصادية لهذه الدول بالسيطرة على بترول الخليج .

(ب) تدمير القوة العسكرية الاقتصادية للعراق وفى ذلك تدمير للقوة العربية الإسلامية.

(جـ) مساندة إسرائيل بتدمير وتمزيق العراق والتغطية على عملية التهجير ليهود الاتحاد السوفيتى التى تجرى الآن على قدم وساق.[2]

وقد مضى فى نفس الطريق بيان جامعة أخرى - عين شمس - يكشف عن أن «الهدف» من هذه الحرب الضروس ليس تحرير الكويت.. وإنما تدمير القوات الاقتصادية والعسكرية والإنسانية لدولة العراق العربية الإسلامية وشعبها من أجل تحقيق الهيمنة الأمريكية »[3]

ولم يتوقف هذا البيان - شأن البيانات الأخرى - عن كشف المستفيد الحقيقى من هذه الحرب - إسرائيل - فى حين راح بيان جامعة أسيوط يرفض أن يرى الحل - كما يروج الخطاب الرسمى - فى يد صدام وإنما فى يد « القوات المتحالفة »[4]، كما لم يفت هذا البيان العود للاشارة المتكررة إلى ضرورة الانسحاب المتزامن للقوات المتحاربة من الجانبين.

---

(١) بيان جامعة أسيوط، فبراير ١٩٩١

(٢) البيان السابق، انظر ملحق رقم ٩

(٣) البيان السابق الذى صدر عن جامعة عين شمس فى فبراير ١٩٩١، أيضًا انظر: الشعب ٥ فبراير ١٩٩١

(٤) البيان السابق لجامعة أسيوط

ثالثاً : ويلاحظ كذلك أنه مع اقتراب الحرب، فإن توجه هيئة التدريس بدأ معارضاً ليس فقط للقوات الأجنبية، وإنما – أيضا – لموقف النظام المصرى نفسه الذى لعب دورا فى جانب هذه القوات، فمراجعة بيانات النوادى التى صدرت حينئذ يلحظ أنها لم تخل قط من نبرة المعارضة الداخلية، فما كادت تبدأ الحرب ويظهر الدور السلبى للقوات المصرية حتى راحت البيانات ترفض أن يكون للقوات المصرية أى دور فى المملكة السعودية قط، اللهم إلا حماية المقدسات الإسلامية بها والزود عن أرضه "[1]، وقد اتخذ بيان آخر موقفاً أكثر تشدداً وغضباً، فرغم تجاوز قوات الحلفاء مقررات الأمم المتحدة مازالت الدولة المصرية مصرة على الاستمرار فى التحالف الغربى المشبوه ضد شعب العراق الشقيقة "[2]، رافضاً البيان الموقف المصرى الذى يحدد استراتيجياً الأمن المصرى نفسه خاصة فى ظل معاهدة السلام الإسرائيلية، فى حين طالب بيان ثالث الجهود الدبلوماسية أن توقف الحرب فوراً والبدء فى انسحاب متزامن للقوات المتحارية.

ويمكن الاقتراب أكثر من الموقف العام لنوادى هيئات التدريس حين نوجزه فيمايلى:

(أ) التحالف، فى الفترة الأولى، مع التجمع المهنى النقابى، الذى كان يسيطر عليه – كما سنرى – التوجه الإسلامى.

(ب) ادانة العراق منذ البداية، وإن لوحظ انخفاض نبرة هذه الإدانة حين أوغل الحلفاء فى تحقيق أهدافهم بالشروع فى تدمير العراق.

(جـ) استبدل باللوم المستمر للبلاد العربية المعارضة للغزو العراقى اللوم، وبشدة، لموقف الحلفاء.

(د) مع إدانة موقف مصر توازى معه التنبه للدور الذى كان يمكن أن تلعبه، حتى إن وقف الحرب لايمكن أن يتم الا بدور فعال تلعبه مصر كما أشار بيان جامعة عين شمس .

(هـ) ما لا يمكن إغفاله أن نوادى هيئة التدريس رغم الموقف العنيف الذى تمثل فى بياناتها، فإنها لم تجاوز ذلك إلى التظاهر أو استفزاز السلطة بتحرك فعلى لرفض الخطاب الرسمى .

---

(١) *بيان جامعة القاهرة، أنظر الملحق ٩ .*

(٢) *ويضيف هذا البيان هنا : " لأول مرة فى تاريخ المنطقة وفى تاريخ مصر يقف جيش مصر العظيم جنبًا إلى جنب قوات الولايات المتحدة وفرنسا وإنجلترا، حلفاء إسرائيل والأعداء التقليديين للأمة العربية فى خندق واحد ضد جيش دولة عربية وفى حرب يجمع الجمع على أنها تهدد أول ماتهدد الامن القومى المصرى ذاته.. " – بيان أعضاء هيئة التدريس. السابق .*

ولايمكن فهم موقف هيئات التدريس بالجامعات دون أن نقترب أكثر من موقف الطلبة، فكلاهما – أساتذة الجامعة والطلبة – انتميا إلى الخطاب الإسلامى المعارض، وكلاهما دخل تحالفات مع بقية جماعات المصالح كالنقابات المهنية وخاصة، عقب الغزو مباشرة.

حين نصل إلى حركة الطلبة إبان الأزمة سوف نلحظ أن الاتجاه الإسلامى الذى يمثله الطلبة فى الجامعة تحت اسم (الجماعة الإسلامية)، راح يتخذ نفس الموقف السابق مع الغلو فى تفسير ماحدث من وجهة نظر عقيدية خالصة، فماحدث هو « نتيجة طبيعية ومنطقية لما آلت إليه الأمة »[1]، من سكوت الشعوب الإسلامية لأسلوب الحكم، والسكوت على الظلم والتفرق والإغراق فى البذخ.. وما إلى ذلك من الأسباب التى جعلت الشعوب الإسلامية تموت جوعاً ولاتجد مأوى فضلاً عن الطريقة الفوضوية التى تدار بها حياتنا بعيداً عن الفكر الإسلامى والعقيدة الإسلامية.

ومما يلفت النظر هنا هو التركيز على أمرين اثنين: إدانة العراق والغلو فى ادانة القوات الأجنبية المتحالفة، وهو ما يقترب بنا أكثر من الخطاب الإسلامى المعارض للخطاب الرسمى، ففى حين نقرأ « إننا ندين ونرفض رفضا تاما هذا الاجتياح الغاشم من دولة العراق للكويت، لا نلبث أن نلتقى بعاصفة من الأسئلة الاستنكارية التى تدين وجود هذه الحشود المرابطة من القوات الأجنبية » على أراضينا المقدسة »[2]، ولاهمية أسئلة « الجماعة الإسلامية فى هذا السياق، سوف نجتزىء هذا الجزء عن الحشود الأجنبية :

– هل جاءت هذه القوات من أجل المبدأ، ونصرة الحق، ثم تعود من حيث أتت؟!، ومنذ متى كان الحرص على مصلحة الشعوب الضعيفة؟، وأين كانت هذه المبادئ حين أريقت دماء المسلمين على أيدى اليهود، وذبحوا فى صابرا وشاتيلا؟ وأين كانت حين اجتيحت فيتنام؟.

– هل جاءت هذه القوات لتحمى حقول البترول.. أم لتستعمر الأرض؟. وقد قال وزير دفاعهم: لقد جئنا لنبقى، إذن فهو استعمار جديد ولكن برضانا نحن

– هل وصل بنا العجز والضعف الى ان نستعين بغيرنا لحماية أرضنا؟ ولماذا لم نربى أبناءنا وشعوبنا على الجهاد كما تفعل إسرائيل، ولماذا قتلنا فيهم روح العزة والكرامة والحمية لدينهم وأرضهم وعرضهم حتى أصبحنا نمد أيدينا لأعدائنا كى يحمونا؟ ومنذ متى كانت الذئاب تحمى الغنم؟

---

(١) *بيان (رأى الجماعة الإسلامية فى "أحداث الخليج"، ملحق (١٠)*

(٢) *السابق.*

- هل تتكرر مأساة الأندلس حيث كان حكام طوائف المسلمين يستعينون بالفرنجة على بعضهم البعض حتى أبيد المسلمون فى محاكم التفتيش، ثم أصبحت الأندلس للفرنجة!! فهل هى إعادة لتقسيم العالم الإسلامى بين الشرق والغرب؟[1]

وعلى ذلك، فإن الجماعة الإسلامية راحت تستعرض أحوال العالم الإسلامى وترى أنه السبب فيما آلت إليه أمورنا، ومن ثمّ، فإن استعادة الذات والأرض والكرامة تظل مرهونة بشرط واحد، هو، التمسك براية الإسلام.

وكما يبدو حرص الجماعة الإسلامية على إدانة العراق يبدو حرصها كذلك على الدعوة إلى الانسحاب غير المشروط للقوات الأجنبية من الخليج والقوات العراقية من الكويت وحل النزاع تحت المظلة العربية - الإسلامية، على أن أهم مواقف الجماعة الإسلامية لفتًا للنظر وعيها داخل البيان وخارجه للدور الماكر الذى تلعبه أمريكا طيلة الأزمة فإن إعلان أمريكا عن عزمها إلغاء الديون العسكرية المستحقة على مصر وفوائدها، يأتى لضمان صمت مصر على ضرب العراق[2] .

ورغم أن القوى الطلابية تتكون - إلى جانب الاتجاه الإسلامى - من اتجاه يسارى (ناصرى أو شيوعى) واتجاه حكومى (حزب وطنى)، فإن الاتجاه الإسلامى يظل من أقوى هذه الاتجاهات قاطبة، خاصة أن السنوات الأخيرة شهدت فوز الإسلاميين باتحادات الطلاب[3] .

ومن الملاحظ هناأنه فى الوقت الذى دخلت فيه الحرب إلى مرحلة عصبية فى تدمير العراق، كان الطلاب قد دخلوا فى تحالفات سياسية وثيقة مع بقية جماعات المصالح، وخاصة، نوادى هيئات التدريس والنقابات المهنية، ومع ذلك، لوحظ أن الطلبة كانوا يخرجون فى مظاهرات عارمة ضد الوجود الأجنبى والموقف المصرى فى حين لم تستطع النقابات المهنية اتباع هذا الموقف فى الأزمة .

وهو مايدفعنا للاقتراب أكثر من حركة النقابات المهنية فى مصر فى علاقاتها بالخطاب الرسمى إيان هذه الأزمة.

* * *

---

(١) السابق .

(٢) جاء هذا التأكيد على لسان رئيس اتحاد طلاب مصر، انظر: الشعب ٤ سبتمبر ١٩٩٠

(٣) يلاحظ من نتائج انتخابات العام الدراسى ٨٧ / ١٩٨٨ - على سبيل المثال - أن الجماعة الإسلامية فازت بمعظم مقاعد غالبية الجماعات والاتجاهات الأيديولوجية فى الجامعة ، وقد كان لهم تأييد ملحوظ لمواقف نوادى هيئات التدريس فى شتى الجامعات .

٢ ـ النقابات المهنية :

سوف يكون علينا أن نتعرف على مواقف النقابات المهنية عبر التصورات الفعلية التى عبروا عنها فى أنماط متباينة: الموقف المعارض والموقف المؤيد والموقف المتردد ثم الموقف المهادن أو المحافظ.

تجىء نقابات الأطباء والصيادلة والمهندسين فى أول النقابات التى اتخذت موقف المعارضة، فماكاد يبدأ الغزو العراقى على الكويت حتى بادرت هذه النقابات باتخاذ مواقف فردية ومالبثت أن تحولت إلى مواقف جماعية.

لقد اجتمع مجلس نقابة الصيادلة وطالب العراق بإعادة النظر فيما تفعل مؤثراً أن تكون لهجة البيان هادئة حتى لايتسبب ذلك «فى الإضرار بالمصريين المقيمين بالعراق»[1]، وتفاوتت مواقف بقية النقابات بشكل فردى كنقابة الأطباء والصحفيين والاجتماعيين، وهذا التفاوت وصل إلى أقصاه بالإدانة المباشرة للعراق أو بالإدانة برفق لاعتبارات سياسية واقتصادية[2].

ومالبث أن استبدلت بالمواقف الفردية مواقف جماعية شارك فيها عدد كبير من النقابات، وقد كان أول هذه المواقف اجتماع ممثلى عشرة نقابات مهنية: المعلمين، التجاريين، أطباء الأسنان، المحامين، الأطباء البيطريين، الفنانين التشكيليين، الأطباء البشريين، الصيادلة، الاجتماعيين، المهندسين. و كان هذا الاجتماع فى نفس شهر الغزو العراقى – ١٥ أغسطس – وتدارسوا الموقف خلال ممثليهم، وأصدروا أول بياناتهم، وكان أول ماتضمنه:

١ – إدانة الغزو العراقى للكويت ومطالبته بالانسحاب إلى حدود ماقبل أغسطس سنة ١٩٩٠ .
٢ – رفض إرسال قوات عربية تحت المظلة الأمريكية .
٣ – إدانة ورفض التدخل الأجنبى الأمريكى والغربى فى الخليج .
٤ – المطالبة بتشكيل قوة عربية إسلامية تابعة لمجلس الجامعة العربية للإشراف على انسحاب القوات الأمريكية والغربية من السعودية وانسحاب القوات العراقية من الكويت .
٥ – التأكيد على ضرورة مشاركة المؤسسات الشعبية.

---

(١) بيان اجتماع نقابة الصيادلة ٣ / ٨/ ١٩٩٠

(٢) بيانات نقابات: الأطباء فى ٣ / ٨ / ١٩٩٠ والاجتماعيين ٢٩ / ٨، وكذلك ندوة نقابة المحامين : أهرام ١٢ سبتمبر ١٩٩٠ والصحافيين ٢ أغسطس ١٩٩٠

إلى جانب أن البيان ناشد العرب والمسلمين بعدم إيداع أموالهم فى بنوك الغرب الذى يسيطر عليه اللوبى الصهيونى وسحبها منها وايداع واستثمار هذه الأموال فى مشاريع التنمية بالدول العربية والإسلامية[1]

ومن الملاحظات الهامة فى ذلك البيان، أنه شدد على حل عربى بعيداً عن التدخل الأجنبى مما يسجل له وعياً فائقاً بخطورة التدخلات الأجنبية مع الدعوة إلى اتخاذ موقف سياسى عربى موحد[2] لئلا تمضى الأحداث ضد الإرادة الإسلامية.

وطيلة هذه الفترة التى تبدأ من الغزو العراقى فى٢ أغسطس وتصل إلى الغزو الغربى بقيادة الولايات المتحدة فى ١٥ يناير من العام التالى، فإن موقف هذه النقابات بشكل فردى أو بشكل جماعى لم يجاوز هذه المواقف على وجه التقريب، إذ صدر عن ممثلى النقابات المهنية، فيما بعد، أكثر من بيان يحث على الانسحاب المشروط والمتزامن للقوات العراقية والأجنبية[3]، والحث على الإسراع بالتدخل العربى قبل أن يستفحل التدخل الغربى فى المنطقة العربية، وحين فشلت المباحثات الدائرة بين وزيرى خارجية كل من أمريكا والعراق فى جنيف، دعا الأطباء إلى الإجتماع فى نقابتهم، وراحوا يرددون ماسبق وأن أكدوه فى أكثر من بيان وفى لهجة أكثر عنفا[4].

وهو ماتبعه العديد من النقابات بشكل فردى أيضاً .

على أنه ماكادت الحرب تكشر عن أنيابها وتظهر نيات الغرب فى تدمير المنطقة العربية حتى عادت البيانات الجماعية ثانية، غير أنه فى هذه المرة، كان النظام السائد قد ضاق ذرعاً بذلك، وبدأ تحركه فى الاتجاه المضاد، وهو ماأثر فى محاضر اجتماعات هذه النقابات ونال من وحدتهم فى تنسيق نقابى فريد، إذا أسرع هذا النظام إلى إجراء ضغوط

---

(١) و (٢) بيان محضر اجتماع النقابات المهنية فى ١٥/ ٨/ ١٩٩٠ وقد تم اجتماع ممثلى النقابات المهنية بمقر نقابة المهندسين المصرية.

(٣) البيان التالى الذى صدر عن التجمع النقابى صدر من مكتب الأمين العام لنقابة المهندسين، بدون.

(٤) بيان نقابة الأطباء فى ١١/ ١/ ١٩٩١ ونقرأ فى البند الأول فيه:

" ١ - الإدانة الكاملة للغزو العراقى للكويت الشقيق ومطالبته بانسحاب القوات العراقية من الكويت فى إطار حل عربى وإسلامى سلمياً يحقق العدل والإنصاف، والانسحاب للقوات الأجنبية التى جاءت لتأمين مصالحها فى المقام الأول ولايهمها مصلحة الأمة العربية بحال"

كذلك لم يفت البيان رفضه للمشاركة المصرية فى هذه الحرب .

حادة على عديد من النقابات سواء من جانب النقباء أو القادة السياسيين من الحزب الوطنى ، وتدخل رئيس الوزراء بنفسه حين تم اجتماع مع ممثلى هذه النقابات مما أثر بشكل مريع فى بيانهم التالى ولمّا يمض أسبوع واحد على بدء الهجوم الغربى على العراق.

لقد صدر أول بيان عقب الغزو العراقى فى ٢٠ يناير، وكان أول مايلفت النظر فيه غياب عدد كبير من ممثلى النقابات التى شاركت فى التجمع السابق، وهو مايبدو فى ذلك البيان، ففى حين وقع على البيان الأول عشر نقابات لم يتبق منها فى البيان التالى غير سبعة نقابات فقط: المهندسين، الأطباء، الصيادلة، الأطباء البيطريين، المحامين، أطباء الأسنان. فانسحب منها نقابات: التجاريين، العلميين، الاجتماعيين، الفنانين التشكيليين، وقد أضيف إلى هذا البيان نقابة التمريض.

ويلاحظ أن هذا البيان الأخير جاء خلواً من النقابات المؤيدة للنظام (المعلمين، الزراعيين)، والمترددة (العلميين، التجاريين، الاجتماعيين،. ..إلى غير ذلك) ولم يجد الفعل المهادن أو المتحفظ طريقه (الصحفيين)، ومن هنا يمكن اعتبار هذا البيان أنقى تعبير لجماعات المصالح فى هذه الأزمة، فرغم إنه كان يعد امتداداً للبيان الأول، فإنه جاء أكثر حدة فى موقفه العام، أن ديباجته الأولى تنفرد بهذه السطور الثلاثة :

(لا لاحتلال الكويت)
(لا للحرب فى الخليج)
(لا لتدمير قدرات العراق)

وهو مايستوجب منا التمهل أكثر عند بنوده..

إن البنود الأول والثانى والرابع والسادس ترفض العدوان الأمريكى وتطالب بالوقف الفورى للقصف الجوى على العراق وإدانة للمخطط الأمريكى والصهيونى وعدم السماح بقواعد أجنبية على الأرض العربية الإسلامية(١).

---

(١) *بيان ممثلى النقابات المهنية بمصر،* ٢٠ / ١/ ١٩٩١ *(الوثيقة ١١)* .

كذلك، تضمن البند الثالث، تحميل الملوك والرؤساء العرب المسئولية التاريخية وعلى الأخص المشاركين فى العدوان ضد العراق، فى حين ركز فى البند السابع على «رفض اشتراك القوات المصرية فى أية أعمال عدائية ضد العراق والالتزام بالدفاع عن المقدسات الاسلامية»[١]، وطرحت البنود الأخيرة حقيقة أن حل الأزمة لايكون إلا فى إطار عربى إسلامى مع التضامن مع كل الشعوب التى عبرت عن رفضها لهذا العدوان، كذلك نجد فى البند التاسع إشارة إلى موقف النظام المناقض للتوجه العربى الإسلامى والتأثير فى الإنسان المصرى، إذ جاء فيه «إدانة أسلوب الإعلام المصرى فى تهييج المشاعر ضد شعب العراق وعدم الالتزام بالحيدة فى نقل الحقائق والمعلومات عن التدمير البشع الذى يتعرض له الشعب العراقى»[٢].

وهنا، يمكن أن نتمهل أكثر عند علاقة النظام بهذه النقابات ، لنرى، كيف تحدد الخطاب المناهض للتيار الرسمى:

– إن الموقف المعارض نشأ – فى الغالب – من الخطاب الإسلامى المعارض الذى عبرت عنه هذه النقابات، وهو موقف كان يعكس تخوف النظام منه، وهو ماظهر فى تحرك النظام لإحداث الضغوط على هذه النقابات مما تقلصت معه إلى نقابات أقل فى العدد.

– يلاحظ أنه فى حين كان رد الفعل ضد الموقف الغربى أو المصرى عنيفا، فإن هذه النقابات لم تتخذ موقفاً حركياً عنيفاً من مظاهرات أو اعتصامات.. إلى غير ذلك.

– حاولت هذه النقابات التعبير عن رأيها بنشر بياناتها فى الصحف دون جدوى، إلى درجة محاولة نشر البيان الثانى كإعلان مدفوع بالصحف مما أغضب النظام.

– مايلاحظ من الانتقال من الموقف الصليبى ضد الإسلام إلى تعاون النظم العربية مع النظم الغربية إلى درجة تعاونها مع العدو الصهيونى الذى سعى إلى أية تحالفات لضرب الوجود العربى الإسلامى، وكذلك إدانة «المخطط الامريكى – الصهيونى صراحة».

وقد كان من شأن هذه المواقف المعارضة للنظام، والمهاجمة، بالتبعية، للغزو الغربى، أن تحرك النظام السائد ضدها، وهو ما تمثل فى ممارسة أجهزة النظام لوناً من الإرهاب ضد أولئك الأعضاء ، إذ تم استدعاء معظم قيادات هذه النخبة من ممثلى التيار الإسلامى للقاء

---

(١) *السابق* .

(٢) *السابق* .

أمين الحزب الوطنى، واتهموا هناك بالخيانة، بل حدث أن اعتقل عشرات منهم كانوا فى الوقت نفسه ضمن جماعة الإخوان المسلمين[(١)]

وقد جاء رد فعل نقابة الأطباء أول الأمر عنيفاً فى إدانة ذلك الإرهاب، وراحت إحدى بياناتها التالية تعلن « أن استمرار أجهزة الدولة وبالذات أجهزة الأمن فى هذا الأسلوب الإرهابى من معالجة المخالفين للحكومة، مما يخالف كل الأعراف الدستورية والإنسانية، فضلاً عن ممارسة الديكتاتورية لتعطل النقابات عن ممارسة دورها فى التعبير عن أعضائها بالطريقة الديموقراطية »[(٢)]

وقد استمر مسلسل العنف ضد هذه النقابات بحيث إننا لم نعرف بعد ذلك من هذه البيانات وردود أفعالها غير الدعوة الهادئة إلى وقف الحرب أو النداء للمشاركة الطيبة فى مجال الإغاثة الطبية .. وما إلى ذلك[(٣)]

الأكثر من هذا أن تحرك النظام كان من نتائجه ردود الأفعال المغايرة للفعل الأول؛ أى، تغيير المواقف داخل هذه المعارضة وبإيعاز من النظام نفسه، إذ « بدأ تحرك نقباء وممثلى مجالس النقابات المهنية فى اتجاه مخالف لهذه المجالس حين أعلنوا من خلال وسائل الإعلام تأييدهم الكامل لخطوات القيادة السياسية العليا وأسلوب الدولة فى إدارة الأزمة »[(٤)]، فضلاً عن الانشقاقات التى حدثت فى النقابات ممّا أسهم فى تراجع دور النقابات المعارضة للنظام فى حين لم يبق فى الساحة غير بعض النقابات التى اتخذت مواقف تقترب من موقف الدولة.

وتقف نقابتا المعلمين والزراعيين فى مصاف النقابات التى اتخذت موقفا مؤيداً للخطاب الرسمى (=النظام)، وهو مايعود إلى ارتباطهما بهذا النظام، إذ إن الخطاب الرسمى يمثل «قيداً على القوى الضاغطة لهذه الجماعات».

وهذه العلاقة بين النظام وهاتين النقابتين تفسر على النحو التالى:[(٥)]

---

(١) أمانى قنديل، ندوة مركز البحوث والدراسات، السابق ص١٢، ٢٤

(٢) بيان ٢٢/ ١/ ١٩٩١

(٣) وثيقة رقم (٣) - الملحق

والجدير بالذكر أنه صدر بعد ذلك عدة بيانات بهذا المعنى، جاءت فى أغلبها نداءات إما لإنقاذ الجرحى وإما الدعوة للاهتمام بالمصريين المقيمين فى دائرة الحرب.

(٤) أمانى قنديل، السابق ص ٢٤

(٥) السابق ص ١٥، وترسم لنا رؤية نقابة التجاريين ورقة (النقابات والمجتمع)، بدون تاريخ.. هذه العلاقة بشكل أكثر دقة اذ نقرأ ص ١٠:

١ – تدار النقابة المهنية كجزء من بيروقراطية وزارة الزراعة فى حالة نقابة الزراعيين، وكجزء من بيروقراطية وزارة التعليم فى حالة المعلمين.

٢ – يشغل منصب النقيب، وبصفة دائماً، أحد رموز السلطة والحكم فى مصر.

٣ – تغيب أية تيارات سياسية إسلامية أو غيرها، عن ساحة العمل النقابى

٤ – العلاقة بين السلطة والجماعة المهنية، فى كل من الحالتين، لم تشهد أية صراعات أو مصادمات خلال العقدين الماضيين.

٥ – يرتبط بالملمح السابق محدودية أو غياب اهتمام نقابة الزراعيين ونقابة المعلمين بأية قضايا قومية، وتركز الاهتمام فى العمل النقابى بالمعنى المهنى المحدود.

٦ – تثير كل من النقابتين مطالب مهنية تتوقف بالأساس على قرار الدولة، وبالتالى فإن التوجه العام هو الاحتفاظ بعلاقة ودية بين الطرفين وعدم إثارة أية مشكلات، قد تفوق من وجهة نظر مجالس النقابات تحقيق جانب من مطالب الجماعة.

وعلى هذا النحو، يمكن تفسير موقف هاتين النقابتين فى تأييد الخطاب الرسمى تأييداً خالصاً وهو مايبدو فى بيانين أحدهما فى ٥/ ٨ والآخر فى ١٤/ ٨ أكدت فيهما نقابة المعلمين ان الغزو العراقى يهدد التضامن العربى وأن غزو العراق للكويت يترتب عليه سفك الدماء وإزهاق الأرواح، ومن ثم، برزت الحجة التى برروا بها موقفهم ووقوفهم وراء القيادة المصرية.

ومن المهم أن نشير الى مانقلته د. أمانى قنديل نقلاً عن أحد القيادات المهنية من أن نقابة الزراعيين لم تخرج هى الأخرى عن معالم هذا الطريق، بل أضافت إليه، بأن أرسلت الدعوة الموجهة لها من لجنة تنسيق العمل النقابى إلى د. يوسف والى باعتباره أميناً للحزب الوطنى لكى يتخذ إجراءات أمنية وسياسة مضادة لموقف التجمع النقابى.[1]

وهو مايفسر كيف أن هاتين النقابتين لم تشاركا فى التجمع النقابى، بل على العكس، سعت بعض الكوادر فيها إلى تأييد النظام لدرجة استعدائه على زملائهم فى النقابات الأخرى.

= "- *وفى عام ١٩٧٢ صدر القانون رقم ٤٠ لسنة ١٧٢ بإنشاء نقابة التجاريين. والعجيب أنه رغم تتابع التغييرات السياسية فى البلاد منذ إنشاء النقابة إلا أن قانونها استمر مدة طويلة يشترط العضوية العاملة فى الاتحاد الاشتراكى العربى. وقد نشأت النقابة تابعة لوزير المالية الذى فوضه القانون إصدار اللائحة التنفيذية للنقابة ونظام العمل بها* ".

(١) *أمانى قنديل، السابق ص ١٦*

وإرسال مثل هذه الدعوة للسلطة المركزية إنما يشير إلى خلل لدى بعض النقابات المهنية فى فهم الوعى الديموقراطى، بما يؤكد على أنه ليس النظام فقط هو الذى سعى للخروج على اللعبة الديموقراطية، وإنما وجد من بعض النقابات ماجعله يهتبل الفرصة ليهرول إلى اقتناصها.

وبين هذين الخطابين: المتمرد والمؤيد ثمة خطاب ثالث يتمثل فى الخطاب المتردد يمكن أن نجد خير أمثلة له فى نقابتى المحامين والتجاريين.

وقد تعرضت نقابة المحامين فى الفترة التى سبقت أزمة الخليج إلى صراع حاد حول بعض القضايا، فضلاً عن ضعف مؤسسى ووظيفى فيها مما تبلور فى خلاف تحول إلى انشقاق فى الجمعية العمومية فأثر فى «الكشف عن انعدام دور للنقابة فى التأثير على مدخلات النظام»[1].

والحاصل إننا نستطيع أن نلحظ ذلك التردد فى أكثر من موقف بين أعضاء النقابة، ففى حين كان مجلس النقابة يتخذ اتجاها رسمياً بحتاً، بدا أن أبرز المحامين فيه يتخذون خطاً معارضاً .

وهذا التردد والتمرد نجدهما منذ بدء اشتراك نقابة المحامين فى لجنة التنسيق بين النقابات المهنية، إذ أشار أحد أعضاء النقابة إلى أنه كان هناك ميل واضح من جانب بعض أعضاء مجلس النقابة للامتناع عن المشاركة فى لجنة التنسيق (ربما خوفاً من الاتجاه الإسلامى فى هذه اللجنة)، غير أنه بعد مناقشات مستفيضة تغلبت وجهة النظر التى ترى أهمية المشاركة وخطورة ترك ساحة العمل النقابى خالية ليقودها تيار سياسى واحد[2].

ومهما يكن، فقد ظل تيار المعارضة – رغم ندرة عدد أعضائه –[3] يتخذ الموقف المعارض للنظام السائد والمناقض لأعضاء مجلس النقابة الآخرين الذى آثر – هذا المجلس – الموقف الرسمى.

---

(١) التقرير الاستراتيجى العربى لجريدة الأهرام ١٩٨٩ ص ٤٦٥

(٢) أمانى قنديل، السابق ص ١٦، أيضاً ٢٩ وهامش ١٩، نقلاً عن تهانى الجبالى عضو مجلس نقابة الصحفيين وممثل النقابة فى لجنة تنسيق العمل النقابى كما جاء فى هذه الدراسة.

(٣) هذا التيار ضم – ضمن ماضم – د. جلال حرب وسامح عاشور وتهانى الجبالى وممدوح تمام.. وغيرهم ممن مثلوا الأقلية المعارضة فى النقابة.

وعدا البيان الأول الذى صدر عن النقابة - ٤ أغسطس - والذى دعا العراق إلى وقف إطلاق النار فوراً وسحب قواته من الأرض الكويتية.. وما إلى ذلك[١]، فقد بدا أن عدداً كبيراً من المحامين يلقون مياهاً كثيرة فى طاحونة النظام، ومصداق ذلك أنه فى حين يتم اجتماع موسع، يتبادل فيه الجميع شتى الآراء فإنه - فى نهاية الأمر - لايتمخض عن رأى موحد يمكن أن يصاغ فى بيان، كما لايحفل أحد بتسجيل الآراء فى محفظة أو مضبطة رسمية، بل على العكس، لوحظ أن بعض المحامين كان يتعجل الظهور فى بعض برامج التليفزيون ويتخذ سمت المدافع عن الكويت ووجهة نظر (الخطاب الرسمى) مباهياً بذلك[٢].

وفى الوقت نفسه، فإن القلة التى تتخذ موقفاً معارضاً للنظام داخل المجلس لم تتورع عن إبداء رأيها فى أى محفل أو ندوة، ويمكن تلخيص وجهة النظر هذه على النحو التالى:

١ - إدانة الموقف العراقى فى غزوه الكويت

٢ - عدم تحبيذ إرسال أى قوات مصرية إلى المملكة العربية السعودية

٣ - محاولة أثناء القيادة المصرية عن إشراك القوات المصرية فى الحرب فى الكويت.

٤ - ادانة كل شكل من أشكال تطابق السياسة المصرية مع السياسة الأمريكية فيما يتعلق بالسعى إلى إسقاط صدام حسين قبل رفع الحصار عن العراق وشعب العراق وخطأ السياسة القائلة بأن الشعب العراقى هو المسئول عن إسقاط صدام حسين ومن ثم فلا علاقة للشعب العراقى بإسقاط صدام لأن المؤثرين فى السياسة العالمية هم الأمريكان أنفسهم[٣].

أما الموقف الآخر المتردد - غير نقابة المحامين - يمثله نقابة التجاريين.

وهذا الموقف الأخير يعود إلى نشأة هذه النقابة وتباين انتماءاتها، إذ نشأت فى عام ١٩٧٢ بقانون حكومى ١٩٧٢/٤٠، وهو قانون - كما نقرأ فى البرنامج الانتخابى لمجموعة التجاريين الديموقراطيين - «استمر مدة طويلة يشترط العضوية العاملة فى الاتحاد الاشتراكى

(١) محضر نقاش مع د. جلال حرب أبرز أعضاء مجلس النقابة فى هيلتون رمسيس فى ٢١ يناير ١٩٩٢، أيضاً، انظر: جريدة الأهرام ٤ /٨/ ١٩٩٠.

(٢) محضر نقاش د. جلال حرب، السابق.

(٣) السابق.

العربى،[1] وهو الحزب الرسمى للدوله، كما كان يشوب هذا الموقف مما يسلب النقابة حريتها التداخل بين النقابة ووزارة المالية، كذلك ترأس إدارتها مسئولاً رسمياً دائماً كان آخر من تسلم هذه المسئولية د. حلمى نمر الذى كان مسئولاً بمجلس الشعب ثم أميناً عاماً لمجلس التعاون العربى[2]، وعلى ذلك، فمجرد أن صدر البيان المشترك الأول للنقابات ٨/١٥ – وقد كانت نقابة التجاريين مشتركة فيه – حتى دب الخلاف بين أعضائها بل ، واتهم ممثل نقابة التجاريين بالخروج على رغبة النقابة ، وقد وصل التردد إلى أقصاه فى هذا الاجتماع ، حين أيدت العناصر الناصرية والإسلامية داخل المجلس المبادئ والتوجهات العامة بهذا الاجتماع وعارضتها العناصر الحكومية ورموز الدولة داخل المجلس بالإضافة الى بعض المستقلين،[3]

وقد انتهى الأمر بانسحاب نقابة التجاريين من لجنة تنسيق العمل النقابى، وراحت من هذا الوقت تتخذ منحى رسمياً خالصاً.

ويبدو أن التردد فى اتخاذ هذا الموقف لايعود إلى تباين الأعضاء من ناصريين أو إسلاميين وحسب، وإنما يعود – فى المقام الأول – إلى الضغط الحكومى، والتلميح بتهديد المصالح المهنية لأعضاء النقابة.

وعلى هذا النحو، فما يقال عن نقابة التجاريين يقال بأشكال شتى عن نقابات أخرى مثل نقابات المعلمين والاجتماعيين والفنانين التشكيليين.. وغيرهم.

ويتبقى موقف أخير، هو الموقف المُهادن أو المحافظ مع الميل للمعارضة، وهو مايتغير عنه نقابة الصحافيين.

وقبل إن نصل إلى ملامح هذا الموقف ثمة ملاحظتان أساسيتان لابد من الإشارة إليهما يحددان موقف هذه النقابة فى ذلك الصدد.

الملاحظة الأولى أن أكثر ماأثر فى خطاب نقابة الصحافيين أنه انتمى إلى الخطاب الرسمى، ومن ثم، خضعت لسياسة الهيمنة على الصحافة لوضع هذا الجهاز الإعلامى الفريد

---

(١) رؤية التجاريين، السابق ص ١٠.

(٢) وهذا الموقف الغريب لنقيب التجاريين هو الذى شهد – فى الفترة السابقة للغزو العراقى مباشرة – تساؤل الجميع داخل النقابة "كيف يستطيع النقيب تسيير شؤون النقابة اليومية وهو متواجد خارج البلاد؟ وهل سيزيد دور هيئة المكتب فى العمل اليوم أم.." إلى آخر هذه الاسئلة التى كانت تنم عن الدور الرسمى الذى كان يلعبه النقيب وهودور يضاف إلى رصيد النظام وليس أعضاء النقابة وهموم العمل النقابى.. (انظر الرؤية السابقة ص ١١)

(٣) أمانى قنديل، السابق ص ١٧

فى خريطة السلطة السياسة، وهو مايفسر - كذلك - فى ضوء فترة الاستعدادات لانتخابات التجديد النصفى لمجلس نقابة الصحفيين، وحرص النقيب على النجاح فى هذه الانتخابات، مما انعكس على موقف النقابة.(١)

كما يلاحظ أيضاً - فى هذا السياق - خشية الوقوع فى براثن الإسلاميين الذين كانوا يسيطرون على ساحة العمل النقابى في بقية النقابات الأخرى مما نشأ عنه عدم المشاركة فى التجمع النقابى(٢)، فالخط الإسلامى كان منافياً - بالتبعية - لخط الدولة مناهضاً له خاصة فى الفترة الأخيرة من الأزمة.

وهذا يرتبط بالملاحظة الثانية، فإن مراجعة أسماء مجلس النقابة يرينا - عدا الرئيس ذو التوجه الحكومى - أنه فى حين يسيطر على اتجاه فيه عناصر يسارية وناصرية، فإن الاتجاه الاخر لاينتمى لاتجاه أيديولوچى معين، وإنما يدين فى توجهه الأساسى إلى تحقيق مكاسب مادية للصحفيين دون الاهتمام جدياً بما يجرى، مما يحول بين الإسلاميين - وهم يمثلون اتجاهاً ضئيلاً جداً - وبين لعب أى دور حيوى داخل النقابة أو داخل مجلسها ممايؤثر فى عدم خضوع النقابة لتأثير إسلامى، وعلى هذا النحو، ففى حين يخشى اتجاه السير فى اتجاه مناقض للنظام يحجم اتجاه آخر عن فعل ذلك تحاشيا ان يلعب التيار الاسلامى - وهو أيضا مناهض للنظام - دوراً فى توجه اهتمامات النقابة.

وباختصار، فإن موقف نقابة الصحفيين اتخذ منحى مستقلا عن التجمع، بما يقترب به من الخط الرسمى وإن بدا معارضاً له فى بعض الأحيان(٣)

ومراجعة البيانات التى صدرت عن النقابة إبان الأزمة والندوات التى عقدت، على قلتها، تشير إلى موقفين اثنين وتوجه رئيسى برز فى الفترة الأخيرة من هذه الأزمة.

---

(١) أمانى قنديل، السابق ص ١٧

(٢) يذهب محمد عبد القدوس - فى لقاء معى - وهو من ألمع أعضاء مجلس النقابة فى الاتجاه الإسلامى، كما أنه مسئول عن لجنة (الحريات) - .. إن عدم مشاركة النقابة للتجمع النقابى يعود إلى سببين (أولاً) عدم بلورة موقف محدد وفى الوقت نفسه لئلا يفهم الاشتراك فى هذا التجمع تعاطفا مع الاتجاه الإسلامى فيه و (ثانيًا) عدم اللجوء إلى معارضة النظام (لقاء ١٩٩١/٢/٢٤) وفى الحالتين كان استقلال النقابة أكثر مايلفت الانتباه حينئذ .

(٣) يتكون مجلس النقابة - فضلاً عن النقيب ذى الانتماء الحكومى الخالص - من كل من جلال عيسى (حزب وطنى) وأمينة شفيق وصلاح عيسى (يسار) وكل من محمد عبد القدوس ومحمد حسن البنا (إسلامى) فى حين تتباين مواقف الآخرين دون اتجاه محدد اللهم إلا الهموم المهنية من أمثال سناء البيسى وأسامة سرايا وغيرهما مما يفيد فى تمرير أى بيان يراد وليس بالإجماع .

أما الموقفان الرئيسيان فهما يتمثلان فى الرفض الكامل للغزو العراقى والتدخل الغربى، فمجلس نقابة الصحفيين يعلن فى نفس يوم الغزو إدانته للغزو العراقى المفاجئ لدولة الكويت الشقيقة[1]، مسهباً حول آثار هذا الغزو الذى يشكل «إنتهاكاً صريحاً لسيادة دولة عربية وانتهاكاً للمواثيق وتحويل الأنظار عن القضية الديموقراطية وقضية فلسطين، فى حين أن البيان التالى يضيف إلى إدانة دعوة الأطراف العربية للتوصل الى حل عربى « يضمن انسحاب القوات العراقية ، ويوقف التدخل الأجنبى ويؤدى إلى انسحاب كل القوات العسكرية الاجنبية »[2]، وهذا الموقف سوف يتكرر فى عديد من الندوات التى عقدت بالنقابة، كما يشتد أكثر ابان الغزو الأمريكى للأرض العربية، إذ إنه بعد نشوب الحرب تتخذ لهجة النقابة أسلوباً شاملاً فى حل الأزمة، ففى اليوم السادس من الحرب يشير بيان النقابة إلى ضرورة حل الأزمة بتسوية تحقق السلام الشامل العادل.. وما إلى ذلك ممايشير إلى أن نتيجة الحرب لم يكن قد توصل إليها أحد بعد .

غير أن هذا الموقف تغير كثيراً فما كدنا نصل إلى اليوم الثالث عشر من الحرب ، حتى بدا واضحاً أن تدمير قوات الحلفاء للعراق وصل إلى أقصاه مع وصول عدد الطلعات فى اليوم الواحد – يوم ٢٩ يناير – إلى قرابة ثلاثة آلاف طلعة على المنشآت العراقية المدنية منها والعسكرية، وحينئذ يبدو التوتر والغضب فى النقابة ظاهراً، وخاصة، لدى التيار الإسلامى الضئيل، إذ ينظم اعتصام ضخم يشارك فيه أكثر من مئتين من أعضاء النقابة ومجلسها[3]، وخاصة، أنه لوحظ أن الخط السياسى للنظام أسهم كثيراً فى التعتيم العام الذى عاشت فيه الجماهير وخاصة بإعلامه الضخم.

وقد شكل هذا الاعتصام اعتراضاً صريحاً على موقف النظام المصرى، ولم يهتم بالتوجه الحكومى البارز فى النقابة ، وهو ماكشف عن عمق التيار الشعبى وعبر عنه إبان أزمة العراق لاسيما وأن هذا الوقت كان يشهد مظاهرات طلابية ضخمة تخرج من جامعة القاهرة، وردود أفعال كثيرة من أعضاء هيئات التدريس المنشقين عن الأحزاب المنتمين إليها ، وخاصة د. نعمان جمعة عميد كلية الحقوق الذى لعب دوراً كبيراً فى هذه المظاهرات.

---

(١) *بيان مجلس نقابة الصحفيين المصريين ٢ أغسطس ١٩٩٠*

(٢) *بيان ١٤ أغسطس (ملحق ١٣)، أيضاً يمكن الإشارة إلى الندوة التى عقدت بنقابة الصحفيين فى ١٧ سبتمبر ١٩٩٠، أيضا: انظر إلى بيان النقابة فى ٢٢ يناير ١٩٩١ (ملحق ١٤)*

(٣) *يشير محمد عبد القدوس أنه شارك فى الاعتصام هذا العدد – مائتين – رغم أن فاعلية التيار الإسلامى لم ترد على خمسين شخصاً مما يشير إلى الاشتراك الكبير للصحفيين المعتصمين (لقاء سابق) .*

ورغم أن الاعتصام النقابى تم تحت شعار (وقف الحرب والانسحاب المتزامن)، فقد كان أهم ماحرص أن يسجله فى نهاية الاحتجاج الرمزى حقيقة ، أن قوات التحالف الدولى الغربى قد تسترت بشعار تحرير الكويت بهدف تدمير عناصر القوة فى الموقف العربى وفرض هيمنتها الكاملة على المنطقة، وتمكين إسرائيل من البقاء كقوة نووية وحيدة فى المنطقة.. كما يلاحظ المعتصمون أن هذه القوات لم تتحرك لتنفيذ قرارات المجتمع الدولى فى أمور ليست أقل جدارة منها الاحتلال الإسرائيلى للضفة والقطاع والجولان وجنوب لبنان وحقوق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره، بل على العكس.. »[1].

بَيْدَ أن المهم فى هذا البيان، أنه ، وإن سجل اعتراضه على هجوم الحلفاء وكشف نياتهم، فإن الأكثر أهمية – فيما نرى – كان يعود إلى لوم النظام المصرى ممثلاً فى أجهزة الإعلام فيه التى ، حجبت عن الرأى قوة الحركة المعارضة للحرب فى كل دول العالم،[2].

وعلى هذا لم يستطع المعتصمون أن يتخفوا وراء المهادنة أو التحفظ فى التعبير عن الموقف الحقيقى للنقابة.

وهذا الموقف من النظام لم يترجمه الشكل العام للاعتصام أو البيان الذى صدر عن المعتصمين وحسب، وإنما يترجمه – كذلك – ماأعلن عنه بشكل عريض من الصحفيين فى الندوة الكبيرة التى عقدت بالنقابة من التصريح بعدم الموافقة على إرسال قوات مصرية خارج الحدود.

وعلى هذا النحو يكون قد تبلور، أكثر، التوجه الذى عبرت عنه النقابة فى الفترة الأخيرة من الحرب، وهو الذى بدا أكثر معارضة للنظام فيما سبق، وهو توجه لم يستطع أن يعبر عن نفسه صراحة فى البيانات التى تصدر عن النقابة، لكنه لم يستطع أن يتخفى أكثر فى مثل هذا الاعتصام أو تلك الندوة أو خلال (لجنة الحريات) التى انبثقت عن مجلس النقابة ولعبت دوراً نشطا وإن أريد لها أن يكون محدوداً فى بعض الأحيان إذ كان قد دار فيها الصراع التقليدى: المؤيد للدولة والمناهض لها .

لقد بدا أن الاتجاه المعارض هو اتجاه غير رسمى، يمثله جموع الصحفيين – فى بيان الاعتصام ولوم أجهزة الإعلام وغضب صحف المعارضة –كما يعبر عنه بشكل أكثر خفوتاً

---

(١) بيان النقابة ٢٩ يناير *(انظر ملحق ١٥)*

(٢) *السابق* .

داخل النقابة وخاصة فى الدعوات المتواصلة لحماية المصريين فى الأردن والدعوة إلى حمايتهم[١]، ومناشدة كافة المنظمات الديموقراطية والشعبية لوقف الحرب[٢] والإشارة إلى رفض أى تقسيم يفرض على المنطقة من الخارج أو يمس وحدة أراضى المنطقة العربية وشعوبها[٣].

وليس من قبيل المصادفة أن يشارك فى رفض التدخل الأجنبى وفهم النيات الحقيقة لقوات الحلفاء عدد كبير من جماعات المصالح المثقفة المعبرة عن النبض الشعبى؛ ففى حين وجدنا هذا الاعتصام فى نقابة الصحفيين لم نعدم - فى الوقت نفسه - إصدار بيان مشترك من النقابات المهنية واتحادات الطلاب ينادى بضرورة رفض تدفق القوات الأمريكية الغربية عبر قناة السويس إلى الخليج وينتقد قرار الرئيس مبارك بإرسال قوات مصرية إلى السعودية بدون موافقة المؤسسات الدستورية[٤].

وباختصار، كان ثمة رافد فى النقابة يسعى كى يبدو معارضاً، وإن كان المجرى العريض يسعى للحفاظ على صفة المهادنة للنظام أو التحفظ لئلا يبدو أقرب إلى التجمع النقابى.

وعلى أية حال، يمكن تفسير (الخطاب) النقابى على هذا النحو:

١ - إن نشأة بعض النقابات تحت رعاية الدولة السياسية أو البيروقراطية أسهم فى انتفاء الوعى وحدوث الانشقاق مما حال دون توحيد (خطاب) متجانس للنقابات المهنية.

أضف إلى هذا أن محدودية هامش الحرية والممارسة السياسية للنقابات يظل إحدى النتائج الأولى لمحدودية التعددية الحزبية والموقف من الحريات التى اتسم به موقف الدولة.

٢ - تربع على قيادة النقابات رموز رسمية - حكومية - مّما حال بين مجلس النقابة وبين اتخاذ قرارات حرة من الأزمة، وهو مانجده - خاصة - لدى نقابتى الصحافيين والتجاريين.

---

(١) بيان *النقابة* ٥ سبتمبر ١٩٩٠

(٢) بيان *النقابة* ٢٢ يناير ١٩٩١

(٣) بيان *النقابة* ١ *مارس* ١٩٩١

(٤) *التقرير الاستراتيجى العربى* ١٩٩٠، *القاهرة* ١٩٩١ *ص* ٤٥٤ *أيضًا انظر الشعب* ٤ *سبتمبر* ١٩٩٠ *وخاصة رأى رئيس اتحاد طلاب الجمهورية فى هذا الصدد* .

٣ - ارتبط معارضة التجمع النقابى للنظام - فى الغالب - بالتيار الإسلامى (فى المثلث النقابى: الأطباء، المهندسين، الصيادلة)، أو بالتيار الأكثر وعياً وإن يكن أقل جسارة (نقابتى المحامين والصحفيين) أو بافتقاد الوعى (الممكن) لدى النقابات الأخرى (كالمعلمين والزراعيين والتجاريين ..الخ) ..

وفى جميع الحالات كان التعبير الديموقراطى الرسمى لايعبر عن نفسه كما يجب.

٤ - إحجام بعض النقابات عن المشاركة فى موقف مناهض يعود إلى التخوف من النظام، وهو تخوف سائد من النظرة (البطريركية) التى مازالت تسيطر على المجتمع العربى وبوجه خاص من (المركزية) فى مصر والعلاقة الوثيقة بين النخبة الثقافية والنخبة السياسية فى وادى النيل .

وفى ضوء ذلك تبرز المصالح المهنية على أنها خاضعة لآليات الفرص المتاحة للنقابات من الدولة، وهو مادفع البعض أثناء أزمة الخليج ليصرح ، بأن مصالح أعضاء النقابة لها الأولوية وأن أى مواقف معارضة لتوجهات الدولة من شأنها التأثير سلبًا على هذه المصالح ،[1]

٥ - وبدْهى أن هذه السلطة المركزية - الهيمنة - كانت وراء تراجع عدد ليس بالقليل من النقابات المهنية عن مواقفها المناهضة للدولة، فتراجع البعض، ورفض البعض المشاركة فى ماتم الاتفاق عليه.

وقد كانت آليات السلطة من الفاعلية خاصة أن النقابات افتقدت تحالفات بينها وبين بعض الأحزاب السياسية ، أو بينها وبين بعض جماعات المصالح الحكومية مماحال دون التماسك.

ورغم أن بعض الجماعات الفرعية أو الإقليمية لم تخضع لآليات السلطة، فإن ضعفها الوظيفى لم يمكنها من لعب دور بديل لدور الجماعات المثقفة الأخرى[2] .

---

(١) أمانى قنديل، السابق ص ١٨

(٢) من أمثال هذه اللجان أو الجماعات الفردية مؤتمر المحامين الثانى الذى عقد فى الإسكندرية فى أغسطس ولم تؤثر قراراته الإيجابية فى صانع القرار السياسى، أيضًا، محامى الإسماعيلية الذين كانوا قد أرسلوا برقية واعية وعنيفة إلى النقابة المركزية فى يناير ١٩٩١ دون رد فعل .

٦ - على أن آليات الدولة وهيمنتها لم تكن وحدها الحاسمة فى هذا الموقف، فمن الملاحظ أن افتقاد بعض هذه الجماعات لدرجة من الدرجات السياسية أو الاجتماعية والنظر للأمور من وجهة نظر قومية، مما أسهم فى هذا التراجع، وهو ماأشير إليه أكثر من مرة أثناء الأزمة ، إذ ذكر الأمين العام لنقابة الأطباء أن الإضراب أو الاعتصام يمكن أن يدفع الدولة إلى تكثيف ضغطها على النقابات دون أن يكون للوعى النقابى حرية إبداء الرأى أو التأثير.

٧ - ولايمكن فى هذا الصدد إغفال اختفاء هذا النمط المثقف/ القدوة، الذى يستطيع بما اكتسبه من تأمين نقابى شعبى وخبرة سياسية أن يلعب دوراً فعالاً فى الأزمة.

هذا، وغيره أثر كثيراً فى (خطاب) جماعات المصالح، وحال دون ممارستها لدور فعال، خاصة، فى غياب الديموقراطية.

قضايا جماعات المصالح المثقفة :

(١) الديموقراطية

كان من أهم نتائج حرب الخليج فى مصر تأكيد أزمة الديموقراطية.

وهذه النتيجة لم تنشأ فقط حين اكتشف فى لهيب الحرب عبث التعددية فى العالم الثالث وإبان الأزمات، وإنما نشأت قبل ذلك حين أثبتت الثمانينيات عبث الوهم الديموقراطى حين يوضع فى ميزان التجربة، فاتجهت هذه القوى - من جماعات المصالح - إلى التعبير عن نفسها فى حركة الطلاب الفاعلة منذ منتصف الثمانينيات ، وتطور النقابات المهنية.. وما إلى ذلك، حتى إذا ماجاءت أزمة الخليج وجدت منفذاً لها من خلال التعبير عما تريد.

وبمراجعة حركة جماعات المصالح إبان هذه الأزمة نلحظ أن مفهوم الديموقراطية اتخذ عدة خطوط كان إثارة وجودها نفسه أكثر هذه الخطوط تعبيراً عن الأزمة، ويمكن أن نرصد لهذه العلاقة بين جماعات المصالح والنظام عبر الآتى:

- سيطرة الحكم الشمولى
- غياب المشاركة الشعبية
- غياب مناخ لتطوير الديموقراطية

* * *

لقد كان سيطرة الحكم الشمولي وراء أهم هذه الشرور التى تعانى منها الأمة العربية والاسلامية، فما حدث للأمة العربية إبان هذه الأزمة كما يرى أساتذة الجامعة هى النتيجة المحتومة للحكم الشمولى الذى سيطر على العراق وعلى قمته الطاغية صدام حسين وكم من الكوارث أصابت أمتنا بسبب هذه النظم الشمولية التى تستمد عزمها من إثمها وبغيها، ، ومن هنا، يصبح النجاة من هذا كله مرهون بالديموقراطية الحقة والشورى الصحيحة،[1] (لاحظ تلازم قيمتى الديموقراطية والشورى)، وفى مرة أخرى حين طالب نادى أعضاء هيئة تدريس جامعة أسيوط بوقف المجزرة البشعة لشعب العراق لم يغفل ذكر أن السبب وراء ذلك يظل غياب الشورى.

وهذه الاشارة لاتقصر فى غياب الشورى على العراق وحده، وانما، على الأقطار العربية الأخرى بقدر تورطها فى هذه الأزمة، وإن كان من الملاحظ أن التركيز على هذه القيمة يجيء بشكل أكثر كثافة قبل الغزو الأجنبى أو بعده، وإن كان لايغفل الإشارة إلى خطورة افتقادها إبان الفترات الحرجة من الأزمة.

وقد أوغل فى هذا الاتجاه الجماعات الأخرى، فبيانات الطلبة، وتظاهراتهم لم تغفل عن ذكر افتقاد الشورى كأهم أسباب الأزمة، فغياب الشورى وحضور (الطاغية) متلازمان بحيث أننا لانستطيع أن نغفل تأثير أى منها فى هذه الأزمة، فأدبيات هذه الفترة تتوقف كثيراً عند افتقاد هذه القيم، فنقرأ فى أحد هذه البيانات:

١ – إن سكوت الشعوب العربية التى تحكم بأسلوب الحديد والنار، حيث لا حرية ولا رأى، ولا كلمة حق تسمع. بل تكمم الافواه وتكبل الأيدى، وتمتلئ المعتقلات .

٢ – إن سكوت الشعوب وسلبيتها تجاه الظلم الواقع عليها من قبل حكامها، أدى إلى تمادى هؤلاء الطغاة فى غيهم وضلالهم، وقادوا شعوبهم إلى الهاوية.. كشعب العراق الذى يحتضر وهو لايدرى.

٣ – إن سكوت الحكام على الظالم وإعانته جعلته يتمادى فى ظلمه وغيه. فلم نسمع لأحد منهم صوتاً عندما أباد هذا الطاغية خمسة وعشرين ألفاً من الأكراد المسلمين بالغازات السامة، مما جعله يجتاح شعب الكويت، وهاهو يتمادى أكثر وأكثر.

---

(١) بيان أعضاء هيئة التدريس، جامعة القاهرة (الملحق ١٠)

٤ – إن هذه الحكومات دب فيها التفرق والهمجية. فهذا يسب فى ذاك، وهذا يتهم الآخر بالعمالة.. رغم شعار القومية العربية المزعوم الذى تهاوى.. وقد قال تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا).

٥ – إن هذه الشعوب التى أغرقت فى الترف والبذخ، وحب المال والنساء، وكراهية الموت فى سبيل الله، وفى حين تكتظ بنوك الغرب بثمانمائة مليار دولار ، تجد أن الشعوب الإسلامية تموت جوعاً ولاتجد المأوى .

٦ – إن بلادنا تدار بطريقة فاشية عشوائية فلا تخطيط ولاتضامن فكيف نستعين بالغرب ونستجدى منه قوتنا..؟

والملاحظة البدْهية فى تتبع التفريعات الإسلامية من الخطاب الإسلامى تتحدد فى أنها جميعاً تتجانس فى رؤيته للأزمة الديموقراطية التى تعيش فيها الأمة الإسلامية، وهى رؤية تعود فى الأساس الأول إلى مصدر الإخوان المسلمين، وجماعة الجهاد على سبيل المثال مع فروق غير جوهرية فى التوجه الرئيسى.

وتفسير ذلك بالنسبة لتيار (الجماعة الإسلامية) أن هذا التيار ينطوى على فصائل عديدة من أهمها داخل الجامعة: الإخوان المسلمون والجهاد والسلفيون، غير أن (الجماعة الإسلامية) استطاعت أن تحتفظ باتحاد الطلاب فى أغلب الجامعات منذ قرابة خمس سنوات على التوالى قبل أزمة الخليج[1].

ثم تبرز لجنة التنسيق للعمل النقابى – فضلاً عن نوادى التدريس والطلبة بالجامعة – لتعكس التصور الديموقراطى فى علاقتها بالأزمة، لقد توفرت أسباب الصدام بين لجنة التنسيق النقابى والنظام فيما تبلور فى ٨/١٥، وقد كان أهم ماأسفر عنه هذا البيان انتقاد الحكومة المصرية لإرسال قوات للتدخل فى الخليج بما يشير إلى غياب المشاركة النيابية، إذ أكد هذا الموقف على « ضرورة مشاركة المؤسسات الشعبية والدستورية والنقابية فى إقرار الأمور للأمة والخطأ كإرسال قوات مصرية للتدخل »[2]

---

(١) ويلاحظ أن للإخوان المسلمين تواجدهم القوى والوزن الاكبر فى جميع الجامعات، فى حين يتواجد الجهاد بصورة قوية فى جامعتى أسيوط والمنيا وبعض كليات جامعة القاهرة، وتمثل كلية الهندسة بجامعة عين شمس التواجد القوى للسلفيين.. الخ

(٢) انظر محضر اجتماع النقابات المهنية فى ١٥ / ٨ / ١٩٩٠

وهنا نلاحظ أن النقابات المهنية التى عارضت توجهات الدولة (المهندسين – الأطباء – الصيادلة) كان يهيمن عليها التيار الإسلامى التابع، فى الأصل، لجماعة الإخوان المسلمين، ومع ذلك، فإنه فى حين لم يكن لهذه النقابات موقفاً عنيفاً إزاء النظام، فإن النظام سلك معها مسلكاً عنيفاً غير ديموقراطى تمثل فى اتخاذ مواقف حرص عليها دائماً فى مواجهة التيار الإسلامى، وهو مامثل «علاقة بين طبيعة القوى السياسية السائدة فى مجلس النقابة ومواقف الدولة، وهو أمر خطير يشكل انتهاكا للمارسة الديموطراطية »[1].

ومما يؤكد ذلك ويشير لانتهاك التعبير الديموقراطى انه فى حين حضر الاجتماع الأول للنقابات المهنية تسعة نقابات (من عشرة) وافقت على توقيع البيان الأول، لم يلبث فى المراحل التالية – وتحت ضغط النظام – أن انسحب أربعة أعضاء من ممثلى مجالس النقابات؛ وهو مايرتبط بتأثير الدولة فى مواجهة التيار الإسلامى، خاصة، فى هذه الجماعات.

وهذا الموقف من الخطاب الرسمى مثل فشلاً ذريعاً فى التعامل مع ممثلى الخطاب الإسلامى لدى النقابات المهنية.

ومما يجب ملاحظته فى هذا الصدد انه على العكس من موقف النظام بدت النقابات أكثر هدوءاً وتعقلاً، ففى حين طالب البعض فى التجمع النقابى بتنظيم إضراب أو اعتصام فإن «الرأى الغالب كان يرى أن أى إجراء يزيد عن اصدار البيانات يتطلب الرجوع إلى مجلس النقابة المعينة»، وهو مايسجل وعياً فى رفض الموقف الفردى فى وجود التنظيم الجمعى المنظم، ومع ذلك، لم تعدم هذه النقابات أسلوباً مجافياً للديموقراطية فى التعامل معها خاصة بعد نشوب الحرب ، حين تم استدعاء معظم قيادات لجنة النقابات المهنية إلى المسئولين ، وعوملوا معاملة فظة لم يشفع معها دفاع ممثلى النقابات من أن الاختلاف فى الرأى، هو مظهر، من مظاهر، الديموقراطية.

الأكثر من هذا أن النظام مارس العديد من ظواهر العنف فى اعتقاله للعديد من ممثلى هذه النقابات ، مما أثر فى ممارسات هذا الخطاب والركون إلى الموقف الرسمى ، وهو ماانتهت معه التجربة الديموقراطية المتاحة أمام هذا الخطاب، وهو ما انعكس دوره فى تصريحات بعض رموز هذا الخطاب عقب الأزمة من « التخوفات من طبيعة المناخ الديموقراطى السائد فى مصر وتأثيراته السلبية على النقابات ».

---

(١) *أمانى قنديل، السابق* ص ١٩

وقد كان أكثر تعبيراً عن هذا الواقع نقابة الأطباء بشكل فردى، ففى ٢٢ يناير راحت تسجل رأيها بشجاعة من إدانة الإرهاب الفكرى الذى مارسته أجهزة الدولة ضد أعضاء النقابات « ، كما ذكر البيان صراحة أن هذا الأسلوب الإرهابى واستمراره من قبل النظام إنما هو « مخالف لكل الأعراف الدستورية والإنسانية، فضلا عن ممارسة الديكتاتورية تعطيل النقابات عن ممارسة دورها فى التعبير عن أعضائها بالطريقة الديموقراطية تلك الديكتاتورية ذاتها التى راح ضحيتها شعب العراق »[١] .

والحاصل أن اتهام إحدى النقابات لموقف الدولة وتخليها عن الممارسة الديموقراطية وإيثار الرأى الواحد إنما يعبر عن درجة رفيعة من الشجاعة، إذ أن بيان النقابة لم يفرق بين أساليب النظام داخل مصر وخارجها، فإن هذا هو المصير الذى انتهى إليه شعب العراق حين افتقد الديموقراطية، وهو مايعنى انتفاء الخط الديموقراطى الذى ينادى به النظام نفسه.

والواقع أن ذلك الموقف من النظام ضد المثقف المصرى كان نتاجاً للتبعية للغرب وليس لتأثير السلطة البطريركية فى الداخل وحسب.. ومن هنا، كان من الطبيعى، بمجرد، أن تنتهى أزمة الخليج، أن يفتح الطريق أمام ردود أفعال لعديد من القوى الأيديولوجية فى الأقطار العربية، وهو ماوجدنا أبلغ تعبير له ماحدث فى الجزائر فيما بعد .

إنه الرسوب فى شروط اللعبة الديموقراطية التى حرص النظام نفسه على إقامتها ، وتحديد خطوطها.

* * *

---

(١) *بيان نقابة الأطباء ٢٢ يناير ١٩٩١ (انظر ملحق ١٣)*

خاتمة ونقد

الآن، وقد عرضنا للخطاب بصورة تحليلية وتركيبية معاً، تحليلية لأننا عرضنا للخطاب السياسى فى أزمة الخليج مفككاً، عبر الكتابة أو النطق أو إعادة الإنتاج فى شتى الوسائل الإعلامية، ثم أجملنا ماسبق وأن فصّلنا عبر الإطار الأيديولوچى، فحاولنا بلورة هذه الخطابات فى إعادة تركيبيه فى خطابات تقترب فى تجانسها وتبتعد فى توجهاتها، ومن هنا، انتهينا إلى اعتبار الخطاب بمثابة (موقف)/ موقف من الآخر.

وهذا الموقف يتغير دائماً ويعيد إنتاج نفسه حسب الواقع الذى يعيشه ، وإن احتفظ دائماً بسمة من الثبات يمكن التعامل معه مجازاً..

على أن الآخر لا يرد هنا بمعناه المألوف / الغرب وحسب، وإنما السلطة أيضاً ، واضعين فى الاعتبار أن السلطة لاتقتصر على نظام الحكم ، وإنما تنسحب على أية قوة أخرى تحاول (الهيمنة) على وعى المثقف، الأكثر من ذلك، يسهل القول، إنه يمكن التعامل مع نظام الحكم/ السلطة بوصفها، فى غالب الأحيان، عندنا، أداة للتبعية للآخر (=الغرب)، فهى بالتأكيد تعبيراً عن موقفه منها، ومن ثم، يمكن التعامل مع السلطة/ النظام السائد، وهو

الذى يهمنا هنا فى المقام الأول على اعتبار أنها السلطة الأقرب إلى التعبير عن عوالم كثيرة من السلطات التى تتدخل فى حياتنا الآن، وتحاول أن تلوى عنق الواقع إلى الوراء.

ولاتختلف هنا السلطة الرسمية عن السلطة الأيديولوچية الأخرى سواء أكانت إسلامية أو يسارية، فأنماط الخطاب التى تعاملنا معها أثناء حرب الخليج تنتمى، مرجعياً، إلى الخطاب السياسى المعارض الذى تعاملنا معه حينئذ.

تتعدد المرجعيات وتتوحد الأزمة .

وعلى هذا النحو، كان لابد أن نختار من بين أشكال الخطابات الكثيرة، وكإجراء منهجى، ثلاثة خطابات تعكس العلاقة بين المثقف والسلطة فى الأزمة، وخاصة أن فهم الواقع المصرى إبان أزمة الخليج يضعنا أمام بدهية بدت من الفصول السابقة، وهى، أنه فى حين يظل نمط المثقف المؤيد تابعاً للخطاب الرسمى، فإن أياً من أنماط المثقفين المعارضة - الإسلامى واليسارى - تظل خارج إطار صنع القرار السياسى، ومن هنا، نجد أنفسنا أمام صراع الخطابات وانشقاقها متماشياً مع صراعها فى الواقع مما يلقى بظله الثقيل على الكثير من القضايا القومية إبان الأزمة: كقضية الديموقراطية، وقضية فلسطين، والموقف من الغرب، وقضية توزيع الثروة.. ومإلى ذلك من القضايا الأخرى الكثيرة.

وسوف نقتصر هناعلى القضية الأولى - قضية الديموقراطية - لأهميتها، فإلى جانب أنها القضية الأساسية التى سيطرت على الفرقاء فى هذه الأزمة، يمكن التأكيد على أنها القضية التى ترتبط - عضوياً - بكل القضايا الأخرى ، إذ لايمكن الإشارة إلى أى من القضايا الأخرى دون أن نتمهل عند إشكالية الديموقراطية.

* * *

لايكاد يخلو حوار أو ندوة أو مؤتمر دون الإشارة إلى قيمة الديموقراطية، ولايمكن أن ننسى ندوة مركز دراسات الوحدة العربية التى عقدت فى قبرص فى تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٨٣ إلا ونذكر معها أن عنوانها الرئيسى (أزمة الديموقراطية فى الوطن العربى) لم يسمح لها بالانعقاد فى أى بلد عربى، ولعل ترديد قيم فكرية من مشتقات الديموقراطية كحرية الرأى والتعبير والتعددية السياسية وغياب المؤسسات.. وما إلى ذلك يحتاج إلى دراسة خاصة

تبين إلى أى مدى حظيت باهتمام فائق فى هذه الفترة التى شهدت أزمة الخليج، وهو مانجد تعبيرا خالصاً له فى الندوة التى عقدها مركز دراسات الوحدة العربية أيضا فى نيسان/أبريل ١٩٩١ بما يشير إلى دلالة الاهتمام بهذه القيمة وخطورتها فى الواقع العربى.

ومع ذلك، نستطيع أن نجزم إنه مامن قيمة افتقد الوعى بها مثل هذه القيمة.

لقد برهنت الخطابات المتصارعة على أهمية الديموقراطية وتفصيل مبادئها حسب شبكة المصالح التى انطلق منها كل خطاب.

إننا نلاحظ فى حالة التمهل عند الخطاب الرسمى احتكار هذا الخطاب لكل وسائل التأثير وممارسة العمل السياسى الديموقراطى المتاحة له لحسابه الخاص، أيضاً، لم يشر الخطاب الرسمى إلى الديموقراطية إلا على أنها نقيض للطاغية (هو هنا صدام حسين)، فى حين لم تشر ممارستها الأخرى، إلى رفض الاتجاه الذى يعتقل الرأى الآخر، ويعتقل أصحابه ويتهمة بالأحكام القضائية؛ بل كان الخطاب الرسمى - باسم الديموقراطية - يرفض أية ممارسة لتعميق التقاليد، ولم يحفل بغير ممارسات الحاكم نفسه والحزب الوطنى - بالتبعية - على أعتبار أن رئيس الحزب الوطنى هو الوحيد وراء اتخاذ أى قرار بالمسئولية كما رأينا مثالا حياً له فى اتخاذ قرار بالأغلبية البسيطة (هو ماحدث فى مؤتمر القمة العربى بمصر حيث وافقت ١٢ دولة فقط من ٢٠ على قرارات المؤتمر، فى حين غابت تونس وامتنعت الجزائر واليمن عن التصدى وتحفظت الأردن والسودان وموريتانيا).. فضلاً عن أن السياسة الفعلية للرئيس المصرى كانت تؤكد على هذا المنحى، فهى تتخذ القرارات الرئيسية بشكل مفرد الأمر الذى يجعل المجالس النيابية تابعة له، وإذا جرت مناقشات فإنها تكون شكلية ولاتتناول سياسة الحكومة العامة، ممايؤكد على أن النظام الحاكم فى مصر كان - الوحيد - وراء صياغة الخطاب الرسمى والتعبير عنه سواء بالنيابة عن سياسة أو مثقفيه.

فماذا كان موقف الخطاب الإسلامى من الديموقراطية ؟

الاجابة تشير بوضوح أنه كان يتخذ - فى الغالب - موقفاً نفعياً خالصاً، نابعاً من علاقاته القطرية وعلاقاته بالنظام السائد ومرجعيته فى الخبرة التى سبق وأن اكتسبها من علاقاته بالأطراف الأخرى الفاعلة.

وإلى جانب أن الخطاب الإسلامى كان يفصل بين الديموقراطية والشورى، فهو لم يجاوز معنى (الطاغية) كثيراً فى تحديد موقفه من صدام حسين، إذن، فإن طبائع الاستبداد بتصور إسلامى خالص كان يرتبط بالنازع الذاتى والخبرة التاريخية وراء الخطاب الإسلامى .

ولايجب إغفال موقفه من النظام السائد، وهو موقف نشأ من براجماتية التعامل مع الأزمة، فهو يرفض الأخذ بالنظام الإسلامى (كنظام) فى آليات السلطة القائمة، وهو ماتطور الأمر معه لتصبح الديموقراطية رمزاً للتبعية للغرب. والتمسك بقيمة الديموقراطية كما يراها الاخر (خارج دائرة النطاق الاسلامى)، إنما هو مظهر من مظاهر السيطرة الغربية علينا، حيث التدخل الأجنبى يسعى لضرب الإنجازات العربية متذرعاً بالديموقراطية التى نسقط نحن أيضا فى فخها ، وقد كان التطرف فى المواقف الأخرى عند الخطاب الإسلامى بديلاً لضعف هذه الديموقراطية الغربية التى تعرض علينا، إذ كان يردد المثقف الإسلامى دائماً هل من الممكن للشعب الكويتى أن يتقدم بطريقة ديموقراطية ليعلن الوحدة مع العراق ؟، ثم يسأل عن خطر هذه القيمة – العدالة – فى هذه الدولة القوية التى تسعى للتذرع بقيمة الديموقراطية لتدمير العراق ، بل يصل الشك فى قيمة الموقف العراقى نفسه أحيانا إلى أقصاه، فهناك طرف من الإسلاميين – منهم الإخوان – يرى إن افتقاد قيمة الديموقراطية فى العراق سمح للحكام بأن يتخذوا قراراً مصيرياً خطيراً مثل (غزو) قطر عربى لقطر عربى آخر، واستدعاء القوات الأجنبية دون الإفادة من هذه المؤسسات السياسية التى كان يجب الاعتراف بوجودها وتلعب دوراً فاعلاً.. وقد كان هناك طرف آخر من الاسلاميين – من أبرزهم حزب العمل – يرى أن قضية الديموقراطية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتبعيتنا للغرب، ومن ثم، يجب البحث أولاً عن الأشكال الملائمة للتطوير عندنا (ندوة أزمة الخليج، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، أكتوبر ١٩٩١) . وهو موقف يركز على الغرب أكثر من فهم موقف صدام حسين ضد الديموقراطية .

فالخطاب الإسلامى هنا يريد أن يتوقف عند الديموقراطية لاكما تراد لنا ، وإنما حين تتطور لدينا على أنها تطويعاً لحاجتنا إليها فى ظل المناخ الجديد الذى نجد أنفسنا فيه نتعرض لأخطار شتى، لفهم مايحدث بدءاً من الأسباب الحقيقية التى تبدأ بالعدوان الأمريكى والنظام العالمى .

أما الخطاب اليسارى ، فقد كان يقترب من الخطاب الدينى فى الربط بين الديموقراطية وما يضمره لنا الغرب مع فهم لحقيقة هذه القيمة بشكل مجرد ويعود ليتخذها الغرب ذريعة لخداعنا . فإذا كان الغرب يتذرع بهذه القيمة فى الأزمة، فهى تلك القيمة الديموقراطية التى عرفها الغرب فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، لوجود فارق دائماً بيننا وبينهم يؤدى إلى التبعية ويعمل لها باسم الحضارة الغربية.

وهذا التفسير يمكن الموافقة عليه بالمراجعة السريعة لموقف الغرب من الأنظمة العربية، ونظام صدام الآن أبلغ دليل على ذلك، فهذه الديموقراطية التى يحاول الغرب إقناعنا بها فى تداعيات الأزمة، لم تحقق أى نتائج إيجابية، اللهم إلا فى رصيد الغرب نفسه، فالهيمنة المزدوجة: السلطة التابعة للغرب، تعمل على إحكام السيطرة على مقدارتنا العربية، فهى لم تسع إلى تحقيق المجتمع الديموقراطى الفعلى قبل احتلال الكويت ثم انتهاء الأزمة بعد تدمير العراق والكويت معاً بحجة التحرير، يتساوى ذلك فى العراق والكويت كما يتساوى فى أى بلد عربى آخر .

وهذا الواقع المؤسسى هو الذى دفع بالمثقف إلى فقدان الثقة فى الديموقراطية (الغربية) ذاتها، وهو مايظهر فى ممارسة الخطاب الإسلامى واليسارى - ناهيك عن الخطاب الرسمى - إبانْ الأزمة، إذ ظل رمز الديكتاتورية (وموسولينى وهتلر..) إلى آخر القاموس الغربى نفسه - يردد ليلقى فى تيار العداء للعراق، وكأن هذا الديكتاتور لايوجد فى أى مكان فى العالم المعاصر إلا فى بغداد فقط.

ومايجب التنبه إليه فى هـذا السياق، بغض النظر عن أثر هيمنة النظام السائد أو المرجعية الغربية ، فإن الفكرة الديموقراطية فى وعى المثقف المصرى لم تكن قد تعمقت بالشكل الكافى بحيث يمكن أن يفصل فيها بين الرمز والممارسة ، وهو ما اتفق عليه عديد من المثقفين المصريين والعرب سواء بسواء كما لاحظ المثقفون أنفسهم إذ كانوا يتجنبون الحديث عن مبادئ الديموقراطية وحقوق الإنسان عندما يتناقشون ويسردون بافتخار مواقف الرئيس صدام حسين، دون أدنى ربط بين قيمة الديموقراطية وإشكالية الوحدة العربية.

وإذا كان غياب الديموقراطية مما يحول دون حضور حلم الوحدة على أسس مثالية وواقعية معاً، فإن الفشل فى مواجهة إسرائيل وحل القضية الفلسطينية، وسيطرة الفكر

الطفـولى.. إلخ يظل من أهم القـضـايا التى أدت إلى فـشل تحـقـيق حلم الوحـدة بين الأقطار العربية فى الخمسينيات والستينيات إبان المد القومى .

بَيْدَ أن غياب الوعى القومى (على مستوى الأطر النيابية أو المشاركة الشعبية) يظل من أهم عناصر تضييع قيم كثيرة غائبة فى المجتمع العربى، وهو مالم يتنبه له المثقفون ولم يعملوا له فى مناخ موات مثل مناخ الأزمة.

* * *

ومهما يكن، فإذا كان غياب الوعى الديموقراطى السليم من بين أهم مايميز الخطاب السياسى فى مصر، فإن غياب المثقف نفسه كان من الوضوح بحيث لايمكن إغفاله، وهو غياب، وإن اتخذ تفسيرات مرجعية، اقترن بالشعور الحاد بالسادية مما أسهم فى إضعاف قيمة المثقف ، مما كان من السهل على مؤسسات عربية وغربية أثناء الحرب وبعدها العمل على احتوائه.

يتحدد الغياب وتتعدد صوره .

فبدهى أن هذا الغياب لم ينشأ عن نشوب الأزمة فى الثانى من أغسطس فقط، وإنما يمتد بجذوره إلى أبعد من ذلك بكثير، وحين نختار نقطة زمنية فاصلة دالة – على سبيل المثال – فسوف نتمهل عند ثورة ١٩٥٢ منذ بدايات الخمسينيات.

لقد كان على المثقف المصرى حينئذ أن يتواءم مع توتاليتارية عبد الناصر الذى آثر فى فترة التحرر الوطنى الاعتماد على (أهل الثقة) لا (أهل الخبرة)، فأصبح الولاء، هو، الشرط الوحيد فى وجود المثقف وتأثيره، فالزعيم لم يطلب من المثقف أن يقوم بدور يعلو على السلطة أو يرشدها ، كما تبلور هذا الفهم أكثر فى نهاية حياته حين صرح للمثقفين فى آخر زيارة له لجريدة الأهرام ١٩٦٩ أنه يريد المثقف الذى يكتفى بدور سنت بيترز التبشيرى، فيكون التبشير بالفكر لديه بديلاً عن اتخاذ موقف عملى فى الحزب أو الكادر السياسى .

ولم يجاوز أنور السادات ذاك بكثير سواء بإعلانه لفكرة المنابر ١٩٧٦ أو تحويلها لأحزاب، فقد كان الولاء لديه دائماً يجب أن يكون (لرب العائلة) وهو ما انعكس فى تعبيراته حين رأى المثقفين هم (الأفندية)، ولهذا فقد واصل سيرة أسلافه من عصر الفراعين حين

حرص على سياسة (الهيمنة) المركزية التى ارتبطت بها الدولة فى مصر مما يلزم الجميع ألا يخرجوا من تحت سمائها، وهو مالم يستطع المثقف معه حينئذ أن يلعب دوراً غير الذى طلب منه، وهو ماسار عليه المثقف حتى اليوم إلى حد بعيد .

وكانت حرب الخليج بمثابة الصدمة التى زادت من اهتزاز دور المثقف فى وجود هيمنة داخلية عاتية/ النظام، وهيمنة خارجية فاعلة / الغرب.

لم يستطع أن يكون لهذا المثقف الدور الفعّال الذى كان يجب أن يلعبه فى أخطر أزمة عربية فى العصر الحديث .

بَيْدَ إننا يجب الإسراع بالقول هنا، أن سياسة الهيمنة (الداخلية أو الخارجية) لم تكن وحدها المسئولة عن هذا الغياب، وإنما أسهم المثقف نفسه فى ذلك .

فالخطاب الإسلامى – عند الإخوان على سبيل المثال – وجد نفسه منذ أزمة ١٩٥٤ فى موقف لم يجد مخرجاً منه غير التواؤم مع النظام الحديدى الذى استطاع الخلاص منه داخل السجون أو خارج مصر، ومن هنا، بدأ الميل لتأييد النظام أكثر ماميز هذا الخطاب، لقد رأى أن الميل لتأييد النظام، خاصة فى الفترة الأولى، أقصر الطرق للإقتراب من السلطة.

كذلك أدرك الخطاب اليسارى فعالية (هيمنة) النظام فآثر الدخول فى تحالفات معه – حزب التجمع على سبيل المثال –، خاصة، أن من انشق على الخطاب الإسلامى أو اليسارى وجد نفسه أقرب إلى الخطاب الرسمى منه إلى أى خطاب آخر.

أما الخطاب الليبرالى ممثلاً فى حزب الوفد – وقد كان تابعاً للخطاب الرسمى – فكان قد انتهز الفرصة لكسب رضاء السلطة المركزية .

وهذا مايفسر، فى السياق الأخير، كيف ظل الخطاب الرسمى سائداً طيلة الأزمة وبعدها، بمالايدع مجالاً لشك فى تأثير أى خطاب آخر بمعزل عن أجهزة السلطة المركزية وهيمنتها، خاصة، أن الخطاب الإسلامى – ممثلاً فى الإخوان – كان بصدد خسارة بقية فصائلة الاخرى فى عديد من الأقطار العربية فى حين كان الخطاب اليسارى – ممثلاً فى كل تفريعاته – يشهد انهيار الكتلة الشرقية وتخلى ممثليها عن العالم العربى عقب انتهاء الحرب الباردة، واهتبال القيادة السوفيتية الجديدة المناخ الطارئ لتبرهن للحلفاء، بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، على تخليها عن كل حلفائها السابقين .

ثمَّةَ عامل ثالث أسهم فى غياب المثقف - عدا هيمنة الخطاب الرسمى، وانتهازية عديد من ممثلى التيار المعارض - تمثل فى انتفاء الوعى لدى هذا المثقف، فلم يعد يمتلك أى قدر من الوعى (الممكن) فى المناخ الجديد، وانما حدث العكس حين شغل بقضايا وهمية وسجالات دامية بدون مبرر.

لقد رأينا هذا المثقف يحاول أن يسهم بالخطأ وبالصواب فى (حرب الفتاوى)، أو فى تحويل أى حوار عقلانى إلى مجال تستخدم فيه لغة دامية وأصوات عالية، وكما زادت - فى هذا السياق - اتهامات البعض للبعض الآخر، كذلك، افتقد وعياً بسيطاً بمفردات الحركة الدولية حولنا حتى إن البعض قال - فى ندوة مركز الدراسات المشار إليها سلفاً - إننا مازلنا نغرق فى التصورات الكلية بحيث نهمل التفاصيل وأحياناً أخرى نغرق فى التفاصيل بحيث ننسى الصورة الكلية وراح يضرب أمثلة حول استخدام أسلوب القوة فقال إن بعضا من هذه البدهيات هى هل الولايات المتحدة الأمريكية تريد بنا خيراً أم لا ؟ هل المنطقة العربية لها وضع خاص أم لا .. الخ، بل سوف نلاحظ أن بعض القضايا الهامشية أنفق حولها المثقف جهداً لا يتوازى مع قيمتها الحقيقية.

ومما لايجب إغفاله أيضاً - فى هذا السياق - إغراق بعض مثقفينا فى (نظرية المؤامرة) التى تحيل كل هزائمنا للغير، وإلى قوة غير عادية تستهدف إمكاناتنا وقدرتنا وعقيدتنا على مدى التاريخ، وقد نشطت هذه النظرية عقب نشوب أزمة الخليج بوجه خاص بعد أن كانت قد وجدت أصداء كثيرة لها فى نكسات وخيبات كثيرة لنا فى العصر الحديث، وخاصة، أنها كانت قد لاقت رواجاً كبيراً عقب هزيمة ١٩٦٧، ثم تجيء أزمة الخليج لتزيد النظرية براهين عديدة، فالسفيرة الأمريكية فى بغداد خدعت الرئيس العراقى للتغرير به حتى قام بغزو العراق، وأمريكا كانت تتحين تنفيذ مؤامرتها الكبرى بقوات الانتشار السريع منذ بداية الثمانينيات، وهذه التقارير التى خرجت وما زالت تخرج من الكونجرس والبنتاجون ووكالة المخابرات الأمريكية لتؤيد مرجعية هذه المؤامرة، وقد صدرت حينئذ عشرات من الكتب لتؤكد هذا.

والغريب أن الخطابات الثلاثة - الرسمية والإسلامية واليسارية - اشتركت فى قصور الوعى، والغلو فى تصور هذه المؤامرة حتى إن فيليب جلاب - من اليسار - خصص فصلاً كاملاً فى كتابه عن حرب الخليج اختار له عنوان (دفاعاً عن نظرية المؤامرة) وراح فؤاد

زكريا في مواجهة خطاب اليسار واليمين يخصص مساحة شاسعة من كتاباته ليناقش هذه الظاهرة مستنكراً لها في الإطار الذي اختاره، فتحدث كثيراً عن المؤامرة وننسى أننا رضينا بأن نكون الخنجر الذي يمسك به أعداؤنا ليطعنونا به « .

وقد لاحظ أحد المشاركين في ندوة مركز الدراسات، سبق الإشارة إليها - كان من مصادر الأزمة وأسبابها موضوع المؤامرة الإمبريالية ، فسجل أحمد يوسف أحمد كيف أن هذا الاتجاه الغالب يركز على دور المؤامرة ويتجاهل، أو ربما يدفع إلى الخلف، بغيرها من المصادر، وراح يحللها بشكل علمي، فبعد أن راح يسهب في تأثيرها وقصور ذاتنا يؤكد » لا يبدو واضحا لي سوى تركيز الحديث على المؤامرة الإمبريالية وتبرير كل ماحدث من الأطراف العربية « .

وعلى هذا النحو، في إلحاح عامل المؤامرة، وفي غيبة الوعي بها يغيب المثقف نفسه من حيث التصدي لهذا الإحساس الذي يبرر ماحدث بإلقاء تبعيته على غيرنا فلا نراجع أنفسنا كما نغفل كل القيم والآليات الفعّالة في الخلاص مما نحن فيه .

على أن ذلك كله أسلم المثقف المصري - بجميع خطاباته - إلى الاتهام الصريح للذات، وهو اتهام وصل الى درجة الذاتية المعذبة التي أصابته (بالسادية) في تعاملها مع الأزمة، وقد كان أكثر مظاهر هذه (الحالة) إلقاء الاتهامات الكثيرة على الذات العربية أثناء البحث عن مشجب للخلاص من هذا الواقع الأليم.

* * *

لقد أسلم المثقف نفسه إلى حالة من مشاعر الذنب *Guilt Feelings* بما يترجم لنا طبيعة هذا الغياب الدائم عن ساحة الفعل الحقيقي، وهي مشاعر تغاير مشاعر نقد الذات، ففي حين تمثل الحالة الأخيرة - نقد الذات - حالة صحية، تصبح الحالة الأولى - مشاعر الذنب - أشبه بحالة سيكولوجية مزمنة تعكس الواقع الذي انتهت اليه الخطابات المثقفة.

كان المثقف الرسمي يشك في أهليته : يسأل - على لسان علي الدين هلال - » هل نحن المثقفين العرب مؤهلين فعلاً لعمل أي شيء إذا كنا غير متفقين على معنى للديموقراطية ..(و) .. لايوجد بيننا إطار سياسي موضع اتفاق. بل هناك شعارات عامة مبهمة .. « ، ويجيء المثقف الإسلامي - محمد سليم العوا - ليشير : إلى أن الخطاب الإسلامي

فى الأزمة كان محايداً أتهم قوتين رئيسيتين: القوى الإسلامية، والقوى القومية ، .. اتهمهما بأنهما لم يتنبئا بهذه الأزمة، ولم تسع إلى إظهار بوادرها ومسبباتها .. (و) .. إننا سبب رئيسى من أسباب المشكلة، ثم ينتظم صف الإسلاميين المستقلين فى البيان الذى صدر صبيحته ٢١ أغسطس ، وليرى أن الخطأ أصبح خطيئة بسبب السكوت على الظلم والإغضاء عن الانتهاكات العديدة للحرية فى حيأتنا داخل أقطارنا ..و لأننا أهدرنا قيمة الشورى التى تشارك الناس بها مشاركة حرة، وتتوالى بيانات الخطاب الإسلامى لتؤكد معنى « تأنيب الذات » واتهامها بما حدث، وقد شارك الخطاب الماركسى فى هذا حتى يقول محمود أمين العالم ولأكثر من مرة : أليس مايحدث اليوم هو حصيلة تراكمات عديدة سابقة نحن جميعا مسئولون عنها مسئولين بتغافلنا وسلبيتنا عن بلوغها هذا المستوى البشع من التفاقم والصدام..؟ أقصد المثقفين العرب..و.. من يستطيع أن ينكر أن الغزو العراقى.. هو نتيجة صمتنا المريب بل تواطؤنا بشكل أو بآخر - إزاء ما كان يجرى فى العراق طوال السنوات الماضية ، (الاهالى ٢٢ أغسطس ٩٠) .

وتصل حالة المثقف الرسمى إلى أقصاها، حين يعود على الدين هلال لسؤال لماذا لم يستفد العرب من الهزائم التى مرت بنا ؟ » ، مندهشا من وجود هذه الهوة أو الفجوة الدائمة بين التنظير والتنفيذ، ويجيء آخر ليرد رداً هو أقرب إلى اللوم أكثر من أى شيء آخر، يقول محمود عبد الفضيل : « إن المثقفين لم يكونوا فى يوم من الأيام من صانعى القرار ولم يقوموا بدور كبير فى دائرة صنع القرار » مما يحيل السائل والمجيب - كليهما - إلى لون من الوان الحيرة التى تحيل إلى حالة من (عقدة الذنب) التى أصبح فيها المثقف المصرى فى هذه الأزمة.

إن وجود المثقف فى الظل أو اضطراره إلى ذلك فى وجود (هيمنة) مركزية يحول بينه وبين لعب أى دور فى تقرير مصير أمته، وقد أصبح ذلك من الحقائق التى لاتحتاج لجزم، وتحول الموقف الاضطرارى إلى مايشبه اليقين الذى أصبح يؤثره المثقف لنفسه، حتى إن د. شكرى عياد أكد لى فيما يشبه الاقتناع بالدور الذى انتهى إليه المثقف : ان للمثقف رأى وليس له دور نافياً عنه أى موقف فى غيبة التقاليد الديموقراطية، وفى إطار الهيمنة (الإعلامية) ، التى تمتلكها السلطة المركزية فى بلد يلعب فيه النهر منذ أقدم العصور رمز الهيمنة الرسمية على كافة مناحى الحياة.

وعلى هذا النحو، يظل المثقف غائباً، أو مُغيَّباً، مثقفاً أو عميلاً دون أن يدرى سيان، فالاثنان نتاج هذا الواقع الذى لم يشهد - كما يلاحظ محمد عابد الجابرى فى كتابه الملحوظ « الخطاب العربى المعاصر » - خلال المائة سنة الماضية « أى تطور حقيقى فى أية قضية من القضايا النهضوية التى عالجها، وبعبارة أخرى فإن الخطاب العربى الحديث والمعاصر لم يسجل أى تقدم ذا بال فى أية قضية من قضاياه، بل لقد ظل سجين بدائل، يدور فى حلقة مفرغة، لايتقدم خطوة إلا ليعود القهقرى خطوة، لينتهى الأمر إما الى إحالة القضية على المستقبل وإما إلى الوقوف عند حد الاعتراف بالوقوع فى أزمة.

أليس ما حدث إبانْ حرب الخليج وبعدها اعترافاً بالأزمة، واجتراراً لأزمات أخرى سابقة وأخرى آتية حيث الزمن مفقود والمثقف ميت ؟ .

* * *

ولهذا كله كان من السهل أن تسعى جهات: عربية وأجنبية لتحكم خطة لاحتواء هذا المثقف بأساليب شتى .

فأين هو المثقف الآن، الذى كان يمكن أن يلعب دوره الفردى، أو الجمعى، للخروج بنا من عنق الزجاجة قبل أن نخرج، تماماً، من التاريخ ؟.

أين هو المثقف الواعى ؟ فغياب الوعى هنا هو رديف العمالة والتبعية .

* * *

الملاحـــق

- ملحق رقم (١) **تقرير موقف « حول الغزو العراقى للكويت » .**
- ملحق رقم (٢) **تقرير « المصالح المصرية فى الخليج » .**
- ملحق رقم (٣) **بيان من المثقفين المصريين .**
- ملحق رقم (٤) **سحب القوات المصرية من الخليج .**
- ملحق رقم (٥) **بيان إلى الأمة .**
- ملحق رقم (٦) **بيان إلى الأمة .**
- ملحق رقم (٧) **بيان للناس فى أزمة الخليج .**
- ملحق رقم (٨) **غـزو العـراق .**

ملحق رقم (١)

تقرير موقف حول
الغــزو العــراقى للكــويت(*)

١ - جاء الغزو العراقى للكويت فجر اليوم مفاجأة كبرى تهدد بتغيير الأوضاع فى منطقة الخليج والنظام العربى والإقليمى الذى عملت مصر على إعادة بنائه خلال السنوات الماضية. وينذر هذا العمل بتهديد المصالح المصرية والأمن القومى العربى كما سيتبين بعد ذلك.

٢ - هناك ولا شك عدد من الأسباب الظاهرة والمباشرة للعمل العراقى كلها معلنة وتتلخص فى المطالب العراقية الخاصة بإسقاط الديون، وحصص النفط، والحدود، وأخيراً انهيار جهود الوساطة بين البلدين أمس بعد فشل اجتماع جده.

٣ - ولكن الأسباب الحقيقية تظل أبعد من ذلك بكثير ويمكن إيجازها فيما يلى:

(أ) إن انتهاء الحرب العراقية الإيرانية منذ عامين أدى إلى اختلال خطير فى توازن القوى فى منطقة الخليج ترتب عليه وجود تفوق عسكرى عراقى كبير على كافة الدول المحيطة بها، وترتب عليه شعور القيادة العراقية بقدرتها على إعادة ترتيب الأوضاع فى المنطقة لصالحها.

(ب) إن هناك أزمة سياسية واقتصادية كامنة فى العراق. فبعد انتهاء حرب الثمانى سنوات أصبح النظام العراقى مطالب بسد احتياجات الشعب العراقى الذى عانى كثيراً خلال سنوات الحرب. ولما كان ذلك لم يكن ممكنًا نتيجة انخفاض أسعار النفط، فإن النظام العراقى اندفع إلى تغطية هذه الأزمة بعمل درامى قوامه ابتزاز دول الخليج ثم غزو الكويت.

(جـ) إن هناك طموحات للرئيس العراقى صدام حسين وحزب البعث العراقى لإعادة تشكيل المنطقة على النهج العراقى.

ويبدو أن العراق نجحت خلال الشهور فى التوافق مع إيران لحل المشكلات القائمة بينهما ومن ثم ترك يد العراق حرة فى تنفيذ ماتراه مناسبًا لها.

٤ - تشير هذه الأسباب والدوافع إلى وجود تحول جذرى فى السلوك العراقى خلال الشهور الماضية. فقد كان هذا السلوك خلال الثمانينيات يقوم ببناء تحالف عربى وإقليمى يهدف إلى حماية مصالح العراق فى الحرب مع إيران، وتمثل فى عدد من السياسات العراقية على الوجه التالى:

(*) جاء فى كتاب محمد حسنين هيكل أن هذا التقرير أعده مكتب رئيس الجمهورية بالاشتراك مع وزارة الخارجية والمخابرات العامة. ص٣٧٤. أيضاً انظر: الشعب ٣٠ أبريل ١٩٩١، أيضاً: صوت العرب، باريس من ٢٢ نوفمبر ١٩٩٢ حتى ١١ مارس ١٩٩٣.

(ا) الإعلان المستمر عن رفض العراق للتدخل فى الشئون الداخلية للدول العربية .
(ب) دعم أجهزة الجامعة العربية .
(جـ) التنسيق مع مصر وقيام مجلس التعاون العربى .
(د) تسوية المشكلات المعلقة على الحدود مع السعودية .

لكن هــذه الســلوكيات بدأت فى التغير نحـو توتير الموقف فى المنطقـة على عدة جبهـات على الوجه التالى :

(ا) تدعيم قوى عون فى لبنان لإثارة المشكلات لسوريا .
(ب) تصعيد الموقف مع إسرائيل بالإعلان عن امتلاك العراق للأسلحة الكيماوية و التهديد بضرب إسرائيل .
(جـ) إثارة الأزمة مع الكويت والإمارات .
(د) العودة إلى إثارة اللغة القديمة فى النظام العربى والخاصة بتقسيم العرب بين تقدمى ورجعى ، وقومى وعميل للولايات المتحدة .

٥ - يبدو ان القيادة العراقية فى عملها قد استندت إلى بعض التقديرات التى يترتب عليها إمكانية نجاح العراق فى تحقيق أهدافها التى يمكن إجمالها على النحو التالى :

(ا) عمد إلى ضم الكويت للعراق واعتبارها مقاطعة عراقية ، أو اقامة حكومة عميلة فى الكويت تسمح للعراق باقتطاع بعض المناطق الكويتية لصالح العراق ، وخاصة تلك المحيطة بحقل الرميلة بالإضافة الى جزيرة بوبيان و باقى الجزر التى تعتبرها العراق حيوية لها .
(ب) عمد إلى ابتزاز دول الخليج لإلغاء الديون العراقية ، وتقديم دعم مادى للعراق مع بعض التنازلات فى الحدود .
(جـ) رفع أسعار النفط .
(د) إظهار العراق بقيادة صدام حسين كدولة قائدة فى منطقة الخليج تكون هى ممثلته أمام العالم .

أما التقديرات العراقية لإمكانية تحقيق هذه الأهداف فتقوم على مايلى :

(ا) إنه يمكن إجراء عملية سريعة وحاسمة ومفاجئة لتغيير الأوضاع وتحقيق هذه الأهداف ، بمعنى آخر خلق أمر واقع على العالم أن يتعامل معه .
(ب) إن الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى مشغولان بأمور أخرى لاتدفعهم للتدخل ، وإنه إذا تم طمأنة الغرب على تدفق النفط فإنه لن يكون هناك مبرر للتدخل .
(جـ) إن أجهزة الجامعة العربية ومجالس التعاون العربى من الضعف بحيث إنها لن تكون قادرة على اتخاذ موقف حاسم من العراق خاصة مع التخوف من التدخل الأمريكى الإسرائيلى .
(د) إن الشارع العربى والرأى العام يقف مع صدام حسين نتيجة لمواقفه المتشددة تجاه إسرائيل .

٦ - حتى الآن وبلا جدال فإن القيادة العراقية نجحت فى إدارة الأزمة لصالحها . ومن الصعب القول ان القرار العراقى جاء نتيجة تداعى الأحداث خلال الأسابيع القليلة الماضية وإنما على الأرجع أنه نتيجة قرار عراقى اتخذ منذ فترة وبدأ العراق فى تنفيذ مخطط محكم على الوجه الآتى :

(ا) تحييد مصر ومحاصرة سوريا واجتذاب الأردن من خلال مجلس التعاون العربى .

(ب) إثارة أزمة كبرى حول موضوع وجود الاساطيل الامريكية فى الخليج بهدف دفع الدول العربية الى مطالبة أمريكا بسحبها وبالتالى إفراغ الخليج من القوات الأمريكية .

(جـ) اثارة أزمة أشد مع اسرائيل بخصوص الأسلحة الكيماوية ثم استغلال رد الفعل الاسرائيلى لعقد مؤتمر قمة عربى فى بغداد لتوفير مشروعية عربية للنظام العراقى .

(د) إثارة المطالب العراقية فى مؤتمر القمة لتسجيل سابقة أن العراق حاولت تحقيق مطالبها من خلال النظام العربى ، وعندما فشلت لجأت إلى أساليب أخرى .

(هـ) إعلان الأزمة بشكل مفاجئ وتعبئة الرأى العام العراقى وتهديد الكويت و تدعيم ذلك بحشد القوات العسكرية .

(و) قبول الوساطات العربية (المصرية والسعودية و الفلسطينية) لإعطاء الانطباع أن العراق يرغب فى حل سلمى

(ز) تخفيف التوتر مع إيران وقيام تنسيق معها غير معروف أبعاده الحقيقية حتى الآن .

(ح) قبول اجتماع جدة مع الكويت مع وضع مطالب يستحيل على الكويت قبولها لإعطاء مشروعية للعمل العراقى .

(ط) استغلال توقيت انعقاد مؤتمر وزراء الخارجية للدول الإسلامية للقاهرة للقيام بالضربة العراقية فى وقت يعتقد فيه الجميع أن العراق لن يقوم بعمل عسكرى .

٧ - لن يمر العمل العراقى بدون ردود فعل قوية من النظام الدولى و الإقليمى . وعلى الأرجح فإن ردود الأفعال ستكون على الوجه التالى :

(ا) الدول الغربية والولايات المتحدة فى مقدمتها لن تسكت على العمل العراقى ؛ نظراً لانه يهدد مصداقيتها الدولية فى النظام الدولى الجديد الذى يعطى واشنطن قيادة النظام العالمى الذى لم يعد يسمح لقيادة مثل صدام حسين بالقيام بمغامرات كبرى . كذلك فإن العلاقات الغربية الخليجية ومبدأ كارتر تقضى بالتدخل لحماية دول الخليج . وفى النهاية فإن هذه الدول لن تسمح بوجود قوة تتحكم فى نفط الخليج . ولذلك على الأرجع فإن رد الفعل الغربى سوف يشمل :

(١) تعبئة الرأى العام العالمى والحصول على قرار من مجلس الأمن يدين العراق ويمثل غطاء للتدخل الأمريكي الأوربى .

(٢) الحصول على غطاء عربى للتدخل ، وعلى الأغلب من مجلس التعاون الخليجى الذى سوف يطلب الحماية الأمريكية تحت شعار حماية حرية الملاحة فى الخليج .

(٣) ضرب العراق من الجو بكثافة ، وينتظر أن يوجَّه ذلك نحو حقول النفط العراقية وربما بغداد أيضًا .

(٤) سوف يتم ذلك تدريجيًا بعد حشد تدريجى للقوات فى الخليج وإعلان تعبئة القواعد الأمريكية فى تركيا وزيادة درجة التنسيق الأمريكى الإسرائيلى .

(٥) الدعوة إلى مقاطعة العراق تجاريًا واقتصاديًا وربما الضغط على السعودية وتركيا لوقف ضخ البترول العراقى عبر الأراضى التركية والسعودية .

(ب) إسرائيل سوف تكون المستفيد الاعظم من هذه الأزمة فهى تظهر ان صراعات الشرق الاوسط لاعلاقة لها بإسرائيل ، كما أنها تعزل صدام حسين وتغذى دعاوى إسرائيل بأنها فى النهاية الحامى للمصالح الغربية فى المنطقة . ورغم ذلك فإنه على الارجع ألا تتدخل إسرائيل فى الازمة مباشرة نظراً لتخوفها من رد فعل عراقى يفجر الأوضاع فى المنطقة ولتخوفها من أن تدخلها المباشر سوف يدفع بقطاعات عربية لتأييد العراق ولرغبتها فى الاستمرار فى اجتذاب المهاجرين السوفييت . ولذا فإن المنتظر أن تساهم إسرائيل فى الأعمال الغربية المنتظرة من خلال تقديم تسهيلات عسكرية وأخرى فى مجال الإمداد والتموين .

(جـ) مجلس التعاون الخليجى الآن فى مأزق شديد وخاصة السعودية . فمصداقية المجلس الآن موضع اختبار هائل ، فحتى الآن كان نشاط المجلس يتم فى إطار الصراع العراقى الإيرانى مع اعتبار إيران كعدو أول ، والآن تغيرت الأوضاع بطريقة درامية بحيث أصبح العراق هو المهدد لسلامة دول الخليج وأراضيها . و على الارجح أن يكون رد فعل هذه الدول على الوجه الآتى :

(١) تعبئة أجهزة العمل العربى ضد العراق .

(٢) إغراء العراق بالانسحاب عن طريق وعود مالية .

(٣) الحصول على تحييد مصر وسوريا لهذا السلوك .

(٤) قطع أنابيب النفط الذى يمر فى السعودية .

(٥) دعوة الدول الغربية وخاصة الولايات المتحدة للتدخل تحت شعار حرية ملاحة فى الخليج .

(د) موقف إيران سوف يظل لغزاً لأنه سيتوقف على مدى التنسيق العراقى الإيرانى غير المعلن وغير المعروف أبعاده . ولكن إيران سوف تستفيد من الضغط على مجلس التعاون الخليجى والسعودية خاصة . ومن الممكن أن تلجأ إلى ابتزاز الدول الخليجية الأخرى أو تتقدم لاقتسام الخليج مع العراق بالاعتداء على البحرين أو الإمارات وإن كان ذلك غير مرجح حتى الآن وخاصة مع عدم توافر مقومات كافية .

(هـ) سوريا سوف تزايد على الموقف العراقى وتعلن عن وقوفها وراء دول الخليج وتحاول التقارب أكثر مع مصر ، وربما ترفع درجة استعداد قواتها وتحشدها على الحدود مع العراق ويستبعد أن تتدخل عسكريًا .

(و) تركيا سوف تدين الغزو وتحاول استعادة موقعها الاستراتيجى الذى فقدته نتيجة انتهاء الحرب الباردة ، وسوف تنسق فى ذلك مع الولايات المتحدة ويمكنها أن تضغط على العراق بوقف تدفق النفط العراقى من أراضيها .

(ز) الاتحاد السوفيتى فى ظروفه الجديدة سوف يسعى إلى تدعيم علاقاته مع دول الخليج نظراً للمصالح الاقتصادية المتوقعة مع هذه الدول ، لذلك فمن المنتظر أن يدين الغزو العراقى وينسق مع الولايات المتحدة فى المحافل الدولية لإدانة الغزو وربما يشترك اشتراكًا رمزيًا معها فى حالة التدخل .

الموقف المصرى

١ - يعد السلوك العراقى ضربة قوية للمصالح المصرية على الوجه التالى :

(ا) إن الغزو العراقى يشكل ضربة لسياسة مصر العربية القائمة على إقامة التضامن العربى المستند إلى القيادة المصرية وهى السياسة التى كان مقررا تتويجها بانعقاد مؤتمر قمة عربى شامل فى القاهرة فى شهر نوفمبر .

(ب) إن الغزو العراقى يدفع القيادة المصرية دفعا إلى الاختيار بين الحلف المصرى العراقى الذى نما فى خلال الثمانينيات والعلاقات المصرية الخليجية الوثيقة والتى تنطوى على مصالح اقتصادية وأمنية مصرية واسعة .

(جـ) يقضى عمليًا على مجلس التعاون العربى

(د) ضرب الاعتدال فى المنطقة الذى تقوده مصر وفتح الباب إلى تدخلات خارجية واسعة كما أشرنا .

(هـ) تم تضليل القيادة المصرية من خلال مجلس التعاون ومؤتمر القمة والوساطة المصرية فى الأزمة التى جرى استغلالها لتغطية الغزو مما يفقد مصر مصداقيتها فى المنطقة .

٢ - على الأرجح أن العراق سوف يحاول ألا يفقد مصر نهائيًا فى هذا الفعل ، وسوف يبقى الجسور مفتوحة مع القاهرة من أجل تخفيف رد الفعل المتوقع على الساحة العربية والدولية مع إبقاء خطوط الاتصال مع الولايات المتحدة وإسرائيل .

٣ - لحماية المصالح المصرية فإن الأهداف المصرية من إدارة الازمة ينبغى ان تكون على الوجه التالى :

(ا) ضرورة انسحاب القوات العراقية من الأراضى الكويتية دون الحصول على مكاسب ملموسة .

(ب) احتواء الأزمة وحصرها فى إطار الكويت .

(جـ) إبقاء الخطوط مفتوحة مع العراق حتى يمكن توفير صيغة يمكن بها إعطاء غطاء دبلوماسى حتى ينسحب من الكويت .

٤ - لتحقيق هذه الأهداف فان مصر يمكنها القيام بما يلى :

(ا) اعلان واضح وصريح يدين الغزو العراقى ويركز على الآثار السلبية التى يسببها هذا الغزو للأمن القومى العربى والتضامن العربى ، مع الإشادة فى نفس الوقت بالتعهدات التى قدمها العراق فى الوقت السابق لحماية الأمن العربى و دعوة العراق للانسحاب الفورى لتحقيق هذا الهدف .

(ب) إبقاء الخطوط مفتوحة مع العراق وفى نفس الوقت يجب أن تصل إلى العراق رسالة أشد حزمًا بأن مصر ترفض السلوك العراقى وتضليله للقيادة المصرية . و ان مصر سوف ينفد صبرها بعد قليل .

(جـ) الدعوة إلى انسحاب عراقى من خلال إطار عربى مثل اجتماع لوزراء الخارجية العرب يعقبه دعوة الدولتين الى التفاوض لحل المشكلات بينهما .

(د) المبادرة بوسائل مختلفة دبلوماسية وسياسية وعسكرية لتدعيم السعودية والإمارات والبحرين وقطر ، ويمكن أن تبدأ مصر فى ذلك فوراً مع عدم الإعلان عن تلك الخطوات . وذلك لإجراء ضغط تدريجي على القيادة العراقية .

(هـ) محاولة جعل التصعيد فى الموقف الأمريكى تدريجيا ودون إعلانات صارخة حتى لايستغله الرئيس العراقى فى إظهار ان مواجهته ليست مع الكويت وإنما مع أمريكا .

(و) إرسال رسالة صريحة لإسرائيل بعدم التدخل فى الأزمة وضرب العراق ، حتى لا تصبح القوى المناصرة للكويت مناصرة لإسرائيل فى نفس الوقت .

٥ - البحث بكل الوسائل (المخابرات / أمريكا) عن مدى التنسيق العراقى الإيرانى لأن ذلك يمثل حلقة مفقودة ينبغى التعرف عليها لإمكانية حساب المواقف المقبلة .

٦ - تشجيع جميع الهيئات الحزبية والشعبية بما فيها المعارضة لإدانة الغزو بشكل أكثر حزماً مما تظهره القيادة المصرية .

٧ - تحييد ليبيا بوسائل دبلوماسية متنوعة .

ملحق رقم (٢)

تقرير خاص
« المصالح المصرية فى الخليج »

١ - فى إطار متابعة مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية لأزمة الخليج، والاستعداد للمرحلة المقبلة للأزمة وما فيها من عمليات عسكرية، كان ضروريًا التحديد الدقيق - والمفصل ما أمكن - للمصالح المصرية الثابتة فى منطقة الخليج عامة، والمصالح المتغيرة التى تولدها الأزمة الراهنة وما يمكن أن ينتج عنها من مخاطر وفرص.

٢ - ولتحقيق هذا الهدف عقد المركز "حلقة نقاشية" يوم الاثنين ١٤/ ١/ ١٩٩١، حضرها نخبة من الخبراء مثلوا المؤسسة العسكرية (فى الخدمة وخارجها) ووزارتى الداخلية والخارجية، وأكاديميين فى فروع الاقتصاد والعلوم السياسية، بالإضافة إلى خبراء مركز الدراسات.

٣ - وأعد المركز "ورقة نقاش" (مرفقة) أساسية حول الموضوع، لكى تشكل إطارًا عامًا للمناقشة تحت عنوان "المصالح القومية المصرية واحتمالات الحرب فى الخليج"، وتضمنت تعريفًا "للمصالح القومية" والمصالح الاستراتيجية والاقتصادية والسياسية لمصر فى منطقة الخليج، والتصورات المختلفة لمدى التأثر الذى يمكن أن يلحق بها نتيجة الأزمة الراهنة وتصاعدها.

٤ - وكان هناك اتفاق عام بين المشاركين فى الحلقة على أنه وإن كان تهديد المصالح المصرية فى الخليج لا يتعلق "ببقاء" مصر، مثل احتلال ترابها الوطنى كما كان الحال فى سيناء، أو مثل تهديد تدفق مياه النيل إلى مصر، وهى الأمور التى تفرض الحرب على مصر، فإن هذه المصالح تعد "حيوية" للسلامة الاقتصادية لمصر، ولموقعها ومكانتها فى النظام العربى والإقليمى والدولى تستدعى المساهمة فى العمل العسكرى فى الخليج. والأهم من ذلك، أن المنطقة، والأزمة الحالية، تشكل ماهو أكثر من "المصالح الحالية" وإنما - أيضا - تتضمن "مصالح واعدة" فى المستقبل، نتيجة الفرص التى تتيحها لمصر - ولغيرها - من حيث إمكانية وجود مبادلة للفوائض المالية بالفائض السكانى والأمنى، فضلا عن السوق التى سوف تنتعش خلال الفترة المقبلة نتيجة عملية الأعمار فى المنطقة.

٥ - وقد برز رأى أثناء الحلقة يشير إلى البعد التاريخى للمصالح المصرية الاستراتيجية فى منطقة الخليج والجزيرة العربية امتدت منذ الغزو الآشورى والفارسى لمصر قبل الميلاد حتى التدخل المصرى فى الحرب العراقية - الإيرانية فى عهدى السادات ومبارك عبورًا بحملات محمد على فى الجزيرة العربية وجمال عبد الناصر فى اليمن. ولكن هذا الرأى لم يلق تحبيذًا كبيرًا أثناء المناقشة. وعلى العكس فإن

الاتجاه السائد عبر عن ضرورة وضع المصالح المصرية فى إطار الوضع الراهن فى المنطقة - وليس فى سياقه التاريخى - والأهم فى الإطار المستقبلى.

٦ - ووفق هذا الرأى الأخير فإن وجهة النظر انطلقت إلى أن هناك مصلحة مصرية أكيدة فى التوافق (أوركوب الموجة حسب رأى أحد المشاركين) مع النظام العالمى الجديد الداعى الى التغيير الاجتماعى والسياسى، وسيادة القانون داخل الدول وفيما بينها. وبمعنى أكثر تحديداً خلق نظام عربى ينطلق من الأزمة يكون متوائماً مع النظام العالمى وتركيبته الراهنة، وما فيه من اعتماد متبادل وتكامل اقتصادى والنزعة للحل السلمى للمنازعات على أسس قانونية.

٧ - وظهر تخوف عام أثناء المناقشة من أن المشاركة العسكرية المصرية فى القوات المتعددة الجنسيات فى منطقة الخليج يمكن أن يؤثر سلبياً على التوازن الإستراتيجى المصرى - الإسرائيلى مما يمكن أن يعرض أمن مصر لمخاطر جمَّة. ولكن المشاركين العسكرين فى الندوة أكدوا على أن إرسال القوات المصرية إلى الخليج لم يوثر على القوات المصرية فى مواجهة إسرائيل، وأنه فى الحقيقة شكَّل إضافة للقوات المصرية سواء من حيث العدد أو المعدات.

٨ - وبالإضافة إلى ذلك، فإن المشاركين أكدوا على أن هناك مصلحة مصرية مؤكدة لمكانتها السياسية فى المنطقة العربية بعد انتهاء الازمة سوف ترتبط بحل المشكلة الفلسطينية والسعى بقوة لدى الولايات المتحدة، والنظام الدولى لحل المشكلة. ولكن المهم فى ذلك أن يكون بقدرة مصر وضع صياغة مقبولة ومقنعة للحل.

٩ - وكان هناك اتجاه سائد فى المناقشة، وإن كان الوضع فى الخليج يخلق "مصالح واعدة"، وان مصر لديها فرصة كبيرة لتحقيق هذه المصالح بحكم موقعها ومكانتها وموقفها من الأزمة، إلا أن هناك دولاً أخرى "منافسة" لها، تملك نفس الإمكانيات والقدرات وربما تكون "مفصلة" من بعض الدوائر الخليجية مثل تركيا وباكستان اللذين بإمكانهما الدخول فى معادلة النفط والأمن.

١٠ - وكان هناك اتجاهاً عاما أن قدرة مصر على "المنافسة"، والتفوق وتحقيق مصالحها المستقبلية سوف يتوقف على قدرتها الذاتية وبنائها السياسى والاقتصادى والاجتماعى فهى من ناحية - وحتى تعظم من مكاسبها - لابد وأن تقدم "نموذجاً" للتعددية والتطور الديموقراطى. ومن ناحية أخرى البنية الاقتصادية المصرية بصورتها الراهنة البيروقراطية غير قادرة تماماً على انتهاز الفرص المتاحة من الخليج.

١١ - والأهم من ذلك أن المناقشين قيَّموا السياسة الخارجية المصرية قبل الازمة وأثنائها، ووجدوا أن هناك كثيراً من القصور فى أدوات هذه السياسة:

أولا، أنه استبعدت وإلى حد كبير عمل المخابرات استناداً إلى نزعة مصر الى عدم التدخل فى شئون هذه الدول، ولكن ذلك كان له آثار سلبية كبيرة من حيث عدم القدرة المصرية على التعرف على نوايا النخب الحاكمة فى هذه الدول، هو ماظهر جلياً فى حالة "التحالف المصرى - العراقى" قبل الأزمة.

وثانيا، أن مصر تعتمد كثيراً على "دبلوماسية القمة" ولقاءات الرؤساء ودون بناء "بيوت مصرية" فى الدول العربية (وهو ما كان موجوداً تقليديًا) تدافع عن المصالح المصرية فى هذه الدول.

وثالثا - أن مصر لم تكن عملية "ونفعية" وبرجماتية بالقدر اللازم بحيث تحصل على المقابل المادى لموقفها. ولذا فقد أوصى الجميع بضرورة إعادة النظر فى أساليب السياسة الخارجية المصرية تجاه الدول العربية (خاصة فى الخليج) وتقوية أجهزة المعلومات والنفوذ فيها، مع استغلال وسائل أوسع للنفاذ إلى النخبة السياسية، وأخيراً أن يتم ترجمة التحالف الحالى فى الخليج إلى اعتزامات تعاقديةواضحة بدعم مصر اقتصاديًا سواء بمدها بالمعونات، أو بتوجيه الاستثمارات، أو فتح المجال للشركات المصرية للمساهمة فى عمليات إعادة التعمير، أو شراء السلاح المصرى، أو فتح الأسواق. والأهم من ذلك رفع القيود عن العمالة المصرية وعدم التمييز ضدها فى الأجر وإزالة نظام الكفيل الذى يحد كثيراً من دخول المصريين فى هذه المنطقة.

ملحق رقم (٣)

بيـــــان
« من المثقفين المصريين »

الموقعون على هذا البيان - من كتاب وصحفيين وفنانين وأساتذة جامعات - يشجبون الغزو العراقى للأرض الكويتية ، ويرون فى هذا العمل غير المسئول تدخلاً سافراً فى الشئون الداخلية لقطر عربى شقيق، خلافًا للأعراف والمواثيق الدولية وميثاق جامعة الدول العربية وكافة الاتفاقات الثنائية التى وقعها العراق مع الأقطار العربية المجاورة ، فضلاً عن أن هذا الغزو وعواقبه يعرض الأمن العربى لمخاطر جسيمة من جانب الامبريالية الأمريكية كما يحرف الأنظار عن الصراع العربى الإسرائيلى والانتفاضة الفلسطينية الباسلة وعن مشكلة هجرة اليهود السوفييت إلى أرض فلسطين وتوطينهم فى الأراضى المحتلة بدعم وتمويل أمريكى .

ولهذا فإننا نطالب العراق بسحب قواته فوراً ودون شروط من أراضى الكويت واللجوء إلى أسلوب التفاوض والحوار لحل المشاكل المعلقة بين البلدين بمساعدة الجامعة العربية والأقطار الشقيقة ذات الصلة .

إن التطور السريع للأحداث منذ بداية الغزو العراقى للكويت ، بما فى ذلك التصريحات العدائية للمسئولين الأمريكيين والاستعدادات العسكرية والبحرية الضخمة للأساطيل الأمريكية المتجهة حاليًا إلى الخليج بتفاهم تام مع بعض الدول الخليجية ، إنما صحفية وكاتبة يوضح خطورة الموقف وقابليته للانفجار فى أى لحظة ، والمدى الذى يمكن أن تمضى إليه واشنطون خصوصًا والغرب عمومًا فى مساندة أنظمة حكم عشائرية غير ديموقراطية فى تلك المنطقة الحساسة من الوطن العربى . فثمة خشية حقيقية من أن تزعم واشنطون خلال الأيام القليلة القادمة أن القوات العراقية قد قامت بعبور الحدود السعودية لاستخدام هذا الزعم تكأة لإنزال قواتها براً ثم الزحف إلى الكويت خصوصًا أن سفير الكويت فى واشنطون طالب رسميا بتدخل أمريكا عسكريًا كما تواترت الأنباء عن موافقة الحكومة السعودية على نزول القوات الأمريكية فى أراضيها بعد تردد .

إن الأحداث الأخيرة قد لفتت الأنظار إلى خطورة الأنظمة الدكتاتورية وتورطها فى مغامرات عسكرية إلى هشاشة الأنظمة العشائرية فى الخليج ، واستعدادها للجوء إلى عدو العرب الأول «الولايات المتحدة» لطلب المساعدة والعون العسكرى عند الشدة ، وإلى عدائها الأصيل للديمقراطية والأساليب

الدستورية والبرلمانية للحكم ، الأمر الذى يتنافى مع الاستقرار الحقيقى ويفضح نفاق السياسة الأمريكية فى موقفها من قضية الديموقراطية ، ولاشك أن حكام الكويت بإصرارهم فى الشهور الأخيرة على إهدار الدستور واعتقال قادة المعارضة وتزوير الانتخابات وفرض الرقابة على الصحف لسنوات إنما يتحملون قدراً من المسئولية فى تداعى الأحداث ، ونحن نأمل أن يكون ماحدث درساً لكل حكام الخليج والأقطار العربية الأخرى فى خطورة الحكم دون ديموقراطية حقيقية تقوم على أسس دستورية وبرلمانية صحيحة كأحد الشروط الرئيسية لتحقيق الاستقرار السياسى والتنمية الاقتصادية والاجتماعية .

الموقعون

- د . عبد العظيم أنيس ، كاتب وأستاذ جامعى
- محمود أمين العالم ، كاتب وصحفى
- فريدة النقاش ، صحفية وكاتبة ورئيس تحرير « أدب ونقد»
- د . لطيفة الزيات ، كاتبة - أستاذة الأدب الإنجليزى - جامعة عين شمس
- حسين عبد الرازق ، كاتب وصحفى رئيس تحرير «اليسار»
- أبو سيف يوسف ، صحفى وكاتب
- صلاح عيسى ، صحفى وكاتب
- حلمى شعراوى ، كاتب - مدير مركز البحوث والدراسات العربية
- عبد الغفار شكر ، باحث وكاتب
- أمينة النقاش ، صحفية وكاتبة

ملحق رقم (٤)

سحب القوات المصرية من الخليج

نداء من الإخوان المسلمين . . .

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله الأمين . . وبعد .

فقد نكبت أمتنا الإسلامية بعد أن كانت دولة واحدة متماسكة فتفرقت إلى دويلات ينابذ بعضها بعضًا وتولى أمورها حكام لايقيمون شرع الله ولا يلتزمون بمبادئ العدالة والشورى ، والمصلحة العامة ، واتخذ البعض منهم صورة باهتة زائفة للديموقراطية فتردت أحوالنا من سيء إلى ماهو أشد سوءاً ، وكلما طلعت علينا دعوات تنطق بالحق وتدعو إلى الخير وتنادى بهدى محمد صلى الله عليه وسلم سارعت أيدى العمالة بالوقوف فى سبيلها ومحاربتها بمختلف الوسائل .

وهكذا استقر الأمر لحكام مستبدين وانتفت تمامًا من نظم الحكم فى بلادنا الشورى وهى أصل من أصول الحكم فى شريعتنا ، وعلت أصوات أجهزة الإعلام تبث الضلال والفساد والخنوع بين المواطنين .

ولنزوة من شهوة حاكم وخديعة أدخلتها عليه أجهزة دول كبرى تحتضن العدو الصهيونى وتتصدى للدفاع عنه ، كانت الواقعة الكبرى فى الثانى من أغسطس ١٩٩٠م عندما احتلت قوات العراق أرض دولة شقيقة وجارة له ، هى دولة الكويت العربية الإسلامية واستباح حرماتها ونهب أموالها . . . إلخ .

وبدت فى الأفق نذر الشر العظيم المبيتة لهذه الأمة فى تحقيق مطامع التآمر الصهيونى الصليبى الغربى الاستعمارى فى الاستيلاء على الشرق الأوسط ونهب ثرواته وتسخيرها لمصالحهم والتمكين لدولة العدو الصهيونى الكبرى ، من النيل إلى الفرات وتضم أرض المدينة بما فيها من مقدسات – المسجد النبوى الشريف وقبر الرسول صلى الله عليه وسلم ومدافن الصحابة الأطهار بالبقيع .

وقد أنذرنا فى بياننا الصادر فى ذات يوم العدوان الغاشم على الشقيقة الكويت من هذه المهالك ، وناشدنا رئيس العراق أن يسحب قواته من الكويت ويتركها لأهلها ، وحدانا الأمل أن يبادر ملوك ورؤساء وأمراء الدول العربية والإسلامية إلى وأد الفتنة وإطفاء النيران وأن يحققوا صلحًا يحفظ للكويت استقلاله وحريته وللعراق مصالحه فى إطار أخوة إسلامية تطمئن لها القلوب ، غير أن الحقد أصم الآذان وأتاح الفرصة للعدو الذى زعم أنه المجير لدول منطقة الخليج - أن يسد جميع منابع الخير ومسالك الصلح ومنافذ التسوية السلمية ، وحشد العدو اللعين حليف الصهيونية المتعطشة لسفك دمائنا وأعوانه وجيوشه ثم فتح فى ١٧/ ١/ ١٩٩١ نيرانًا متأججة تعصف بالعراق وأهله ومنشآته الحيوية وتحاول أن تدمره أبشع تدمير .

إن أطماع التحالف الصليبى الصهيونى الاستعمارى ظاهرة واضحة بل هى معلنة أكدها كل رؤسائه إلى شعوبهم وهى أنهم يريدون بترول المنطقة خاضعًا لهم فى كمه وسعره ، والتمكين لربيبتهم الدولة الصهيونية وهذا ما يجعل الزعم بأن الغرض هو تحرير الكويت زعم باطل وتمويه لايراد به إلا خداعنا .

إن الأسلوب التدميرى الهمجى الذى تنك به قوات تحالف البغى والعدوان أرجاء العراق الشقيقة يدل على أن الغرض ليس إصابة منشأة عسكرية ، بل القضاء على كل المرافق والمنشآت المدنية والفتك بشعب العراق المسلم الشقيق .

إن من أشد مايحزن القلب موقف حكومتنا المنحاز لأمريكا حليفة العدو الصهيونى التى تهدد مصيرنا وتنذر باستعبادنا والتى تعمل بكل قوة مع أمريكا على تهجير أكثر من مليون صهيونى إلى أرض فلسطين المحتلة لتزداد قوة وجبروتًا .

إن مما يثير الأسى والاستياء موقف الإعلام الرسمى المصرى المتهالك فى الدفاع عن الحلف الصهيونى الاستعمارى ومحاولة خداع شعبنا وتبرير العدوان على الشعب العراقى الشقيق .

إنه أيًا كانت خطيئة حاكم العراق ونظام حكمه المستبد الكريه فإن ذلك لايمكن أن يغير من حقيقة أن الملايين من أبناء الشعب العراقى هم جزء هام من أمتنا العربية المسلمة ورافد من أهم روافد قوتها ، وهلاكه هلاك للأمة كلها .

إن جميع الشعوب الإسلامية فى ليبيا وتونس والجزائر والمغرب والسودان وموريتانيا والأردن واليمن وإيران وباكستان وبنجلاديش وتركيا وأندونيسيا وماليزيا والفلبين والهند بل إن شعوبًا غير إسلامية مثل شعوب استراليا وألمانيا وأمريكا وفرنسا وانجلترا وهى المشتركة فى الحرب كلها قامت وتظاهرت تدين الحرب البشعة التى تقودها أمريكا ضد شعب العراق فكيف لايتاح لشعب مصر أن يعبر عن رأيه وأحاسيسه بصورة صادقة وطبيعية ؟! وكيف تستحوذ السلطة على جميع أجهزة الإعلام من تليفزيون وإذاعة وصحف يومية ومجلات أسبوعية تسخرها لإبراز رأى واحد ووجهة نظر بعينها ، إن وسائل إعلام الدول المشتركة فى الحرب تجعل مساحة للرأى الآخر المعارض ولو كان من غير أهل وطنها .

إننا نطالب رئيس جمهورية مصر أن يسحب قواتنا العسكرية المصرية من منطقة الخليج خاصة بعد انتفاء كل زعم باحتمال وقوع عدوان عراقى على هذه الدول بل وأصبحت هى قاعدة القوات العسكرية التى تهاجم الشعب العراقى .

إننا نطالب رئيس الجمهورية أن تكون وسائل الإعلام منصفة بأن تتضمن مساحة متساوية للآراء المختلفة ولجميع وجهات النظر .

إننا نطالب جميع ملوك وأمراء ورؤساء الدول الإسلامية والعربية أن يعملوا على وقف هذه الحرب فورًا ، فلن يخرج أحد منهم منها إلا وهو خاسر كل الخسران ولن يستفيد منها إلا العدو الصهيونى وحلفاؤه من الأمريكان والإنجليز والفرنسيين وغيرهم من أعداء الأمة الإسلامية .

إننا نضم صوتنا إلى أصوات الشعوب والحكومات التى تنادى بإيقاف هذه الحرب فورًا فالحل السلمى ممكن ومتيسر ، وحل القضية الفلسطينية وإنصاف الشعب الفلسطينى ضرورة لأزمة حتمية .

إننا نعتذر إلى الله تبارك وتعالى ونحمل حكوماتنا وشعوبنا مسئوليتهم أمام الله وأمام التاريخ وأمام الأجيال المقبلة التى ستتحمل أوزار هذا البلاء الذى لامثيل له فى التاريخ والذى نزل بأمتنا فأحاط بها من كل جانب ، وأدخلها فى متاهات وظلمات لامخرج منها إلا أن نعود إلى ربنا ونثوب إلى رشدنا ونزكى أنفسنا ونخضع لحكم الواحد القهار العدل الحكم ، ملتزمين شريعته الغراء التى تأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وتنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى . والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون .

وصلى اللهم على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه أجمعين .

محمد حامد أبو النصر

المرشد العام للإخوان المسلمين

ملحق رقم (٥)

بيـان
إلـى الأمـــــة

زلزل الضمير العربى واهتزت قوائم الأمن فيه حين فاجأته مع فجر الثانى من أغسطس أنباء كارثة غزو النظام العراقى للكويت ، فى أعقاب خلاف بين البلدين العربيين الشقيقين حول أمور نفطية ومالية وحدودية لم يستنفد الطرفان وسائل إحتوائه بالطرق السلمية والقانونية المتعارف عليها عربيًا ودوليًا . . ثم حين توالت مضاعفات ذلك الغزو وتداعت نتائجه السيئة الخطيرة ، متمثلة فى تصدع الموقف العربى تصدعًا هائلاً وفى انهيار كامل للإحساس بالأمن فى نفوس كل العرب من المحيط إلى الخليج . .

وبلغت تلك المضاعفات ذروتها باحتشاد عسكرى غير مسبوق فى حجمه وتعدد أطرافه لقوات أجنبية مسلحة بأخطر الأسلحة وأشدها فتكًا ، مهيأة للقيام بأعمال قتالية وسط جموع العرب والمسلمين ، وموجهة - بصفة خاصة - إلى العراق الشقيق الذى يحتل شعبه فى نفس كل عربى وكل مسلم مكانة تناسب مكانته الحضارية وعطاءه الموصول فى خدمة القضايا العربية .

ولقد أخذت نذر الشر المحدق تتجمع فى سرعة كبيرة ، وأكثر القادة العرب فى مواجهتها حائرون عاجزون ، مكتفون بإعلان المواقف والتقاذف بالاتهامات على نحو يؤكد فى الضمير العربى معالم التردى والعجز المتوطن فى بلاد العرب والمسلمين وهم يقفون على مشارف قرن جديد يواجهون فيه أخطر التحديات فى حياة الأمة فى ظل وضع دولى جديد تتزايد فيه مخاطر هيمنة الغرب على عالمنا العربى والإسلامى .

إزاء هذا الموقف وسط نذر الشر المحدق يتوجه نفر من علماء الأمة ومفكريها وذوى الرأى فيها إلى جماهير الأمة العربية والإسلامية ومؤسساتها السياسية والثقافية والتشريعية . . إلى المحكومين والحكام . بدعوة واضحة للإصغاء إلى صوت العقل ، ونداء الضمير وأمانة المسئولية عن أرواح العرب والمسلمين ومصالحهم وأملهم فى المستقبل ، وليتخذوا - انطلاقًا من ذلك كله - إجراءات سريعة لمحاصرة الأزمة ومنع تحولها إلى كارثة قومية وإنسانية .

إزاء هذا التردى ، وفى مواجهة تلك المخاطر المتفجرة نتوجه إلى الأمة بهذه المبادئ والمواقف والإجراءات التى نراها بعض معالم الطريق لتجاوز الأزمة ووقف التدهور :

١ - إننا نؤمن بأن اجتياح جيش عربى مسلم لأرض دولة عربية مسلمة وضمها وإلحاقها - بصرف النظر عن الدعاوى والمبررات - إنما يمثل جريمة نكراء تصيب - فى مقتل - حق الشعوب فى تقرير مصيرها وممارسة سيادتها على أرضها ، وحريتها فى إدارة شئونها . . كما تمثل إهداراً خطيراً لقيم الأمة العربية والإسلامية ومبادئها الكبرى ، وانتهاكًا لايتصور الدفاع عنه لكل الشرائع والمواثيق والعهود التى تحكم النظام العربى والإسلامى والدولى . . وأن الاعتراف بثمرة الجريمة جريمة أخرى ، كما أن التخلى عن العمل السريع لإزالتها هو استسلام لغرائز الشر وقانون الغاب .

٢ - إنه إذا كانت جريمة إحتلال الكويت وتغيير نظامها بالقوة وإلحاقها بالعراق قسرا هى منكرا شديداً تنبغى مقاومته وتغييره باليد والقلب واللسان ، فإن هذه المقاومة وذلك التغيير ينبغى أن يظلا دائمًا وأبدًا أعمالاً عربية وإسلامية خالصة . . لأن موالا الأجنبى واللجوء إلى تدخله وخاصة إذا كان سجله حافلاً بالتنكر السافر لحقوقنا والعدوان المستمر على مصالحنا ، والكيل بكيلين مختلفين فى تعامله مع قضايانا وفى مقدمتهاقضية فلسطين ، هو لجوء إلى منكر لايقل شراً ولا خطراً ، وإرساء لسابقة من شأنها أن تفتح الأبواب واسعة أمام المزيد من التدخل الأجنبى فى شئوننا ، بما يهدد الأمل فى إقامة نظام عربى مستقل تحركه إرادات عربية ويوجهه الحرص على المصالح العربية .

إننا ننبه إلى أن التدخل الأجنبى فى شئوننا يستهدف - أولاً وأخيرًا - حماية المصالح الأجنبية ، ولو أدى ذلك إلى تحطيم قوة كل الشعوب العربية ، ومنها شعب العراق الشقيق .

إن الإصرار على إبعاد شبح التدخل الأجنبى البغيض هو الذى يملى علينا جميعًا أن نختار البديل الصعب ، وأن نتعاون - بعمل عربى وإسلامى خالص - على إزالة العدوان الذى وقع ومحو آثاره ، ورد اعتبار الشرعية العربية التى انتهت واستهين بها .

إن الهدف العاجل المراد بلوغه والأزمة فى ذروتها ، هو رد العدوان وتصحيح الخطأ الجسيم الذى تورط فيه نظام العراق ، فلماذا لم تقم بهذه الغاية قوة العرب والمسلمين ، وكان لابد مما ليس منه بد ، فإننا نصر على أن يكون التحرك الدولى لإزالة هذا المنكر ، تحت مظلة الأمم المتحدة وباسمها ، وليس تحت علم أى دولة غربية أو شرقية بعينها ، وفى ذلك إرساء لمبدأ دولى مؤداه أنه إذا عجزت دولة من الدول أو نظام إقليمى من النظم عن رد العدوان على سيادته وحريته ، فإن النظام الدولى الذى تمثله الأمم المتحدة يكون وحده صاحب الحق المشروع فى التدخل لرد العدوان وإعادة الشرعية ، ووضع الأمور فى نصابها .

٣ - وإذا كان الوقت لم يحن بعد للحديث الواضح والصريح حول جذور الخلل فى حياتنا العربية ، المسئول عن وقوع الكارثة التى وقعت . . وإذا كنا نحرص ، والأزمة لاتزال تقترب من ذروتها ، على أن نجمع الكلمة حول المبادئ التى بيناها ، فإنا - مع ذلك - نذكر بخطيئتين كبيرتين شاركنا فيهما جميعًا بأنصبة متفاوتة :

* الخطيئة الأولى : السكوت على الظلم ، والإغضاء عن الانتهاكات العديدة للحرية فى حياتنا داخل أقطارنا ، وفى ممارساتنا تجاه بعضنا البعض ، إن تكريم الإنسان واحترام حرياته وحقوقه ركن ركين فى حضارتنا العربية والإسلامية ، ومع ذلك فإن أكثرنا فى اندفاعه وراء حسابات المصالح العارضة ، والملاءمات السياسية العابرة ، قد أغمض عينيه عن صور منكرة من صور إهدار الحقوق والحريات ، واستباحة كرامة الأفراد والأقليات ، وإذلال المخالفين والمعارضين . . حتى فى أهون القضايا وأصغر الأمور . ونسينا أن الظلم ظلمات ، وأننا حين نقبله لغيرنا ، فلن يكون من حقنا أن نرده عن أنفسنا .

* الخطيئة الثانية : أننا أهدرنا قيمة أخرى كبيرة من قيم حضارتنا العربية الإسلامية وهى قيمة الشورى التى يشارك بها الناس مشاركة حرة حقيقية فى إدارة شئونهم ، استنادًا إلى أن الناس سواسية وإن تصرف الواحد فى المجموع ممنوع . . فكان إن ارتفعت الزعامات فوق الهامات وأحيط الحاكم الفرد - فى كثير من البلدان - بقدسية وثنية تدمر الإحساس بالكرامة وتذكى كل قيم الاستبداد والطغيان .

إن المغامرات العدوانية التى تتورط فيها بعض الأنظمة العربية ، والقرارات المزاجية التى تنتقل بها أنظمة أخرى من النقيض إلى نقيضه ، ماكان يمكن أن تقع وأن يدفع ثمنها عشرات الملايين من العرب والمسلمين ، لو كانت أمورهم شورى بينهم ، ولو قامت فيها مؤسسات مسئولة أمام شعوبها .

يا أبناء الأمة العربية . . ويا أبناء الأمة الإسلامية . .

ويا كل المصريين . .

هذه قولة حق ، ندين بها العدوان العراقى على الكويت ونعن إصرارنا على رده بكل سبيل ، وندعو إلى عمل عربى إسلامى خالص لمحاصرته وتغيير المنكر الذى تورط فيه . . كما ننبه بها إلى مخاطر التدخل الأجنبى الذى حذرت منه وحاربته كل القوى العربية والإسلامية المخلصة الواعية على امتداد السنين . . ونحمل المعتدين المغامرين المسئولية التاريخية عن وقوعه . . كما ننبه - فى النهاية - إلى ضرورة اقتلاع جذور العوج من حياتنا . . باحترام حريات الأفراد والشعوب ، وصيانة حقوقهم وتمكينهم من المشاركة - بالشورى - فى إدارة شئونهم ، وتصفية كل صور الظلم السياسى والاجتماعى والاقتصادى ، فى ممارسة السلطة وتوزيع الثروة على السواء .

﴿ والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ﴾

ألا هل بلغت ، اللهم فاشهد ، ، ،

الموقعون :

الشيخ محمد الغزالى - د. مصطفى الشكعة - د. أحمد كمال أبو المجد - د. أحمد هيكل - خالد محمد خالد - د. سلطان أبو على - أحمد بهجت - الشيخ محمد مصطفى شلبى - د. محمد عمارة - د. نعمات أحمد فؤاد - د. محمد سليم العوا - أنور الجندى - د. جمال الدين عطيه - د. عبدالحميد الغرابى - د. إجلال رأفت - د. عبد الصبور مرزوق - د. صلاح عبد المتعال - د. ليلى عنان - د. حسن شافعى - د. سيد دسوقى - عادل عيد - د. سعيد اسماعيل - على عبدالحليم - محمد أحمد - د. محمود حمدى زقزوق - د. صافيناز كاظم - السيد الغضبان - محفوظ عزام - د. حسن رجب - ابتسام الهوارى - محمد المعلم - د. عبدالودود شلبى - د. عوض محمد عوض - د. حامد الموصلى - د. أحمد شوقى حفنى - المستشار عثمان حسين - د. زكريا حسنين - د. بهيرة صيام - د. زكريا مطر - د. عبد الغنى عبود - د. تغريد عنبر - مهجى مشهور - فهمى هويدى .

ملحق رقم (٦)

بيان
إلى الأمة

فى هذه الأيام الحرجة والحزينة من تاريخ أمتنا ، وبعد أن تحولت أزمة الخليج إلى حرب مدمرة تسيل فيها الدماء . . وتدمر المنشآت وتتحطم وتهدر الإمكانات التى أرادتها الأمة رصيداً للتحرير والبناء والرخاء . . يتوجه - من جديد - نفر من علماء الأمة ومفكريها ومثقفيها إلى جماهيرها وحكوماتها وأحزابها ونقاباتها وجامعاتها وهيئاتها بهذا البيان .

فلقد كان المأمول من إصدار بياننا الأول يوم ١٥ أغسطس الماضى ، ومن جميع النداءات والبيانات التى وجهتها القوى الوطنية منذ وقوع الغزو العراقى للكويت ، أن ننبه أولى الأمر فى الأمة إلى ضرورة قطع الطريق على التداعيات الخطيرة للغزو العراقى وأهمها اتساع نطاق التدخل الأجنبى وتعريض الزمة العربية والإسلامية للهلاك والدمار .

ولكن هذه الآمال تبددت وضاعت على صخرة العناد والصلف . . كما تبددت بسبب العجز العربى عن اتخاذ موقف موحد حاسم يدين العدوان ويعمل على إزالته . . وبسبب اندفاع القوى الأجنبية ، تقودها الولايات المتحدة إلى مباشرة الدور الأكبر فى محاولات حل الأزمة .

وكان ما كان من بداية الأعمال العسكرية بعنف واتساع لم يسبق لهما مثيل فانطلقت آلاف الطائرات تصب أسلحة الهلاك والدمار على المنشآت والأهداف العراقية داخل العراق وفى الكويت . . وانطلقت الصواريخ العراقية موجهة إلى دول عربية وإسلامية . . وما زالت حلقات المواجهة العسكرية تتابع وتتصاعد .

ولقد تم ذلك كله تحت مظلة - لا سابقة لها فى التاريخ - من القصف الإعلامى المتواصل .

فإذا بالبعض - وتلك كارثة - يهللون لضرب العراق ، ولاتهتز فيهم شعرة لتدميره وهلاك أبنائه العرب المسلمين .

وإذا بالبعض ، يهوله مايسمع ومايرى فيطالب بوقف الحرب ، بغير إطار شامل يكون فيه هذا الوقف مدخلاً حقيقيًا لحل سائر عناصر الأزمة .

وإذا بعقلاء الأمة وقادتها تفقدهم جسامة الأحداث وسرعتها قدرتهم على المبادرة والمبادأة واتخاذ القرار .

وإذا بالضمير العربى المسلم يعيش أزمة جديدة تتوزعه فيها الرغبة فى تحرير الكويت وتحقيق انسحاب القوات العراقية من أرضها . . مع الرغبة فى المحافظة على شعب العراق ومنشآته ومنجزاته واستقلاله ووحدة ترابه .

وسط هذه الحيرة نتوجه بهذا النداء ساعين إلى التذكير من جديد بالسياسات والمبادئ وكبريات المصالح العربية والإسلامية التى لا يجوز التضحية بها أو التفريط فيها .

* **أولا** : ينبغى ألا تضيع فى زحام الحوادث ووسط دوى المدافع والقنابل معالم الموقف المبدئى الذى أعلناه وأعلنه أكثر العرب والمسلمين منذ بدأت الأزمة . . وهو مبدأ إدانة العدوان ، ورفض احتلال العراق للكويت ، والمطالبة بالانسحاب الكامل للقوات العراقية من الكويت انسحابًا عاجلاً لحقن الدماء وبفتح الباب لتسوية كل مانشأ بين الجارتين العربيتين من خلافات . . وحسبنا وحسب النظام العراقى أنه أضاع فرصًا عديدة وثمينة لتحقيق السلام ورأب الصدع وتجنب المواجهة العسكرية التى تحمل معها الهلاك والدمار ، لشعب العراق أولا ولبقية الشعوب العربية والإسلامية ثانيًا .

* **ثانيا** : لقد حذرنا من قبل ونبهنا إلى خطر الوجود العسكرى الأجنبى على أرض العرب ، كما نبهنا إلى أن أهداف هذا الوجود الأجنبى ليست هى أهداف العرب والمسلمين ، بل أنها تتناقض مع هذه الأهداف ، وذكرنا بما عانيناه على أيدى الدول الكبرى عشرات من السنين من استخفاف بحقوق العرب الواضحة والمشروعة وتجاهل صارخ لمبادئ العدل والقانون والشرعية الدولية فى التعامل مع تلك الحقوق ، على نحو ما ظهر ولايزال يظهر فى الموقف الدولى من الحقوق ، والمطالب الأساسية المشروعة للشعب الفلسطينى .

وإذا كانت القوات الأجنبية تباشر اليوم عمليات عسكرية تتجاوز مهمة تحرير الكويت ، لتصل إلى تدمير العراق ، فإن واجبنا الوطنى والتزامنا العربى والإسلامى يفرضان علينا أن نسعى إلى خروج تلك القوات من أرضنا فور تحرير الكويت أو فور التوصل إلى اتفاق بإنهاء القتال وبدء تنفيذ تسوية سلمية شاملة للأزمة . . وأن نعمل على التعجيل بهذا الخروج بتكوين قوة سلام وردع عربية وإسلامية تحل محل القوات الأجنبية ، محاجزة بين حدود العراق وحدود الكويت ، على أن تؤدى مهمتها فى إطار اتفاق شامل للسلام والمؤاخاة ، وتحت مظلة الجامعة العربية والمؤتمر الإسلامى .

* **ثالثا** : أننا نفهم أن الجيوش العربية والإسلامية التى تجمعت على أرض المملكة العربية السعودية لا تضمر عداء لشعب العراق ويعز عليها كما يعز على كل عربى وكل مسلم أن تمتد يدها بالأذى والتدمير إلى منجزات العراق ومنشآته ، وإنما تجمعت تلك الجيوش لتحقيق هدفين لا ثالث لهما ، أولهم : الدفاع عن المملكة العربية السعودية وجميع دول الخليج ، والثانى : تحرير الكويت إحقاقًا لحق وإقامة للعدل

ودفعًا للبغى وقيامًا بحق المواثيق والعهود التى تربط الدول العربية والإسلامية ، وتمنع أن يعتدى بعضها على بعض .

لذلك فإننا ندعو الحكومات العربية التى أرسلت تلك الجيوش إلى أن تستخدمها فى إطار هذين الهدفين ، وألا تجاوزهما إلى التورط فى أعمال تدمر العراق ومنشآته ، إذ لايزال الأمل الكبير يراودنا فى أن تعود قوة العراق - بعد انجلاء الغمة - قوة للعرب وذخرًا للمسلمين ، توازن ما تمتلئ به خزائن خصومنا من قوة وبأس وسلاح .

* **رابعا** : لقد نبهنا وننبه إلى أن العدو الأول لأمتنا العربية والإسلامية هو الكيان الصهيونى الذى يغتصب أرض فلسطين ، ويستعد الآن لجولة جديدة من العدوان مستفيدًا من الوجود العسكرى الأجنبى الذى هو أحد تداعيات الاجتياح العراقى للكويت مستغلاً ما يضاف إلى رصيده البشرى بهجرة اليهود السوفييت ، وقدراته العسكرية من إمكانات جبارة تأتيه من الدول الكبرى ، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية .

إلى هذا العدو ينبغى أن تتوجه كل قوة وقيادة عربية ، اليوم وغدًا ، توجهًا صادقًا مخلصًا ، لا توجه العابثين بأخطر قضايا الأمة ، الباحثين عن زعامات زائفة وأمجاد موهومة .

* **خامسا** : إن بدء المواجهات العسكرية وتصاعدها على النحو الذى نراه ، لايمكن أبدا أن يكون سببًا يسوغ التوقف عن بذل الجهود السياسية لاحتواء الأزمة وتجنب المزيد من الدمار . ولذلك فإننا ندعو إلى استئناف فورى للجهود السلمية من أجل وقف المذبحة وإعادة السلام إلى عالمنا العربى قبل أن تأكله النـار .

إننا ندعوإلى بدء الانسحاب العاجل من الكويت ، وإلى الوقف الفورى للأعمال العسكرية ، مع تعهد متبادل من الأطراف العربية فى النزاع بالاجتماع فى موعد محدد لتسوية الأزمة على أساس من استقلال الكويت التام ، واستعداد لمناقشة المطالب العراقية بغير شروط . وتعهد دولى بالامتناع عن الاعتداء على العراق .

* **سادسًا** : لقد نبهنا من قبل إلى أن الكارثة التى تعيشها أمتنا هذه الأيام ما كانت لتقع قط لو أن أمورالعرب والمسلمين كانت تدار على قاعدة الشورى واحترام حقوق الناس . ونقول اليوم أن جماهير العرب والمسلمين لن ترضى بعد هذه المحنة أن تساق على هذا النحو المنكر لتستعلى بها فئة على فئة . ولتبغى طائفة على طائفة . ولينتهب فيها قطر خيرات قطر آخر .

كما نبهنا إلى أن قاعدة الشورى تتممها فى النظر الإسلامى وفى تجارب الشعوب قاعدة أخرى هى قاعدة العدل فى توزيع الثروة حتى لا يتجاوز الفقرالمذل مع الثراء المفسد المضل . فتستعربذلك التجاوز نيران التباغض . وتقوم - بسببه - ألوان من الصراع . ونعود اليوم فنقول بأعلى صوت . . وأوضح عبارةأن العالم العربى لن يكون - بعدهذا الذى حدث - كماكان قبل حدوثه .

وتبقى فى النهاية كلمة ، ذلك أننا قلنا ما قلناه . وعدنا اليوم فذكرنا به ورددناه ونحن نعلم أن العدوان العراقى على الكويت قد فجر فى العقول والقلوب فتنة عمياء مظلمة كظلام الليل ، غاب فيها الحق عن أعين مبصرة واختلطت فيها الأمور على كثير من ذوى الألباب . . ولذلك فإن العقول والصدور ينبغى أن تتسع لخلاف المخالفين فى الرأى . فهم جميعًا مجتهدون يصيبون ويخطئون ، وليسوا - أبدًا - خونة ولا منشقين ، وينبغى - لذلك - ألا يضيق بهم أو برأيهم حاكم ولا محكوم .

والله تعالى يقول الحق وهو يهدى السبيل .

الموقعــون :

محمد الغزالى - د. يوسف القرضاوى - د. أحمد كمال أبو المجد - د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) - محمد عمارة - د. مصطفى الشكعة - د. محمد مصطفى شلبى - د. جمال عطية - د. محمد سليم العوا - نعمات أحمد فؤاد - د. أحمد حسن الصاوى - فريد عبد الخالق - أحمد بهجت - د. سيد دسوقى حسن - حسن دوح - د. سعيد إسماعيل على - د. صلاح عبد المتعال - محمد المعلم - عقل عيد - د. عوض محمد عوض - د. أحمد المهدى - د. عبد الودود شلبى - د. حامد الموصلى - د. أحمد شوقى الحفنى - محفوظ عزام - مدحت أبو الفضل - فهمى هويدى .

ملحق رقم (٧)

بيــان للناس
فى أزمـــة الخـــليج

منذ الاجتياح العراقى الغاشم للكويت ومنطقة الخليج العربى تتعرض لعملية تدمير شاملة : تدمير عسكرى واقتصادى وسياسى وبيئى لم يسبق لها مثيل فى تاريخ البشرية ، وهى منطقة إسلامية عزيزة على كل نفس مسلمة .

وقد بلغ هذا التدمير مداة منذ بداية المواجهة العسكرية الفعلية التى تمثلت فى عشرات الآلاف من الطلعات الجوية الصاروخية التى راح ضحيتها مئات الآلاف من المدنيين والعسكريين ، ونتج عنها تدمير البنية الأساسية لدولتين عربيتين هما الكويت والعراق .

وإذا استمرت هذه الحرب الشرسة فسوف تنتهى بالقضاء التام على هاتين الدولتين المسلمتين اللتين تشكلان عمقًا استراتيجيًا هامًا للأمة وثقلاً هامًا فى ميزان القوى العسكرية فى المنطقة .

وسوف يؤدى ذلك - إذا لم نتدارك الأمر - إلى إعادة تخطيط المنطقة بالكامل بأيدى القوى الدولية التى قد تتعارض مصالحها مع مصالح أهل المنطقة جميعًا .

والمخرج من هذه الفتنة الداهمة أن يتداعى أهل الحل والعقد فى الأمة الإسلامية فوراً للضغط على حاكم العراق بكل الوسائل الممكنة للإعلان عن قبوله الانسحاب من الكويت ، حقنًا لدماء المسلمين ، وصونًا للبقية الباقية من إمكاناتهم ، وضرورات حياتهم ودرءاً لذرائع القوى الدولية للوجود فى المنطقة والتحكم فى مقدراتها ، لأنه هو المتسبب فى كل الكوارث التى تتعرض لها المنطقة الآن ، كما تسبب فى فرقة المسلمين منذ انهيار الخلافة الإسلامية حول حدث مثلما تفرقت حول الأزمة الراهنة فى الخليج العـربى .

وبينما الأصل أن المسلمين أبعد الناس عن الفرقة ، لاستلهامهم مواقفهم من أصلين ثابتين معصومين هما الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة ، فإن العالم كله - وشباب الحركة الإسلامية خاصة - قد فوجئوا بالمواقف المتباينة التى اتخذتها بعض القيادات السياسية والإسلامية على اتساع العالم .

من أجل ذلك ، ورداً للأمور إلى موازين الإسلام الصحيحة وأصوله الثابتة ، فإن الموقعين على هذا البيان من العلماء والكتاب والمفكرين والقياديين الإسلاميين ، رأوا أن من واجبهم ردّ الأمة إلى كلمة سواء ، تفرق بين الحق والباطل ، وتضع ميزان القسط للعقل المسلم والحركة الإسلامية فى هذه الفتنة الظلماء .

ولا شك أن الغزو العراقى للكويت عدوان وظلم لا مبرر له ، أجمع العالم كله على رفضه وإنكاره وإدانته لما فيه من نقض للعهود والمواثيق ودمار للمقدرات والحقوق ، والعراق بصفته عضواً فى المحافل

والمنظمات الدولية مُطالب بالالتزام بعهودها ومواثيقها . ولم يختلف أحد على إدانة غزو العراق للكويت وإنكاره واعتباره بغيًا واغتصابًا وتعديًا على حقوق الغير . وإدانة هذا الغزو ليست من الإجماع الدولي وعهوده ومواثيقه فحسب ، بل هو مدان كذلك من الله الذى أرسل الرسل بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط .

وللإسلام موقفه البيّن الواضح في دفع الظلم ومحاربة البغي والفساد ، وهو يحرر ضمير المسلم من الميل إلى الظالمين أو السكوت عنهم أو الركون إليهم ﴿ ولاتركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثم لاتنصرون ﴾ (هود : ١١٣) ، وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا فقال رجل : يا رسول الله أنصره إذا كان مظلومًا ، أرأيت إن كان ظالمًا كيف أنصره ؟ قال : تحجزه - أو تمنعه - من الظلم فإن ذلك نصره » . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا ، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوا ونَجْوا جميعًا » .

هذا ما أمر الله به وقضى الرسول صلى الله عليه وسلم فيه : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرًا أن يكون لهم الخِيرَةُ من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبينًا ﴾ (الأحزاب : ٣٦) .

وقضية غزو الكويت - بلا أدنى خوف - قضية ظالم معتد ومظلوم معتدى عليه ، والمسلمون مطالبون بأمر الله ورسوله أن ينصروا هذا وذاك . أن ينصروا المظلوم بدفع الظلم عنه ورد الحقوق إليه ، وأن ينصروا الظالم بالأخذ على يده واسخلاص الحق منه ، فعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرًا ولتقصرنه على الحق قصرًا أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض » .

وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال : « يا أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ (المائدة : ١٠٥) ، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه » .

هذا ما يجب على المسلم : أن ينصر الظالم والمظلوم بالمفهوم الإسلامى لا بحمية الجاهلية ، أن يأخذ على يد الظالم ولو كان من أهله وعشيرته وأن ينصف المظلوم ولو كان بعيدًا عنه أو عدوًا له ، ﴿ولَمَن انتصر بعد ظلم فأولئك ماعليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم﴾ (الشورى : ٤١-٤٢) ، ولاشك أن تقصير المسلمين فى دفع ظلم صدام والأخذ على يديه قد أدى إلى تدويل الأزمة وخروجها عن الإطار العربى الإسلامى إلى الإطار الدولى وإلى تعرض المنطقة كلها إلى دمار شامل وهى منطقة إسلامية لها أهميتها الاقتصادية والاستراتيجية البالغة .

ولو أن العرب والمسلمين أجمعوا من اللحظة الأولى على الوقوف أمام العدوان وهبت حكوماتهم وشعوبهم فى وجه المعتدى لارتدع ولم يجد ما يشجعه على الإصرار والمكابرة ، اللذين كان لهما كل الأثر فيما وقع ويقع من كوارث ومصائب .

ومن أهم آثار العدوان العراقى على الكويت ، وكلها يصيب الأمة الإسلامية فى صميم كيانها وفى سمعتها وفى مستقبلها :

أولاً : إعطاء القوات الأجنبية كل المبررات المزوَّدة بالحجة من قبل المنظمات الدولية للتدخل بالقوة فى منطقةالخليج بعد طول إصرار ومكابرة وعناد من قبل صدام ودون إبداء لأى مرونة فى الانسحاب من دولة الكويت التى اغتصبها ، والمظهر العام لهذه القوات هو حماية بعض العرب من شر بعض وإن تعددت الأغراض وتنوعت المقاصد ، فجمع بفعلته المشينة بين ظلم الجار وخراب الديار وإلحاق العار .

ثانيًا : الإساءة البالغة لقضية فلسطين حيث زعم أنه احتل الكويت بدعوى تحرير فلسطين ، وخلط بينها وبين عدوانه على قطرعربى شقيق ، فحقق لإسرائيل من المكاسب والمبررات ما لم تكن تحلم به وأعطاها من التأييد السياسى والمادى والعسكرى ما لم تكن تتوقعه ، حين ألقى عليها من الصواريخ الإعلامية ما ألقى ، فجعلها تبدو أمام العالم بالحَمَل الوديع الذى يستدر عطف الناس ويستجدى دعمهم، فى الوقت الذى دمَّر فيه مقدرات قومه وشغلهم بأنفسهم عن عدوهم وأزهق دماءهم وثرواتهم وعرّض مستقبلهم لأسوأ مصير ، وبَدَل أن يتجه إلى إسرائيل بما أحرز من قوة - استمدها من قومه - ليجمع كلمة المسلمين على قضيتهم الكبرى اتجه بالقوة التى أعطيت له إلى بلد شقيق ففرق كلمتهم وأبقى على أبناء صهيون وافرين غانمين .

ثالثًا : أساء صدام حسين إلى دعوة الإسلام العالمية أيما إساءة حين نسب نفسه بفعلته إليها ، واستقطب نفرًا من الإسلاميين ممن خدعوا بالشعارات التى أطلقها وعباءة الإسلام التى لبسها واعتبروا هذه النداءات الزائفة بالجهاد توبة منه مما كان عليه من بعد عن الدين وإساءة إلى أهله مع أن فساده وفساد حزبه لازالا قائمين ، ومع أن إصراره على خطيئته فى الاستمرار فى احتلال الكويت الذى يبرهن تمامًا على عدائه لمقاصد الإسلام وعلى أنه لم يُسلم وجهه لله الذى حرّم الظلم على نفسه وجعله بين عباده محرّمًا ، وكان من الواجب على هؤلاء - وهم مسلمون - أن يبينوا له حكم الله فى الفواجع التى أوجدها والكوارث التى حققها والمصائب التى امتدت بفعلته إلى حياة الناس من قبل ومن بعد ، فقد كان من الواجب أن يرد الكويت إلى أهلها وأن ينسحب منها استجابة لأمر الله أولاً . وأن يرد الحق إلى أهله ثم ليتحدث بعد ذلك عن الإسلام وقد برئت ساحته وصحت توبته .

وإذا كانت القوات الأجنبية التى يتحدث عنها ويدعى أنه يعلن الجهاد ضد وجودها بالمنطقة ثمرة من ثمرات فعلته فعليه أن ينسحب من الكويت ليبطل الحجة ويقطع المعذرة ، ولكن صدّامًا أصر واستكبر وأبى أن يستمع إلى نصح الناصحين فوقع ما يخشاه كل مسلم غيور على أمته حريص عليها .

وأى إسلام هذا الذى يخاطب الناس به وهو يصرعلى ما فعل ؟ والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين » ، ويقول « من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرّم عليه الجنة . فقال رجل : وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله ؟ فقال : «وإن قضيبًا من أراك » .

أى إسلام هذا الذى يخاطب الناس به وهو يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرًا كأن لم يسمعها ؟

إن الإسلام دعوة الله للعالمين وهودين الرسل جميعًا . والعالم كله قد غدا - بوسائل العصر - فى بيت واحد . والأمم تتأثر بما ترى وتسمع فى عالم لم تعد فيه حدود ولا سدود . فإذا أراد صدام وغيره أن يخاطب الناس بالإسلام فعليه أن ينصف الإسلام من نفسه وأن يصدق مع الله فى الوفاء له برد الحقوق إلى أهلها . وأن يخاطب العالم بوحدة الأمة الإسلامية لا بفرقتها وبالتراحم فيما بينها وألا يكون حملاً

على الإسلام بظلمه ظلمين ؛ ظلم الحديث عنه وهو لم يحمله بل حُمِلَ عليه ، وظلم صدّ الناس عنه وفتنته عن الدخول فيه وهم أحوج ما يكونون إليه .

وأى جهاد هذا الذى يدعو صدام المسلمين إليه ؟ جهاد لدفع ظلم صدام أم جهاد لإقراره ؟؟ ! جهاد لإعلاء كلمة الله أم جهاد لتحقيق هوى صدام ومطامعه ؟ ولو كان فى ذلك دمار العراق وتحطيم قوته العسكرية ودمار المنطقة بأسرها .

فى الحديث المتفق عليه أن أعرابيًا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، وفى رواية : يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، وفى رواية يقاتل غضبًا ، فمن فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » . فأين الغاية التى يريد أن يقاتل من أجلها . وهى فى الإسلام غاية واحدة لا يصح غيرها ولا يقبل سواها ؟ والمسلمون جميعًا يعلمون أنه ظالم فيما فعل فهل نقاتله لتعلى كلمة الله فى دفع الظلم ؟ أم نقاتل القوات الأجنبية التى جاءت - فى ظاهر أمرها - من أجل فعلته التى فعل وهو من الظالمين ؟ وهو موقف فتن المسلمين فتنة كبيرة وفرق كلمتهم وشتت شملهم ، وأهدر ثرواتهم ومقدرات حياتهم .

لماذا نجعل الناس يغضون الطرف عن جريمته - وهى السبب فى مجىء القوات الأجنبية بهذه الأعداد الهائلة والعدة المرعبة - وهو لا يقصد حربهم ولا حرب إسرائيل وإنما يقصد البقاء على ظلمه وشغل الناس عن جريمته . إن إزالة السبب هى الأصل فى إزالة ما ترتب عليه . فليتق الله وليستجيب لنداء الحق وليعلم أن الله لا يصلح عمل المفسدين .

وليتق الله كل مخدوع فى شعارات صدام الزائفة ، وفى اتخاذه شعار الإسلام دثارًا لإخفاء إجرامه وعدوانه وتبرير ظلمه وبغيه ، ونسيان جرائمه السابقة فى حق المسلمين بعامة ، وبنى وطنه وجيرانه الأقربين بخاصة ، وجرائمه الراهنة التى تهدد بإفناء شعبى العراق والكويت المسلمين وتدمير المنطقة بأسرها ، وتعريض العالم لحرب عالمية ثالثة لا يعلم عواقبها إلا الله .

وليكن الحق رائد الجميع فى القول والفعل ، فإن الحق يعلو ولا يعلى عليه ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . « اللهم قد بلغنا . . اللهم فاشهد . . » .

توقيعات :

- الشيخ محمد الغزالى - الأستاذ صالح أبو رقيق - الأستاذ فريد عبد الخالق - الشيخ مناع القطان - الشيخ محمد الراوى - د. زغلول النجار - الأستاذ عبد العظيم لقمة - الأستاذ عفت عباس - الأستاذ حسن دوح - الأستاذ شمس الدين الشناوى - الأستاذ أحمد عادل كمال - المهندس مراد جميل الزيات - د. فاروق عباس سيد أحمد - اللواء كمال عبد الرازق - د. محمد سليم العوا - الأستاذ سالم البهنساوى - الأستاذ حامد سليمان - الأستاذ أحمد بهجت - د. صلاح عبد المتعال - المستشار فهمى عبد العاطى - د. عبد الصبور شاهين - الأستاذ أحمد رائف .

ملحق رقم (٨)

غـــزو العــراق

سوف أجيب عن هذه الأسئلة الثلاثة على الرغم من أنى أنكر على الناس أن يبحثوا عن الشرعية الدينية فى كل واقعة وفى كل أمر يحدث . إن الشرعية الدينية لا تكون إلا فيما ورد فيه نص واضح قطعى الدلالة ووارد مورد التكليف أما ما عدا ذلك فهو من باب العفو - أى مما تركه الله سبحانه وتعالى للبشر على أنه من مصالحهم الخاصة بهم والتى قد تتغير بتغير الأزمنة والأمكنة .

والإجابة عن السؤال الأول وهو البحث عن غزو العراق للكويت وموقف الشريعة الإسلامية منه هى :

إن ما يسمى عند البعض غزواً للكويت قد يسمى عند البعض الآخر بضم الكويت للعراق أو باجتياح الكويت أو باحتلال الكويت وما إلى ذلك .

والصيغة التى يمكن أن ينصب عليها الحكم الشرعى الإسلامى هى أن دولة عربية إسلامية قد ضمت إليها دولة عربية إسلامية صغرى وهذا من وجهة نظر الشريعة ليس من المحرمات فدار الإسلام دار واحدة ودولة الإسلام دولة واحدة والعمل فى سبيل توحيد ما كان من قبل واحداً بالقضاء على التجزئة لا يمكن أبداً أن يدخل فى باب الحرام . . .

ويكون هذا العمل من باب المندوب حين نعلم أن مثل هذا الضم تخرج به دار الإسلام من الضعف إلى القوة ومن الفرقة والانقسام إلى الوحدة والذين يدخلون هذه العملية من باب التحريم هم الذين يختلط عليهم الأمر بين الملكية العامة والملكية الخاصة فأرض الكويت هنا ليست ملكًا للحاكم وإنما هى أرض الله الواسعة يقيم فيها العرب المسلمون والتى يأذن الله فى الهجرة إليها للعرب المسلمين . .

إن الحاكم لا يملك الأرض وإنما يدير شئون الحياة على هذه الأرض يديرها لصالح الإسلام والمسلمين وليس لصالحه الخاص .

وشرعية الحاكم فى أرض الكويت لم تكن شرعية إسلامية ولم تكن شرعية شعبية وإنما هى فى الأصل شرعية استعمارية فالمستعمر البريطانى الذى كان يحتل هذه الأرض هو الذى اكتشف آبار البترول فى الأرض العربية وهو الذى - إمعانًا منه فى إضعاف الأمة العربية بالتجزئة أقام على كل بير أمير دولة وهو الذى عمل على تعدد الدول بتعدد الإمارات - الأمر الذى يبيح لنا مثلاً أن نقول دولة الآبار البترولية بدلاً من قولنا دولة الإمارات العربية . .

إن الذى صنعه العراق هو القضاء على آثار الاستعمار فى بلادنا وهو الخطوة فى سبيل وحدة دار الإسلام التى قام الاستعمار بتجزءتها والتى ترتب على تجزءتها كيانات عربية إسلامية متفرقة يسعى كل كيان منها فى سبيل مصلحته الخاصة وليس فى سبيل المصلحة العامة . .

أما الإجابة عن السؤال الثانى القائم على مدى شرعية الوجود الأجنبى فى الأرض العربية الإسلامية من أجل إخراج العراق بالقوة من أرض الكويت فأقول :

ليس فى الإسلام أبدًا الاستعانة بغير المسلم على ضرب المسلم ومحاربته وإنما الذى فيه الاستعانة بالمسلم على المسلم .

إن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه والزج بغير المسلم فى ميدان يعلو به على المسلم مع وقوفنا إلى جانبه ـ هو الأمر الذى لا يصلح دينيًا ، إن كل النصوص الدينية الواردة فى القران الكريم إنما تدور حول المصالحة أولاً بين المتقاتلين فإن عجزت المصالحة كان التعاون فة قتال الباغى والتعاون بين المسلمين وليس بين المسلمين وغير المسلمين . .

الإستعانة بغير المسلم على المسلم أمر لا يحيزه الدين .

ثم هناك قيمنا الثقافية الشعبية التى نعرفها جميعا والتى تقول « أنا وأخويا على ابن عمى وأنا وابن عمى على الغريب » إن هذه القيمة الثقافية الشعبية لم تقل أبدًا بما يحدث الآن فى الأرض العربية وهو « أنا والغريب على ابن عمى » .

ليس من الشرعية الإسلامية وليس من قيمنا الثقافية الشعبية أن يستعين المسلم بغير المسلم أو يستعين بالغريب على الأخ أو ابن العم .

والإجابة عن السؤال الثالث المتعلق بما يأمر به الإسلام فى أزمة الخليج وهل هو المسالمة أم الحرب فأقول :

المفروض أن هناك ضررًا قد وقع بالكويت وأن هناك ظلما قد حل بأهل الكويت . والذى أوقع الظلم وألحق الضرر لا يزال فى عناده ، فماذا يكون الموقف الإسلامى وما هى الأداة إلى الخروج من هذا المأزق ؟

القواعد الأصولية الشرعية تقدم لنا الحل على الوجه التالى :

أولا : إذا كانت الأداة تلحق ضررًا أكبر كان الحل هو الإبقاء على الضرر الأصغر ـ أى أنه إذا كان دفع الضرر عن الكويت لا يكون إلا بالحرب التى تحقق من الأضرار ما هو أكبر بكثير جدًا من الضرر الذى أحاق بالكويت فإن القاعدة الأصولية تقول بعدم استخدام الحرب أبعادًا للضرر الأكبر ووقوفا عند الضرر الأصغر واحتمالاً له .

ثانيا : إذا كانت هناك منفعة تحققها الكويت من الحرب وهناك ضرر بالغ تلحقه الحرب بالمجتمع العربى بالكويت وغيرها فإن القاعدة الشرعية الأصولية تدعوا إلى أن الأولوية لدفع الضرر .

وهنا يجب أن نراعى دفع الضرر الذى تجلبه الحرب أكثر من مراعاتنا للمنفعة التى تجلبها الحرب . .

إن دفع الضرر مقدم على جلب المنفعة . .

وهذا ما عندى فى هذه القضايا الثلاث . . والسلام على من اتبع هدى .

د. محمد أحمد خلف الله

للكاتب ...

- **شهر زاد في الفكر العربي الحديث** : الطبعة الأولى : دار الشروق ، القاهرة ١٩٨٥
الطبعة الثانية : دار شرقيات ، القاهرة ١٩٩٥
- **الحصار** : مسرح شعرى ، هيئة الكتاب ، القاهرة ١٩٨٤
- **الخروج من المدينة** ، مسرح شعري : الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ١٩٩٥
- **اللاعب** : مسرح شعرى ، هيئة الكتاب ، ١٩٩٦
- **الوداع .. ترجمة آخر أشعار ارجوان** : هيئة الكتاب ، القاهرة ١٩٨٦
- **في دائرة النقد** : قطاع الأداب في المركز القومى للفنون التشكيلية ، القاهرة ١٩٨٦
- **الشرقاوى متمرداً** : دار التعاون ، القاهرة ١٩٨٧
- **اعترافات عبد الرحمن الشرقاوى** : المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ١٩٩٦
- **مؤرخو الجزيرة العربية** : دار الموقف العربى ، القاهرة ١٩٨٠
- **المؤثرات الفكرية في الثورة العرابية** : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٢
- **طه حسين والسياسة** : دار المستقبل العربى ، القاهرة ١٩٨٦
- **تحولات طه حسين** : هيئة الكتاب ، ١٩٩٠
- **طه حسين وثورة يوليو** : دار التراث الإسلامى ، القاهرة ١٩٨٩
- **المسرح المصرى في السبعينيات** : هيئة الكتاب ، المكتبة الثقافية ، القاهرة ١٩٨٧
- **المسرح المصرى في الثمانينيات** : الطبعة الأولى : دار الرفاء ، القاهرة ٩٨٤
الطبعة الثانية : هيئة الكتاب ، القاهرة ١٩٩٥
- **البنية الشعرية عند فاروق شوشة** : هيئة الكتاب ، القاهرة ١٩٩٢ (١)
- **عنصر المكان في شعر محمد أبى سنة** : قصور الثقافة ، القاهرة ١٩٩٦ (٢)
- **المثقفون وعبد الناصر** : دار سعاد الصباح ، القاهرة ١٩٩٢
- **زكى نجيب محمود** : (سلسلة نقاد الأدب) ، هيئة الكتاب ، القاهرة ١٩٩٢
- **الخروج من التاريخ** : (دراسة في مدن الملح لعبد الرحن منيف) ، هيئة الكتاب ، القاهرة ١٩٩٣
- **نجيب محفوظ الثورة والتصوف** : هيئة الكتاب ، القاهرة ١٩٩٣
- **الاتجاه القومى في الرواية** : (سلسلة عالم المعرفة) الكويت ١٩٩٤
- **نقد الذات في الرواية الفلسطينية** : دار سيناء ، القاهرة ١٩٩٤
- **الجبرتي والغرب** : (دراسة حضارية مقارنة) ، هيئة الكتاب ، القاهرة ١٩٩٥
- **أحمد بهاء الدين – سيرة قومية** : دار هلا ، القاهرة ١٩٩٦
- **ملامح الرومانسية عند فاروق جويدة** : ت . ط
- **المفكر والأمير ، طه حسين والسلطة في مصر ١٩١٩ / ١٩٧٣** : هيئة الكتاب ١٩٩٧
- **الجات .. والتعبية الثقافية** ، ت ط .
- **نقاد الرواية في نهاية القرن العشرين في مصر** : دار لونجمان ، ت . ط
- **الفريسة والصياد – وثائق اغتيال حسن البنا** : . ت . ط



دار الأمين للطباعة والنشر والتوزيع

٨ ش أبو المعالي (العجوزة) الجيزة - ت/ فاكس: ٣٤٧٣٦٩١

١ ش سوهاج من ش الزقازيق (خلف قاعة سيد درويش) الهرم - جيزة
تليفون وفاكس ٥٦٣٤٦٩٩



. . . هذا هو كتاب جديد عن علاقة المثقف بالسلطة وهو - كما نرى من عنوانه (**مثقفون وجواسيس**) - يتحدد حول الخطابات المتصارعة فى أزمة الخليج وعبر أنماط كثيرة للمثقف العربى ، نحاول به الآن أن نستكمل كتابة تاريخ القرن العشرين حول علاقة المفكر بالأمير ، منذ موقف طه حسين فى بدايات هذا القرن وحتى مثقفى الخليج فى نهايته .

وهذا الكتاب وإن ركز - فى المقام الأول - حول علاقة المثقف بالعسكر والسياسيين وحروبهم الكثيرة فى نهاية القرن (عبر أزمة الخليج) ، فهو يسعى إلى فهم جدلية الصراع بين الطرفين فى التسعينيات .

وبهذا يكون المؤلف قد انتهى من رصد هذه العلاقة الخطيرة ، والتى ترسم (الكادر الخلفى) لها طبيعة دخولنا إلى ألفية ثالثة ، والآثار التى بدأت تتوالى علينا من مدريد إلى أوسلو إلى الحديقة الخلفية للبيت الأبيض إلى وادى عربة إلى الخليل وصولاً إلى مستعمرات أبو غنيم بالقدس ، وعبر عديد من القضايا الهامة فى تاريخنا كقضايا الديمقراطية وفلسطين والحريات وحقوق الإنسان وصولاً إلى (كوبنهاجن) وما بعدها .

باختصار إنها هوية المثقف العربى الجديد .

والكتاب يحاول أن يؤكد لنا أنه حين يغيب الوعى ، يصبح المثقف رديفًا للعميل أو الجاسوس !!

وحرب الخليج الثانية ١٩٩٠ تظل أبرز الأمثلة على غفلتنا وخيبتنا .

دار الأمين ... ٧/٩٦ ...اعة * نشر * توزيع DAR AL-AMEEN

٨ شارع أبو المعالى (...) العجوزة - الجيزة - ج . م . ع ت/ فاكس ٣٤٧٣٦٩١

١ ش سوهاج من ش ... ١٥٧٠٢ ...ة سيد درويش) الهرم - الجيزة ت/ فاكس ٥٦٣٤٦٩٩

١٠ شارع بستان الدكة (من شارع الألفى) مطابع سجل العرب - القاهرة تليفون : ٥٩٣٢٧٠٦